

اعلموا أنني فاطمة

(الجزء الأول)

تأليف

الشيخ / عبد الحميد المهاجر

دولة الكويت

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

علي صراط الحق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ ﴿ مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ ﴾
﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ
أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ
مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ ﴿ تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ ﴿ سَلَامٌ
هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ
كُفُوًا أَحَدٌ ﴾



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

دعاء

اللهم صل على فاطمة وأبيها وبعليها وبنيتها واسر
المستودع فيها بعدد ما أحاط به علمك .

اعتراف

سيدتي أيتها الزهراء البتول يا من فطم الخلق عن معرفتها فكانت
فاطمة .. يا أم أبيها .. وأم الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة،
يا سيدة نساء العالمين، أيتها الطاهرة المطهرة، والآية الكبرى، التي من
عرفها حق معرفتها فقد أدرك ليلة القدر.

يا سيدتي يا مولاتي لقد جئتكَ متأخراً عن الموعد الأخضر كثيراً..
كثيراً.. إذ كان عليّ أن أسبقَ النجوم إلى باب دارك.. ألتمسِ النور
والرحمة والغفران.. كان عليّ أن أسبقَ الفجر إلى أعتابك.. أَلثَمها
وأمرُغ ناصيتي بنورها وترايبها.. بل كان عليّ أن أباري الرياح وأسبق
الأيام لكي أعطر يراعي بالأريج الفواح من روض الطهر ودوح الإشراق
وأيكِ النور..



ولكنها المعاناة التي نكابدها في هذا الزمن الصعب الكئود.. من استبداد الظالمين الذين يفتالون الحروف ويسرقون الأحلام ويقتلون الشوق ويفترسون الفرح.. أخذت بعنقي.. وحالت بين وبين الإبحار إلى شواطئك الكريمة وسواحل جودك وكرمك..

فعذراً.. إذا وصلت متأخراً.. لأن الكتابة عنك وإليك رحمة وسلام.. فما أحلى الساعات، معك تمضي.. وما أسعد الكلمات، عنك تحكي..

سيدتي.. يا ابنة النبوة وأم الإمامة.. إن الكلمة التي كنت تمتلكين زمامها لتقف اليوم خجلى لأنها تسلك مسلكاً وعرأ.. والبيان الذي كان يقطر منك سحراً ليقرّ اليوم بعجزه وهو يخوض مخاضاً عسيراً ويجشّم نفسه غمراً..

فعذرك يا سيدتي إذا قصّر البيان.. وعذرك إذا نبا الكلام.. فأنت أعظم وأروع وأشرف من البيان ومن الكلمات،

وها أنا أعترف بتقصيري.. فلقد تأخّرتُ عنك عشرين حولاً.. إذ كانت فكرة هذا الكتاب المتواضع تراود مخيلتي وتدغدغ أحلامي وتثير في الشوق منذ قرابة عشرين عاماً..

وها أنذا جئتُك منيباً.. معترفاً.. لا أجد مفرأً من الاعتراف بالتقصير في حقكم.. يا أهل بيت النبوة والرحمة.. وموضع الرسالة ومختلف الملائكة..

فهل تقبلين.. يا أكرم سيدة وطئت قدمها التراب.. كاتباً مبتدئاً.. يعطر كلامه باسمك الكريم، ويروّض قلمه لكي يخوض في لجج فكرك الحضاري العظيم.. ويهدي إليك هذا الكتاب الذي ما أردته بحثاً



تقليدياً، في ترتيب عناوينه وفصوله، كما جرت به العادة لدى معظم المؤلفين والكتاب.. وإنما أردته بستاناً فيه ما لذ وطاب من ثمريانع متشابه وغير متشابه على وفرة وتنوع.. وأردته روضاً فيه ما يلذ العين ويريح الأنف من شميم فواح ومنظر خلّاب..

أردته مسرحاً لكل فراشة يبهرها النور ويجذبها الألق ويفريها البريق.. وأردته مرجاً لكل نحلة تسعى خلف الرحيق لكي يستحيل في معملها شهداً فيه شفاء للصدر والعقول..

بل أردته أيكّة تترنّج فوق أفنانها أسراب الطيور وأفواج البلابل وجماعة الشحارير..

فيه لأهل البيت عليهم السلام، وما يتصل بهم، مساحة تتسع لكل العقول الظمأى، ولكل النفوس المؤمنة، التواقة للعيش في رحاب القرآن الكريم، وفيه لأهل الإيمان والتقوى شذى يحكي طهر سيرتك المباركة.. وعطر يتضوع حضارة تثير العتمة للسائرين على دروب الإسلام.. إنه فكرك الذي يمتد بين الأرض والسماء.. وحديث حضارة هي صبغة البناء الإسلامي الشامخ الذي «ينحدر عنه السيل ولا يرقى إليه الطير».

إن كل كلام الأرض.. بكل اللغات واللهجات.. وبكل المقاطع والحروف.. وبكل النبرات والقراءات.. يقف أمامك يا سيدتي ويعترف أنه عاجز عن بلوغ ما يريد ويشتهي.. ومتى استطاع الجزء أن يبلغ الكل؟!.. ومتى غدا الحرف جملة مفيدة؟!.. ومتى كان اليوم دهرًا؟!.. ومتى غدت الحصة جبلاً والقطرة بحراً؟!..

لذلك ليس لي إلا أن أقدم العذر.. ولي أسوة بالمتتبي عندما سئل لماذا لم يقل شعراً في أمير المؤمنين عليه السلام، فقال:



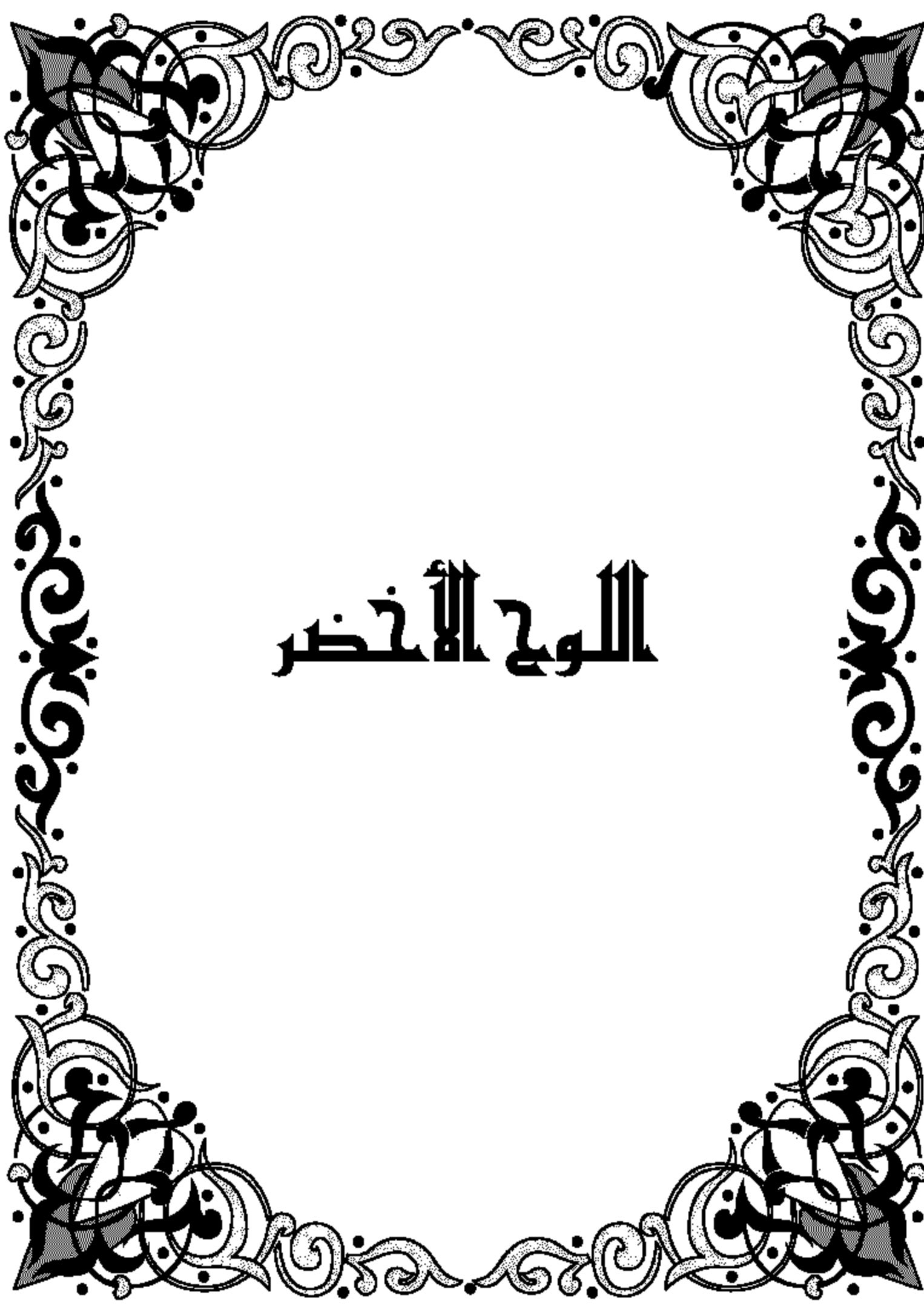
وتركتُ مَدْحِي لِلوَصِي تَعْمُداً إِذْ كَانَ نُوراً مُسْتَطِلاً شَامِلاً
وَإِذَا اسْتَطَالَ الشَّيْءُ قَامَ بِنَفْسِهِ وَصِفَاتُ ضَوْءِ الشَّمْسِ تَذْهَبُ بِاطْلَالِ
وَإِذَا كُنْتُ يَا سَيِّدَتِي قَدْ قَصَّرْتُ فِي الْوُصُولِ عَلَى الْمَوْعِدِ.. وَقَصَّرْتُ فِي
أَنْ أَفِيكَ بَعْضَ حَقِّكَ عَلَيَّ.. فَإِنِّي لَنْ أَقْصُرَ فِي الرَّجَاءِ وَالِدُّعَاءِ وَالْأَمْلِ..
إِنَّ الْأَرْضَ سَوْفَ يَتَغَيَّرُ اسْمُهَا.. وَالْمَاضِي سَوْفَ يَعُودُ.. وَسَوَادُ اللَّيْلِ
سَوْفَ يَمْضِي.. وَالتَّارِيخُ سَوْفَ يَبْرَأُ مِنَ الْعَقْمِ وَسَنَعِيشُ فِي أَلْقٍ دَائِمٍ..
فَغداً.. مِنْ خَلْفِ مَرْمَى الشَّمْسِ.. سَوْفَ يَنْبَلِجُ الضَّوْءُ وَيَخْتَرِقُ أَيَّامَنَا
كَالسَّهْمِ اللَّامِعِ عَلَى صَهْوَةِ الْإِعْصَارِ.. وَسَوْفَ يَغْدُو الْغُرُوبُ فَجْراً..
وَسَوْفَ يَقْتَرِبُ الرَّجَاءُ وَيَدْنُو.. كَمَا صَلَاةُ الْفَجْرِ.. فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ..
فَيَزْهَرُ الْأَمْلُ، وَتَخْضُرُ الْأَرْضُ.. وَيَسِيرُ فِيهَا النَّاسُ هَلْيَالِي وَأَيَّامًا
آمِينَ^(١).. بَعْدَ أَنْ تَكُونَ قَدْ سَادَهَا الْعَدْلُ وَالْإِنْصَافُ بِظُهُورِ وَلَدِكَ
الْمَهْدِيِّ قَائِمِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، عَجَّلَ اللَّهُ تَعَالَى فَرَجَهُ الشَّرِيفَ.. وَعَلَى هَذَا
أَقْدَمَ بَيْنَ يَدَيْكَ هَذَا الْجَهْدَ الْخَجُولَ الْمُتَوَاعِ مَبَادِراً قَبْلَ قُدُومِ الْغَائِبِ
الْمُنْتَظَرِ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامِهِ عَلَيْهِ.

وَبَعْدُ.. فَإِنَّكَ يَا سَيِّدَتِي.. أَهْلٌ لِكُلِّ كَرَمٍ وَجُودٍ.. وَسَمَاحَةٍ وَفَصَاحَةٍ..
أَنْتِ مِنْهَلُ النُّورِ، وَيَنْبُوعُ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى، وَمُصْدِرُ كُلِّ خَيْرٍ وَفَضِيلَةٍ..
فَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ وَسَلَامٌ مِنْهُ وَرِضْوَانٌ.. عَلَيْكَ وَعَلَى
أَبِيكَ.. وَبَعْلِكَ وَبَنِيِّكَ.. وَعَلَى السِّرِّ الْمُسْتَوْدَعِ فِي شَخْصِكَ الْعَظِيمِ.. يَا
فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ.. يَا سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ.. وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

خادمك

عبد الحميد



A decorative border with intricate floral and scrollwork patterns, featuring stylized leaves and swirling lines, framing the central text.

اللوحة الأظھر

اللوح الأخضر في يدي فاطمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين حبيب إله العالمين، أبي القاسم محمد ﷺ ولعنة الله على أعدائهم أجمعين.

وبعد: فهذه أفكار ورؤى وتأملات نشأت من نظرات ألقيتها على حديث اللوح الأخضر الذي رواه أهل البيت الطيبين كما رواه جابر بن عبد الله الأنصاري يوم دخل على فاطمة الزهراء الطيبة يُهنئها بمولد الإمام الحسين ﷺ فرأى في يديها لوحاً أخضر يشبه الزمرد فيه كتابة أضواء من نور الشمس تخطف الأبصار وتثير العقول، وعندما سألتها عن اللوح الأخضر هذا وما فيه من أسرار قالت الزهراء الطيبة: (هذا لوح أهداه الله إلى رسوله ﷺ فيه اسم أبي واسم بعلي واسم ابني واسم الأوصياء من ولدي، واعطانيه أبي ليبشرني بذلك).

على أن هذا اللوح له شأن عظيم حيث أنه نزل به جبرئيل يوم مولد الإمام الحسين ﷺ وكما يستفاد من بعض الأخبار أن جبرئيل نزل بثلاثة أشياء يوم مولد الحسين: باللوح الأخضر، وزيارة عاشوراء وقبضة من تراب كربلاء، وهذا هو الحق الذي لا أحيد عنه ذرة واحدة، خصوصاً وأن زيارة عاشوراء كانت أشبه بالحديث القدسي منها بالزيارة، لأن السند الذي يذكره أهل البيت في زيارة عاشوراء يبدأ من الإمام المعصوم إلى رسول الله ﷺ ثم إلى جبرائيل وإلى الله عز وجل،



وإنما أذكر هذه الحقائق حتى لا يغفل عنها الناس لا سيما ونحن نشاهد هجمة عنيفة ضد زيارة عاشوراء، وضد التربة الحسينية وضد قيمنا ومبادئنا هنا وهناك يقودها -أي هذه الحملة المشككة- بعض العمائم المنحرفة التي لا يزيدها العلم إلا بعداً عن الحق وقرباً من الباطل، وإنا لله وإنا إليه راجعون، وهو حسبنا ونعم الوكيل ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد.

والآن أنقل لكم نص الحديث حتى يتسنى لنا الدخول في رحابه والإصغاء لما يقول هذا الحديث الأخضر، وأنقله لكم كما هو من كتاب الكافي عن الإمام أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام وإليكم النص بالحرف الواحد:



جابر يحدثنا

عن محمد بن يحيى ومحمد بن عبدالله، عن عبدالله بن جعفر عن الحسن بن ظريف وعلي بن محمد، عن صالح بن أبي حماد، عن بكر بن صالح، عن عبدالرحمن بن سالم، عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال أبي لجابر بن عبدالله الأنصاري: إن لي إليك حاجة فمتى يخف عليك أن أخلو بك فأسئلك عنها، فقال له جابر: أي الأوقات أحببته. فخلا به في بعض الأيام فقال له: يا جابر أخبرني عن اللوح الذي رأيته في يد أمي فاطمة عليها السلام بنت (محمد) رسول الله ﷺ وما أخبرتك به أمي أنه في ذلك اللوح مكتوب؟

فقال جابر: أشهد بالله أنني دخلت على أمك فاطمة عليها السلام في حياة رسول الله ﷺ فهنيئتها بولادة الحسين، ورأيت في يديها لوحاً أخضر، ظننت أنه من زمرد، ورأيت فيه كتاباً أبيض شبه لون الشمس، فقلت لها: بأبي وأمي يا بنت رسول الله ﷺ ما هذا اللوح؟

فقالت: هذا لوح أهداه الله إلى رسوله ﷺ فيه إسم أبي، وإسم بعلي، وإسم ابني، وإسم الأوصياء من ولدي، واعطانيه أبي ليبشرني بذلك.

قال جابر: فاعطيتيه أمك فاطمة عليها السلام فقرأته واستتسخته، فقال له أبي: فهل لك يا جابر أن تعرضه علي؟ قال: نعم، فمشى معه أبي إلى منزل جابر فأخرج صحيفة من رق، فقال: يا جابر أنظر في كتابك لأقرأ -أنا- عليك، فنظر جابر في نسخته فقرأه أبي فما خالف حرف حرفاً، فقال جابر: فأشهد بالله أنني رأيته في اللوح مكتوباً:

بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من الله العزيز الحكيم لمحمد
نوره وسفيره وحجابه ودليله نزل به الروح الأمين من عند رب العالمين
عظم يا محمد أسمائي وأشكر نعمائي ولا تجحد آلائي إني أنا الله لا
إله إلا أنا قاصم الجبارين ومبير المتكبرين ومذل الظالمين وديان يوم
الدين إني أنا الله لا إله إلا أنا فمن رجا غير فضلي أو خاف غير عدلي
عذبتة عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين فإياي فاعبد وعلي فتوكل إني
لم أبعث نبياً فأكملت أيامه وانقضت مدته إلا جعلت له وصياً وإني
فضلتك على الأنبياء وفضلت وصيك على الأوصياء وأكرمتك بشبليك
بعده وبسبطيك الحسن والحسين وجعلت حسناً معدن علمي بعد
انقضاء مدة أبيه وجعلت حسيناً خازن وحيي وأكرمتة بالشهادة وختمت
له بالسعادة فهو أفضل من استشهد وأرفع الشهداء درجة جعلت كلمتي
التامة معه والحجة البالغة عنده بعترته أثيب وأعاقب أولهم علي سيد
العابدين وزين أوليائي الماضين وابنه سمي جده المحمود محمد الباقر
لعلمي والمعدن لحكمتي سيهلك المرتابون في جعفر الراد عليه كالراد
على حق القول مني لأكرمن مثوى جعفر ولأسرنه في أوليائه وأشياعه
وأنصاره وانتحبت بعد موسى فتنة عمياء حندس لأن خيط فرضي لا
ينقطع وحجتي لا تخفى وأن أوليائي لا يشقون أبداً ألا ومن جحد
واحداً منهم فقد جحد نعمتي ومن غير آية من كتابي فقد افترى علي
وويل للمفترين الجاحدين عند انقضاء مدة عبيدي موسى وحببي
وخيرتي ألا إن المكذب بالثامن مكذب بكل أوليائي وعلي وليي وناصري
ومن أضع عليه أعباء النبوة وأمتحنه بالاضطلاع يقتله عفريت مستكبر
يدفن بالمدينة التي بناها العبد الصالح ذو القرنين إلى جنب شر خلقي



حق القول مني لأقرن عينه بمحمد ابنه وخليفته من بعده فهو وارث علمي ومعدن حكمتي وموضع سري وحجتي على خلقي جعلت الجنة مثواه وشفعته في سبعين من أهل بيته كلهم قد استوجبوا النار وأختم بالسعادة لابنه علي وليي وناصري والشاهد في خلقي وأميني على وحيي أخرج منه الداعي إلى سبيلي والخازن لعلمي الحسن ثم أكمل ذلك بابنه رحمة للعالمين عليه كمال موسى وبهاء عيسى وصبر أيوب ستذل أوليائي في زمانه ويتهادون رؤوسهم كما تهادى رؤوس الترك والديلم فيقتلون ويحرقون ويكونون خائفين مرعوبين وجلين تصبغ الأرض من دمائهم ويفشوا الويل والرنين في نسائهم أولئك أوليائي حقاً بهم أرفع كل فتنة عمياء حنّس وبهم أكشف الزلازل وأرفع عنهم الآصار والأغلال أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون قال عبدالرحمن بن سالم قال أبو بصير لو لم تسمع في دهرك إلا هذا الحديث لكفاك فضنه إلا عن أهله.



اللوح الأخضر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

روى محمد بن يحيى ومحمد بن عبدالله، عن عبدالله بن جعفر عن الحسن بن ظريف وعلي بن محمد عن صالح بن أبي حماد، عن بكر بن صالح عن عبدالرحمن بن سالم عن أبي بصير عن أبي عبدالله بن جعفر بن محمد الصادق عليهما الصلاة والسلام قال: قال أبي -أي الإمام الباقر عليه السلام- لجابر بن عبدالله الأنصاري أن لي إليك حاجة، فمتى يخف عليك أن أخلو بك فأسئلك عنها، فقال له جابر: أي الأوقات أحببت، فخلا به في بعض الأيام فقال له: يا جابر أخبرني عن اللوح الذي رأيته في يد أمي فاطمة عليها السلام، بنت رسول الله ﷺ وما أخبرتك به أمي أنه في ذلك اللوح مكتوب؟ فقال جابر: أشهد بالله أني دخلت على أمك فاطمة عليها السلام في حياة رسول الله ﷺ فهنيتها بولادة الحسين ورأيت في يديها لوحاً أخضر، ظننت أنه من زمرد، ورأيت فيه كتاباً أبيض، شبه لون الشمس، فقلت لها: بأبي وأمي يا بنت رسول الله ﷺ ما هذا اللوح؟

فقالت: هذا لوح أهداه الله إلى رسوله ﷺ فيه اسم أبي واسم بعلي واسم ابني واسم الأوصياء من ولدي، واعطانيه أبي ليبشرني (ليسرني) بذلك قال جابر: فاعتنيه أمك فاطمة عليها السلام فقرأته واستتسخته، فقال له أبي: فهل لك يا جابر أن تعرضه عليّ، قال: نعم، فمشى معه أبي إلى منزل جابر فأخرج صحيفة من رق فقال يا جابر: أنظر في كتابك لأقرأ (أنا) عليك، فنظر جابر في نسخته فقرأه أبي فما خالف حرف حرفاً فقال جابر: فأشهد بالله أني رأيته في اللوح مكتوباً.



هذا كتاب من الله العزيز الحكيم .. الخ ص ٦٠٦ ج ١ - الكافي.

مزيد من الضوء

عندما نلقي مزيداً من الضوء على هذا الحديث الذي هو مصدر الضوء، تتكشف أمامنا حقائق لا بد من عدها وذكرها والتركيز عليها لأنه من دونها لا يمكن أن نستوعب مثل هذا الحديث الذي يثير العقول ويحرك الخشوع ويحيي القلوب وأولها: أن هناك حجباً وأغطية تمنع الإنسان من رؤية الحق ومعرفة أهله، وحتى نرى الحق حقاً فنتبعه والباطل باطلاً فنجتنبه، فإنه لا بد لنا من التعرف على بعض تلك الموانع لنرفعها، والحجب لنزيلها وهي -حسب ما ذكر- عشرة موانع تتبعها موانع أخرى يمكن عدها على أصابع اليدين ومن خلال رؤية القرآن المجيد لهذا الأمر تظهر الحقائق التالية: أولاً: الناس أغلبهم تراه يعيش في غطاء عن ذكر الله، وفي غفلة قاتلة لا يخرجهم من هذه الغفلة إلا الموت «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا» وعندها تظهر الندامة وتشتعل الحسرة في القلوب حيث لا ينفع الندم ولا تفيد الحسرة ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ثم يقول: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾^(١) على أن هذه السكرة التي جاءت تسعى إلى الإنسان وأمسكت به من الحلقوم إنما هي نتيجة طبيعية لتراكم السكرات التي كان يعيش فيها في الحياة الدنيا: من

(١) ق/١٩-٢٢.

قبيل سكرة المال، وسكرة السلطان، وسكرة الغرورة، وسكرة الصحة والجدّة، وسكرة الاسترسال وراء الشهوات وخلف الشيطان حتى تناسلت تلكم السكرات فظهرت في ساعة الاحتضار، وهي لشدتها لا تملك ازاءها إلا الدعاء أن يخففها عنا، نسأل الله العافية والراحة عند الموت والعفو عند الحساب.. وعلى ذكر هذه السكرات أقول لكم أيها الأحبة: أن الله عز وجل ذكر في سورة الواقعة أن الناس ثلاثة عند خروجهم من الدنيا إلى الآخرة وهم المقربون وأصحاب اليمين والمكذبون الضالون ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينًا تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةٌ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦)﴾^(١)، وتأملوا جيداً أن هذه الأصناف الثلاثة من الناس هم الراحلون عن الحياة بهذه الطريقة فمنهم المقربون وهؤلاء بلغ بهم الإيمان واليقين درجة ليس فوقها درجة إلا درجة الأنبياء والأوصياء والأئمة عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام، ثم تأتي منزلة ثانية أقل من الأولى بدرجة وهم أصحاب اليمين وما أدراك ما أصحاب اليمين فهم يتلقون تحية وسلاماً لا يعرف مصدر أحد إلا هم لذلك قال: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ وهنا أطلق لخيالك العنان

(١) الواقعة / ٨٣-٩٦.



لتعرف الذين أطلقوا عليك السلام في ساعة الاحتضار هذه، ويا لها من ساعة عظيمة وشديدة، لا يعرف شدتها ولا عظمتها إلا من وقع فيها نسأل الله العافية، وأما الصنف الثالث من الناس فهم المنافقون والكفار والفجار، والظلمة وأعوان الظلمة فإن لهم نزلاً من حميم، وتصلية جحيم تنتظرهم على أبواب القبور ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةٌ جَحِيمٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ إذاً: فهذا فوج من الناس يقضي حياته في غفلة في الحق وفي غطاء عن ذكر الله عز وجل.

على أن آية الغطاء هذه تكشف عن حقائق وأبعاد كثيرة ومنها على سبيل المثال نسبة الغطاء إلى الإنسان: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾^(١) أجل أنه غطاءك أيها الإنسان فأنت غطيت نفسك به، فإن الله لم يجعل غطاءً على قلبك ولا على بصرك ولا على سمعك بل أنت جعلت الأغلال في عنقك ووضعت هذا الغطاء على سمعك وبصرك وفؤادك فلا تلومن إلا نفسك وعلى هذا فإن هناك أغلالاً وقيوداً وحجباً وموانع كثيرة يفرق الناس فيها فتحول بينهم وبين المعرفة بل حتى أنها تمنعهم من الانتفاع والاستفادة من هذه الطاقات التي جعلها الله في الكون في خدمة الإنسان وسخرها مع الليل والنهار للناس كافة.

على أنه لا يمكن للمعرفة أن توجد وتتشأ مع هذه القيود والأغلال والموانع والحجب، بل لا بد من رفعها أولاً لكي تتطلق قناديل المعرفة مضيئة متلألأة في القلوب والعقول والآفاق.

إذاً فحتى تتحقق المعرفة لا بد من رفع الموانع أولاً، وإنما يتم رفعها

(١) ق/٢٢.



بالأمور التالية وهي كشروط أساسية لرؤية الحق وبغيرها لا تتم الرؤية ولا يتحقق وهنا يطلع علينا سؤال يقول: هل في إمكاننا أن نرفع هذه الأغلال وتلك القيود، والموانع والحجب؟ والجواب: أجل نستطيع وبكل صدق وإخلاص أن نرفع هذه العقبات من طريقنا وننطلق في رحلة العلم والبناء والفتح والنصر.

نعم.. أنه في إمكاننا ومقدورنا واستطاعتنا أن نصنع مثل هذا وأكثر. على أننا نواجه في البداية النقاط التالية وهي تشبه نقاط التفتيش التي تقوم هنا وهناك على قارعة الطريق وأولها:

الخروج من الظلمات إلى النور، لأن الذي يقبع في الظلمات تضيق منه الرؤية السليمة لوجود الحقائق والأشياء فلا يرى حقاً ولا يتفاعل شيء يمت إلى الحق بصلة، اللهم إلا التفاعل مع جبهة الشر والتعامل مع الشيطان مباشرة لأنه يقبع هو الآخر في الظلمات ليس بخارج منها، ولذلك قال الله عز وجل لموسى بن عمران عليه السلام: ... اخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله، لأن الذكرى تنفع المؤمنين وصاحب الظلام لا إيمان له ولا يقين، لأن الإيمان بحد ذاته نور وضياء ورحمة.. فهذه أول خطوة في طريق المعرفة تتمثل في الخروج من الظلمات إلى النور، ولأن ذلك لا يتم إلا من خلال شخص معصوم مثل موسى كما توحى هذه القصة فإن الذهاب إلى غير بيت فاطمة لا يغني عن الحق شيئاً، وهذه قضية واضحة لا لبس فيها ولا غبار وإنما هي تلمع في أشعة الحق كما تظهر الأشياء في أشعة الشمس، يدلنا على ذلك ذهاب الرسول الأعظم محمد ﷺ إلى بيت فاطمة عليها السلام، عندما وجد في بدنه ضعفاً في قصة حديث الكساء التي تبين أن الضعف كان



في بدن النبي لا في قلبه ولا في روحه، وفي هذا اثارة واضحة إلى أن معالجة الضعف الذي يظهر في حياتنا بكل أشكاله وأبعاده إنما تتم من خلال هذا البيت الطاهر الذي أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه، فهو البيت الوحيد المعصوم الطاهر المطهر الذي كله خير ونور ورحمة وبركة ولهذا أمرنا الله أن نتوجه إلى أهل هذا البيت في حل مشكلاتنا وجمع شملنا وأحياء قلوبنا وحفظ ديننا وعقيدتنا، بل أن القوة التي أمرنا الله بأعدادها للوقوف بوجه الطغاة والظالمين لا توجد إلا عند فاطمة وفي بيتها يدل على ذلك حديث اللوح الأخضر هذا الذي نحن بصدد شرحه وتفسيره وإعطاء مزيداً من الضوء والتأمل والفكر، لأن اللوح الأخضر جمع الخير كله، وأظهر الحق كله، وأطلق الصدق كله والعدل كله ولا تتم كلمة الله إلا بالصدق والعدل، وهنا في بيت علي وفاطمة عليهما السلام: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١١٥) ﴿١﴾.

(١) الأنعام/١١٥.



حقيقة الكلمة

أجل.. فإن الكلمة لا تظهر حقيقتها إلا بشرطين اثنين أساسيين هما العلم والعمل، والأول يحتاج إلى الإيمان والثاني يحتاج إلى الحق حتى يتحقق الارتفاع: ﴿فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾^(١) وكما في البيوت كذلك في المدارس، فالمدرسة يجب أن ترتبط بهذا البيت الفاطمي لكي يتحقق الارتفاع وتحصل الرفع ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾^(٢) وما هذا الارتفاع في العلم والإيمان إلا بفعل الارتباط الحاصل بين هذه المدارس وبين هذا البيت الطاهر.

على أننا يمكن أن نلخص هذه الفكر بكلمات قليلة في هذا المضمار وهي: أن الارتفاع نوعان: ارتفاع بالبدن لرؤية الأشياء، وارتفاع بالروح لرؤية الحقائق، وكما أن ارتفاع البدن لا يعطي ثمرة إلا بنور الشمس لأن الظلام يمنع من الرؤية التي من شروطها وجود النور والهواء وسلامة العين، ففي الظلام العين سالمة والهواء موجود ومع ذلك لا تحصل الرؤية، وكذلك الأمر بالنسبة للارتفاع بالروح لرؤية الحق فإنه لا يتم بغير نور الإيمان وضياء اليقين وكلما ارتفع الإنسان بروحه أكثر ظهرت له حقائق أكثر ورضوان من الله أكبر، وهذه مسألة يمكن لأي واحد منا أن يتأكد من صحتها بشيء من التأمل والتدبر في آيات الله

(١) النور/٣٦

(٢) المجادلة/١١.



عز وجل المنبثة في الآفاق وفي الكتاب وفي النفوس، فإن في كل شيء آيات وآيات وآيات لا تخفى على كل إنسان له قلب أو ألقى السمع هو شهيد.

وثانيهما: إن الخروج من الظلمات له طرق معروفة وواضحة لا يمكن الخروج من غيرها أبداً، ونذكر شطراً من بعضها على سبيل التذكير والإيحاء ثم نكملها في خلال هذا البحث.. فقد ذكر القرآن الكريم هذه الطرق بآيات عديدة ومنها آية النور التي يقول فيها الحق سبحانه: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ - إِلَى أَنْ يَقُولَ: وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ وبشيء من التدبر في هذه الآيات الكريمة نستطيع أن نتفقه ونتفهم ونستوعب القضية الأساسية التي نحن في صددتها بالكامل، وهي: ضرب الأمثال لإثارة العقول وتحريك المشاعر، فهذا مثل ضربه الله عز وجل لأهل البيت عليهم السلام، فهو الله نور السموات والأرض، وهناك شخصية تمثل هذا النور واطلق عليها اسم المشكاة التي تحتوي على مصباحين اثنين في زجاجة كأنها كوكب دري.. على أننا ندرك جيداً أن المشكاة إنما هي تضيء السموات والأرض بنورها لأن الله يقول: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ إذن: فهذه المشكاة تحتوي على نور الله العظيم ولذلك فهي تضيء السموات والأرض لأن الله جعلها مثلاً لنوره الذي تتلأأ السموات والأرض به وأهل البيت عليهم السلام قالوا: بكلمة واحدة وفيهم رسول الله ﷺ: إن المراد بالمشكاة في آية النور إنما هي فاطمة الزهراء - صلوات الله وسلامه عليها، فهي المشكاة التي تضيء الوجود بنورها وويل لمن سن

ظلمها وآذاها، ثم ويل لمن يفسر القرآن برأيه فيقول: أن المشكاة هي الكوة غير النافذة في جدار! وأي تفسير هذا التفسير..؟ كوة غير نافذة في جدار هي التي تمثل نور الحق الذي اضاءت به السموات والأرض؟ لا والله ليس هذا هو التفسير ولا التأويل ولا هو مما نزل من الحق وإنما هذا مما لم ينزل به الله سلطاناً إن الذي يريد أن يفهم القرآن عليه أن يذهب إلى بيت علي وفاطمة البيت الذي أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه، ثم يبين أن في هذا البيت رجال وأي رجال هؤلاء؟ إنهم رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله بخلاف الذين كانوا يصلون خلف النبي فإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوا المصطفى قائماً وحده في المحراب ومعروف من هم الذين يتركون النبي وحده في المحراب وينفضون إلى التجارة واللهو كما جاء ذلك في سورة الجمعة ويا ليت الأمر اقتصر على تركهم النبي ﷺ قائماً في المحراب يصلي وانصرفهم إلى التجارة مثلاً وإن كان الأمر غير مستساغ ولا مقبول في الذوق والعقل والمنطق ولكن يمكن أن يسكت المرء عنهم على مضض.. أما أن يكون الانصراف عن صلاة النبي من أجل اللهو واللعب فهذا أمر يستحق الوقوف عنده كثيراً خصوصاً مع الذين يعتقدون بعدالة الصحابة ويجعلونهم فوق كل شبهة ونقد وخطأ.. ولا يسمحون لأحد من الناس أن يثير سؤالاً أو يقول إشكالاً على أحد من هؤلاء الصحابة الذين يكشفهم القرآن على حقيقتهم فيصورهم وهم يتركون النبي وحده في الصلاة قائماً مسارعين للهو والتجارة ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾^(١) لأنهم لا يؤمنون أن ما عند الله

(١) الجمعة/ ١١.



خيراً من اللهو ومن التجارة وأن الله خير الرازقين، هذا لا يؤمنون به ولو آمنوا لظهر أثر ذلك في سلوكهم وأنهم يحافظون على صلواتهم ولكن الأمر بخلاف ذلك تماماً.. إذ المسألة لا تقتصر على تركهم الصلاة وتركهم النبي قائماً في صلاته وإنما المسألة تصل إلى درجة أنهم يتركون النبي وحده في ساحات القتال كما حدث ذلك في يوم أحد ويوم حنين إذ يقول القرآن ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ﴾ (٢٥) (١) تأملوا العبارة جيداً ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ﴾ وهذا يعني أن أصحاب النبي باستثناء المخلصين منهم الذين يعدون على أصابع اليدين ومنهم سلمان وأبو ذر وعمار والمقداد وأمثال هؤلاء الأبطال الذين بحق يطلق عليهم أنهم أصحاب النبي الكرام المنتجبين كما يصفهم الإمام زين العابدين عليه السلام في الصحيفة السجادية، أقول: بأن أصحاب النبي - باستثناء قلة منهم - كانوا يفرون من القتال، ويتركون النبي وحده عرضة للرماح والسيوف والنبال والحجارة وقد عجت كتب السيرة والحديث والتاريخ بهذه الصور المؤلفة لأصحاب النبي الفارين من الزحف الهاربين من القتال، التاركين النبي وحده يقاتل ووحده يصلي.. فأين هؤلاء من معرفة الحق؟... والآن اسمعوا وفكروا واقرأوا خطاب السيدة الطاهرة الحوراء الأنسية فاطمة الزهراء عليها السلام وهي تخاطبهم:

وكنتم تتكصون عند النزال، وتفرون من القتال فلما اختار الله لنبيه دار انبياءه وأوليائه ومأوى اصفياه ظهرت فيكم حسيكة النفاق وسمل جلباب الدين ونطق كاظم الفاوين وهدر فنيق المبطلين فخر على عرصاتكم واطلع الشيطان رأسه من مغرزه هاتفاً بكم فالفاكم لدعوته

(١) التوبة/ ٢٥.

مستجيبين وللغرة فيه ملاحظين، فاستتهضكم فوجدكم خفافاً
واحمشكم فالفاكم غضاباً، فوسمتم غير ابلکم ووردتم غير موردکم هذا
والعهد قريب والكلم رحيب والجرح لما يندمل والرسول لما يقبر، ابتداراً
زعمتم خوف الفتنة إلا في الفتنة سقطوا وأن جهنم لمحيطة بالكافرين،
فهيئات منكم وكيف بكم وأنى تؤفكون.

فاطمة عليها السلام والطريق الواضح

إذن: فقد أوضحت الزهراء عليها السلام بشكل ليس فيه غموض ولا لبس بأنهم كانوا يفرون من القتال وينكصون عند النزال كما ذكر ذلك الحق سبحانه في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ولأنهم كانوا يفرون من القتال، وينكصون عند النزال ويتركون النبي وحده قائماً يصلي في المحراب وهم يسارعون ليس في الخيرات وإنما في اللعب واللهو والتجارة المرتبطة بهذا اللون من اللهو.. لأنهم كذلك فقد ظهرت فيهم حسيكة النفاق بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وهم الذين كانوا يؤذون رسول الله والقرآن يردهم عن هذا ويقول بصراحة! ما كان لكم أن تؤذوا رسول الله.. ويقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (٥٧) (١).

الغرض مما تقدم هو أن البيت الذي فيه رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وأقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار إنما هو بيت فاطمة الزهراء عليها السلام وهو ذات البيت الذي أطعم الطعام للمسكين واليتيم والأسير ونزلت في ذلك سورة الدهر التي تتلى أثناء الليل وأطراف النهار معلنة أن بيت فاطمة هو البيوت التي أذن الله أن ترفع.. الخ وإنما جاء به بصيغة الجمع لأنه

(١) الأحزاب / ٥٧.



المثل الأعلى لكل بيوت الأحرار من المؤمنين والمؤمنات في الأرض وشأنه في ذلك شأن فاطمة سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين ولأنها كذلك فقد جاء ذكرها بصيغة الجمع كما في آية المباهلة ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (٦١) (١) إذن فقد ورد ذكرها واسمها بصيغة الجمع رغم أنها واحدة وذلك لأنها سيدة نساء العالمين ولأنها المثل الأعلى ليس للنساء فحسب بل وأيضاً للرجال المؤمنين الأحرار في أرجاء المعمورة هذه التي نعيش على سطحها .

إذن: فالذي يريد أن يتدبر القرآن ويدرك الحق من خلاله، عليه أن يذهب إلى بيت فاطمة الزهراء عليها السلام لأن الله أمرنا أن نأخذ من هذا البيت الإيمان والعلم واليقين، وذلك أن الله تبارك وتعالى لا يقبل إيماناً ولا عملاً ولا علماً لا يخرج من هذا البيت كما قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: كل علم لا يخرج من هذا البيت فهو باطل، وهذا هو الحق لأن القرآن أمرنا أن نتوجه إلى بيوت أذن الله أن ترفع فيقول: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤٣) (٢) وهذه حقيقة تتفتح على حقائق أخرى اذكر لكم منها على سبيل المثال الحقائق التالية:

الخروج من بطون الأمهات بغير علم.. ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨) (٣).

(١) آل عمران / ٦١ .

(٢) النحل / ٤٣ .

(٣) النحل / ٧٨ .

يولد الإنسان وتولد معه هذه الأدوات التي تدل على أنه مخلوق ذو شأن وأنه إنما ولد ليحمل أمانة ويؤدي رسالة ولذلك كانت أجهزة بدنه مصنوعة وفقاً لمهمته التي سيقوم بها ولذلك كان الإنسان مسؤولاً ليس عن ذاته فقط وإنما عن هذه الأدوات بل الأدوات والآلات هذه التي نزلت معه من بطن أمه هي الأخرى مسؤولة وتحمل من الطاقة ما يجعلها قادرة على أداء المهمة وحمل الرسالة وأداء الأمانة، ومن هنا كانت خطوات الإنسان مدروسة وأنفاسه محسوبة ومعدودة كما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤)﴾^(١) إذ يفسر العد بأنه خاص بالأنفاس لا بالأيام والوقت بالشهور والسنين لأن الأيام والشهور يستطيع كل إنسان أن يعدها ويحصى بها بخلاف التي يخرجها احصائها عن السيطرة لذلك كله كانت حياة هذا الإنسان تجري وفق نظام دقيق وحكيم وعلى هذا توجب على الإنسان أن يخضع فكره وقوله وعمله لمنهج الحق وعلى طريق الحق إذ لا مجال لكلمة تتطلق على لسانه بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، وكما في القول والكلام، كذلك في الفكر والعمل والحياة: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦)﴾^(٢).

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)﴾^(٣) وهنا

(١) مريم / ٨٤.

(٢) الاسراء / ٣٦.

(٣) الأعراف / ١٧٩.



لاحظوا دقة التعبير حيث تبدأ الآية الأولى التي تتحدث عن خروج الإنسان من بطن أمه، فتذكر أولاً حاسة السمع ثم البصر ثم الفؤاد حسب تدرج الوعي لدى الطفل الوليد، فهو يسمع قبل أن يفتح عينيه، ثم يرى بعينه قبل أن يعي بقلبه وفؤاده وهذه حكمة بالغة أنه يسمع الأصوات المألوفة لديه التي كان يسمعها وهو في بطن أمه كما أثبتت الأبحاث والدراسات العلمية في هذا المجال حيث ثبت بالأرقام أن الجنين يسمع الأصوات في بطن أمه ويميزها بحيث تصبح عنده حالة خاصة لتمييز هذه الأصوات بعضها من بعض، ولذلك عندما يولد الطفل يولد ألوفاً للأصوات التي ألفها وكانت مألوفة لديه بخلاف الأصوات الغريبة التي تسبب له ارباكاً وانزعاجاً منها فيرفضها بالبكاء.

* الأذان أول صوت يسمعه الإنسان:

على أن الشيء اللافت للنظر هو أنه يسمع أول صوت يقرع سمعه بعد الولادة هو صوت الأذان والإقامة، فأول كلمة تهز مشاعره بالإيمان لأنه مولود على الفطرة كلمة الله أكبر أي كلمة التوحيد وأول وجه يراه الطفل بعد ولادته هو وجه الأم ويا لها من مكرمة عظيمة تكشف عن العلاقة التي تربط الإنسان بأمه.. ثم بعد السمع والبصر يتحرك الفؤاد بأخذ المعلومات وهضمها والتفاعل معها في بيان رائع نجده في الحديث الشريف الذي يقول: (اطلب العلم من المهد إلى اللحد) علماً بأن الظاهر لا يوحي لنا بأن الطفل يستطيع ممارسة طلب العلم وهو في المهد غير أننا حين ندقق النظر، ونتأمل المسألة نجد أن الطفل يلتقط العلم وهو في المهد يشبه في ذلك جهاز التسجيل (الريكوندك)



يأخذ ويخزن المعلومات في خاطره وعقله وفؤاده إلى أن يحين موعد الكلام عندها يطلق ما أخذه من معلومات وما سمعه من أصوات، وما رآه من صور وأشياء.. فهنا إذن نجد البدء كان من السمع ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ تأملوا كيف بدأت الآية بنعمة السمع ثم الأبصار وإنما جاءت الأبصار بصيغة الجمع وجاء السمع بصيغة المفرد لأن السمع في العادة لا يقبل أكثر من صوت واحد وإلا اضطربت الأصوات خصوصاً إذا كثر الكلام عند السامع من أناس عدة، أما البصر فيرى أشياء كثيرة في آن معاً ولعل الملاحظة الجديرة بالالتفات والبيان هي: أن آية الولادة بدأت بالسمع ثم البصر ثم الفؤاد -كما مرت الإشارة إلى ذلك- في حين أن آية جهنم بدأت بالعكس أي أنها بدأت في الفؤاد ثم تدرجت رجوعاً إلى البصر وانتهت بالسمع: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)﴾. وإنها بدأت هذه الآية بهذا الترتيب للجوارح لأن الحقائق مكشوفة لا يحجبها شيء بخلاف الدنيا تماماً حيث تنسج الذنوب حجباً وموانع وتجعل الإنسان العاصي الخطاء في غطاء عن ذكر الله وفي حجاب عن رؤية الحق وخصوصاً إذا أنكر الآخرة ورفض الإيمان بها فإنه يستحيل عليه أن يفهم أو يدرك شيئاً من الحق والصدق وأهله ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (٤٥)﴾^(١) أنه حجاب يمنع

(١) الاسراء/ ٤٥.



الرؤية ويحجب الفهم ولكنه غير مرئي أي أنه مستور لأنه حجاب للقلب والعقل والروح والنفس وليس حجاباً للبدن، وكل ذلك إنما يحصل لأن هؤلاء عطلوا عمل هذه الأدوات، فاغلقوا آذانهم عن الحق وغطوا أبصارهم عن الحقيقة وأصروا على الكفر في قلوبهم كما قال نوح عليه السلام ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً (٧)﴾^(١) وتأملوا الدقة في التعبير هنا فهو -أي نوح عليه السلام- يدعوهم ليلاً ونهاراً قرابة ألف عام دون انقطاع ولا ملل وهذا يعني أنه كان يرتقي المنبر في كل يوم مرتين على الأقل، ويا ليت عنده مستمعين يقدرّون موقفه وينصتوا لكلامه لهان الأمر، وقل الخطب، ولكنهم ما كانوا يسمعون ولا يصغون إليه، وأكثر من ذلك كانوا يجعلون أصابعهم في آذانهم فهذا جهاز السمع عطلوه بهذه الطريقة المجنونة، ثم جهاز البصر جعلوا ثيابهم فوقه حتى لا يروا نوحاً يخطب بينهم - واستغشوا ثيابهم - وبقي جهاز القلب يقول عنه الحق: ﴿وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً﴾ أي أنهم معاندون لا تتفعهم موعظة ولا كلمة لأنهم كفروا بالله العظيم..

على أن هناك فكرة رائعة في هذا المجال يذكره القرآن الكريم في آية تبين أن من أسباب التفريط بهذه الجوارح والأدوات وعدم إعطائها حقها ومن ثم تعطيلها عن العمل إنما سببه يرجع إلى كفرهم بآيات الله وجحودهم بها.. وإذا عرفنا أن أهل البيت هم آيات الله الكبرى والكفر

(١) نوح/٥-٧.



بهم يؤدي إلى تعطيل هذه الأجهزة بحيث لم يعد في إمكان القلب أن يفقه أو يتذكر ولا في مقدور العين أن ترى الحقيقة وتبصرها وتعيها، وكذلك ليس في إمكان السمع أن يلتقط صوت الحق ويتفاعل معه، أدركنا الحكمة العظيمة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٢٦) (١).

فبين الله عز وجل في هذه الآية أنه إنما تعطلت أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم عن الانتفاع بالحق لأنهم كفروا بآيات الله وكانوا بها يجحدون.. وكفى بذلك سبباً ليس بعده سبب.

ومن هنا كان الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام في زيارة الإمام الحسين عليه السلام في زيارة النصف من شعبان، وهي من الزيارات المعتبرة التي وضعها الإمام الصادق عليه السلام وجعلها زيارة يزور بها الملائكة والأنبياء والأولياء جده الحسين عليه السلام حيث جاء فيها: «لبيك داعي الله إن كان لم يجبك بدني عند استغاثتك ولساني عند استتصارك فقد أجابك قلبي وسمعي وبصري» انظروا هنا إلى دقة الأداء البلاغي والتعبير الأدبي التربوي الجميل، فأنا يا سيدي يا حسين إذا لم أكن حاضراً يوم عاشوراء لأجيبك بيدني مضرجاً بين يديك بدماء الشهادة، فقد أجبتك الآن بجوارحي، بل أجابك قلبي وسمعي وبصري ﴿إِنْ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ أجل كل أولئك كان عنه

(١) الاحقاف/ ٢٦.



مسؤولاً وعنه هذه التي وردت في الآية تنطبق على كل قضية مقدسة والإمام الحسين عليه السلام في مقدمتها وعلى رأسها، فليكن إذاً ﴿عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ تشير إلى الحسين تأويلاً لا تفسيراً، وبالفعل فهي تنطبق عليه حتى مجازاً وحقيقة وفي هذا الصدد يقول أحد الكتاب الذين وفقهم الله لكتابة مقتل للحسين عليه السلام يقول: لئن لم أحضر عندك أبا عبد الله يوم عاشوراء فأطاعن بالسنان والرماح والسيوف لأن الدهور أبعدت بيني وبينك فأنا الآن اطاعن بالبنان والقلم واللسان دفاعاً عنك يا مولاي يا أبا الأحرار يا حسين فاقبلني بين يديك شهيداً يعرف الحق اعطر واضمخ جوارحي بمداد العلماء بعد أن فاتني أن أكون مضمخاً بدماء الشهداء، وهذا فكر جيد يكشف عن همة عالية ونفس عرفت قدرها فسارت إلى ربها من طريق الحسين وكربلاء.



حقيقة أخرى

وحقيقة أخرى تدل على أننا مأمورون بالذهاب إلى بيت فاطمة لأخذ العلم والنور والمعرفة أن عدم الذهاب إليها يفضي بنا إلى ظلمات في البر والبحر، وإلى سراب بقية يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاء لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه، وهذا نص في القرآن الكريم في آية النور التي وردت في سورة النور حيث جعلنا القرآن أما خيارين لا ثالث لهما: فأما بيت فاطمة والنور الذي فيه -مثل نوره كمشكاة فيها مصباح- ونحن نعلم أن المصباح والمصباح الثاني الحسن والحسين، والمشكاة فاطمة لأن الرسول وأهل بيته كلهم أشاروا إلى هذه الحقيقة التي ليس عليها غبار، وهي اليقين الذي لا شك فيه ولا ريب.. فهذا خيار وأما نقع في ظلمات البر والبحر وفي سراب يخدع الظمآن الذي أشرف على الهلاك من العطش فإذا جاء يلهث عطشاً يريد أن يرتوي ليسد حرارة العطش وجده سراباً بقية ليس فيه ماء ولا عشب ولا كلاً.. وهذا هو الواقع الذي أشار إليه الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام في كلمته التي قال فيها -مشيراً إلى بيت الزهراء عليها السلام- كل علم لا يخرج من هذا البيت فهو باطل، وهذا هو الحق وماذا بعد الحق إلا الضلال، فبيت فاطمة رمز للقرآن وللإسلام وللرسول ولكل العلوم والمعارف فلا يوجد علم ليس له ارتباط بهذا البيت الطاهر، الذي أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، ثم أمرنا بمودتهم وأخذ العلم منهم وعنهم لأن القرآن نزل في بيوتهم، ولأنهم عدل القرآن كما

في حديث الثقلين، بل هم القرآن الناطق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يشهد على ذلك ما ورد عنهم من علوم سارت بها الركبان ودوت بها المدارس والمجالس والمحافل فهم مصدر العلم الإلهي والذكر والناس يحتاجونهم وهم لا يحتاجون إلى أحد وكفى بذلك فخراً وفضلاً ومنزلة لا تصل إليها منزلة ودرجة ما بعدها ولا فوقها درجة، ويكفي القاء نظرة واحدة على مدرسة أهل البيت في الفقه واللغة والتفسير والآداب لتكشف أمامنا آفاق من المعرفة والنور والعلم الرياني الذي خصهم به وجعلهم أهله وأصله.

قل لمن حجنا بقول سوانا حيث فيه ثم يأتنا بدليل
نحن قوم إذا روينا حديثاً بعد آيات محكم التنزيل
عن أبينا عن جدنا ذي المعالي سيد المرسلين عن جبرئيل

وكذا قال جبرئيل عن الله بلا شبهة ولا تأويل على أن هذا اللون من الطرح للفكر والمعرفة سيأتي في محله من هذه الموسوعة إن شاء الله تعالى.

ملاحظة جديرة بالاهتمام: الملاحظة هي تأكيد النبي ﷺ وتركيزه على أهمية وقدسية بيت فاطمة حيث يبين الرسول حرمة هذا البيت فلا يدخل حتى يستأذن ثم هو يشجع عدداً من أصحابه الميامين على الاستفادة من بيت فاطمة والانتفاع بعلمها ومعرفتها كما حدث ذلك لسلمان الفارسي -المحمدي- حيث كانت تلقي عليه الزهراء بعض العلوم والمعارف يدل على ذلك روايته للحديث الفاطمي كما في رواية الأدعية التي علمتها فاطمة إياه مثل دعاء النور وأدعية أخرى، وكما في قصة سلمان كذلك في قصة أبي ذر الغفاري حيث كان يروي عن



فاطمة أحاديث ومعارف جمة يحتاج ذكرها إلى مراجعة بطون أمهات الكتب، ونفس الشيء يقال في عمار بن ياسر الذي كان ينقل عن فاطمة وكانت هي تعلمه وتحديثه حديث ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة، بل أكثر من ذلك فقد روى عمار بن ياسر عن الزهراء فاطمة بنت محمد -صلوات الله عليها وعلى أبيها وبعليها وبنيتها والسر المستودع فيها- روى عنها عمار أنها قالت له: يا عمار إن شئت حدثتك بما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة وما لم يكن هذا مضمون الحديث وليس بالنص لذلك يحتاج إلى مراجعة لتأكيده وتدوينه، أما بالنسبة لجابر بن عبدالله الأنصاري ونقله الرواية عن فاطمة فحدث عنه ولا حرج، فهو صاحب حديث الكساء الذي نقله للعالم مباشرة من سيدة نساء العالمين فاطمة عليها السلام، وجابر هذا هو الذي نقل لنا حديث اللوح الأخضر في يد فاطمة والذي نحن بصدد ههنا، وفي مجال شرحه وتفسيره وتأويله حيث ننوي أن نعطيه قدراً كافياً أو مساحة أكبر من الوقت لتسليط الضوء عليه في هذا المجال، فقد روى جابر بن عبدالله الأنصاري دخوله على بيت فاطمة في أيام المصطفى يهنئها بولادة الحسين عليه السلام فوجد بين يديها لوحاً أخضراً تخطف الأبصار رؤيته وله بريق لكتابته يشبه بريق الشمس ولونه أخضر وكأنه الزمرد والياقوت الأخضر لا الأحمر يا سبحان الله ما أعظم هذا الحديث عندما يفتح آفاقاً واسعة من المعرفة والنور والعلم والهداية ولأهمية هذا اللوح الأخضر قام أبو جعفر الباقر عليه السلام يمشي مع جابر الأنصاري هذا إلى داره ليريه لوح أمه الزهراء الذي كان في يديها وسيأتي مفصلاً عن هذا اللوح بالذات إن شاء الله تعالى.

وما ينطبق على رواية جابر لحديث الكساء وحديث اللوح الأخضر



ينطبق على رواياته الكثيرة عن الزهراء في جوانب أخرى من الفقه والعلم، والأخلاق والمعرفة كروايته مثلاً أن الحسين عليه السلام كان قد غذته كف جده المصطفى وغذاه لسانه فنراه يخاطب الحسين على قبره في زيارة الأربعين وهي أول زيارة يقوم بها صحابي جليل في مثل وزن جابر بن عبد الله الأنصاري يقول مخاطباً للإمام الحسين عليه السلام: أشهد أنك ابن سيد المرسلين وابن سيد الوصيين، وسليل التقوى وخامس أصحاب الكساء وابن سيد النقباء وابن فاطمة سيدة النساء وكيف لا تكون هكذا وقد غذتك كف سيد المرسلين وربيت في حجر المتقين ورضعت من ثدي الإيمان وفطمت بالإسلام فطبت حياً وطبت ميتاً غير أن قلوب المؤمنين غير شاكة في حياتك- إلى أن يقول: فعليك سلام الله ورضوانه أشهد أنك قد مضيت على ما مضى عليه أخوك يحيى ابن زكريا إلى آخر النص الوارد في زيارة الأربعين ووقوف جابر على قبر الحسين عليه السلام على أن موضع الشاهد في هذا المجال هو قوله: وكيف لا تكون هكذا وقد غذتك كف سيد المرسلين وربيت في حجر المتقين.. الخ. وفي هذا ينقل ليس رواية واحدة فقط بل وأيضاً روايات متعددة في هذا الخصوص بالذات، كل ذلك يدل دلالة واضحة على أن بعض أصحاب النبي من أمثال هؤلاء الأبطال كانوا يتلقون العلوم من فاطمة الزهراء مباشرة وهذا مستوى له أسرار وأسرار لا يناله إلا ذو حظ عظيم وصبر جميل ومعرفة بخواتيم الأمور، وإذا كان هؤلاء يعدون من طلاب العلوم الذين وقفوا على باب دار فاطمة في خشوع ودموع وتقديس فهل نستطيع نحن أن نقف على باب دار فاطمة عليها السلام نستأذن بالدخول إلى رحابها نسمعها وهي تلقي بهذه الدروس العظيمة التي تذكرنا بإلقائها ذلكم الخطاب العظيم على عشرات الألوف من

الناس بعد وفاة أبيها ونفس الصنيع صنعتها مع نساء المهاجرين
والأنصار حيث ألقت عليهن خطاباً لا يقل حرارة ولا روعة عن خطابها
الكبير الذي ألقتة في مسجد أبيها المصطفى، وهذا يدل على أنها
منذرة ومعلمة بل هي نذيرة وابنة نذير للناس بين يدي عذاب شديد..
أقول هنا: وإن وقفنا على باب دارها طالبين العلم والنور والخشوع يلف
قلوبنا ويجلل أسماعنا، فلعلنا نذكر الذين وقفوا على هذا الباب
واضرموا فيها النار، واشعلوا الحطب يريدون بذلك احراق فاطمة
وابنائها، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره
ولو كره الكافرون.

قال سليم قلت يا سلمان هل دخلوا ولم يلقوا استئذان فقال أي وغزة
الجبار ليس على الزهراء من خمار لكنها لا ذت وراء الباب رعاية للستر
والحجاب فمذ رأوها عصروها عصرة كادت بنفسي أن تموت حسرة،
تصيح أيا فضة اسنديني فقد وربي اسقطوا جنيني واسقطت بنت
الهدى واحزنا جنينها ذاك المسمى محسنا.

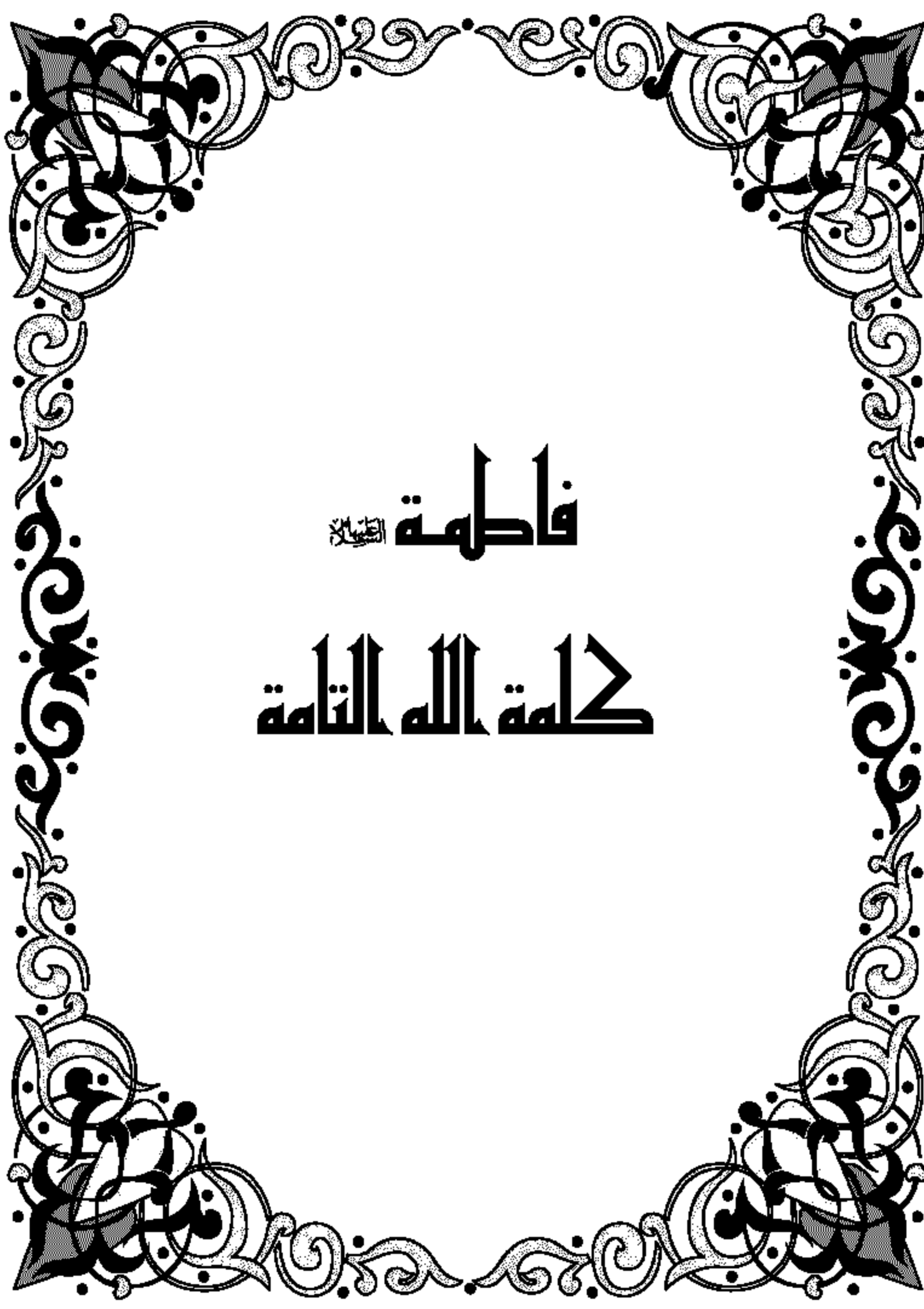
ويقول شاعر آخر:

يا باب فاطم لا طرقت بخيفة	ويد الهدى سدت عليك حجابا
نفسى فداك أما علمت بفاطم	وقفت وراءك تناشد الأصحابا
أما رقت لضلعتها لما انحنى	كسراً وعنه تزجر الخطابا
افهل درى المسمار يوم أصابها	في قلبها قلب النبي أصابا
عتبي على الأعتاب اسقط محسن	فيها وما أنهالت لذلك ترابا

قال رسول الله ﷺ ما معناه:

باب فاطمة بابي وحجابها حجابي.



A decorative border with intricate floral and geometric patterns, featuring repeating motifs of stylized leaves and scrolls, framing the central text.

فاطمة

حلقة الله القاسية

فاطمة عليها السلام كلمة الله التامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١١٥) ﴿١﴾

الكلمات لها معاني - معان - وللمعاني موازين ومقادير ترتفع وتنخفض، وتزداد وتغيب، وتتناقص وتتكامل وفقاً لمقدار الإيمان والعلم والمعرفة لدى الإنسان واضرب لكم مثلاً في أربع كلمات هي: العطش، والجوع، والدعاء، والبحر.. ثم انظروا إلى كل كلمة من هذه الأربع كيف تتم وتتكامل وتضيء لدى البعض، بفعل الإيمان والمعرفة، في حين تنقص وتذوي وتنطفأ لدى البعض الآخر، بفعل الجهل وانعدام الإيمان.. فكلما العطش تظهر في مستويات مختلفة ومتعددة من المعاني صعوداً ونزولاً، وتكاملاً وتساقلاً حسب التدرج في سلم المعرفة ومعارج الإيمان، فنحن نعطش في الليل والنهار ولكننا نشرب الماء لأنه في متناول أيدينا، فنكون عرفنا شيئاً يسيراً من المعنى الخاص بكلمة العطش.. ونصوم في شهر رمضان المبارك ونشعر بالعطش فنكون أخذنا قسطاً أكبر من المعرفة بكلمة العطش لأننا عند غروب الشمس وهبوط الظلام نتناول الإفطار ونشرب الماء فنشعر بلذة الارتواء بعد عطش لذيذ لأنه في طاعة الله عز وجل، والذي ينهل الصحراء يعطش هو الآخر إلا أن عطشه يفوق عطش الصائم الذي يجد الماء بارداً في انتظاره عند

(١) الأنعام/ ١١٥.



الإفطار، فهذا صاحب الصحراء قد لا يجد الماء خلال يوم أو أكثر أحياناً فإذا وجده شرب منه بعد أن يكون قد حظي بمعرفة أكبر بكلمة العطش لأنه كابد منه حتى أحر كبده وقلبه، فهذا الناهل للصحراء أكثر معرفة بمعنى العطش من غيره من الذين سبقوه، وترتفع معرفتنا بمعاني كلمة العطش أكثر حين نلتقي بطالوت وجنوده وهم يضربون في الأرض ويشقون قلب الصحراء على غير ماء ولا كلاً، وقد ضربهم العطش فتركهم يترنحون صرعى تحت سياط الظمأ القاتلة، وهنا نجد طالوت الذي كان يقود هذا الجيش الذي يطوي الصحراء لمواجهة جالوت وجنوده الظلمة وأعوان الظلمة.. أقول نجد طالوت يفاجأ جنوده الذين قد صرعه العطش بنبأ نزل عليهم نزول القدر مفاده^(١): إن الله مبتليكم بنهر في قلب الصحراء يجري في رقة وعذوبة وحلاوة وهو اختبار لكم وامتحان لطاعتكم وإيمانكم، فمن شرب من النهر فليس من طالوت في شيء، ومن لم يطعمه فإنه من طالوت ثم استثنى فقال: إلا من اغترف غرفة بيده، فالفرفة هذه من الماء تكفي لكسر العطش وتخفيف الظمأ عن الجندي المطيع الذي لا يخالف قول الحق، ولا يمشي إلا في طريقه الواضح، ولكي تبدو الأمور واضحة جلية فإنه لا بد من إلقاء مزيد من الضوء على هذه القصة التي رواها القرآن الكريم لتكون عوناً لنا على فهم معاني الكلمات في القرآن وفي الحديث فقد قال الإمام أبو عبدالله الصادق -عليه الصلاة والسلام: «أنتم أفقه الناس إذا عرفتم معاني كلامنا»^(٢) ومن هنا نجد أن الله عز وجل قد

(١) البقرة/ ٢٤٩.

(٢) معاني الأخبار ص ١ .



زودنا بنوعين من أجهزة النظر، بصر وبصيرة لرؤية الأشياء والحقائق، فالبصر يرى الأشياء بنور الطبيعة، والبصيرة ترى الحقائق بنور الإيمان واليقين، أو كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «ما رآته العيون بمشاهدة العيان، ولكن رآته القلوب بحقائق الإيمان»^(١) هذا بالنسبة لرؤية الحق سبحانه وتعالى، فنجد هنا أن النور هو الأساس في صحة وسلامة الرؤية في البصر، والبصيرة لأن الذي يقبع في الظلمات لا يرى شيئاً ولا يستطيع أن يدرك ويستوعب معاني الكلمات والحقائق والأشياء، ولذلك نجد الحق سبحانه حين أراد أن يوحي موسى عليه السلام ويأمره بإخراج قومه من الجهل إلى المعرفة أمره أولاً أن يخرجهم من الظلمات إلى النور ثم يذكرهم بأيام الله ﴿.. أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله﴾ وذلك أن الذي يعيش في الظلمات لا تنفعه الذكرى حتى ولو جاءته من أعظم الناس، لأن الذكرى إنما تنفع المؤمنين، أما غير المؤمن فليس لديه قدرة على الانتفاع من الذكرى، ولذلك نرى كثيراً من الناس لا يستعذبون ذكر أهل البيت ولا يستريحون لطاعتهم ومودتهم رغم أن الله عز وجل أمر الناس بحب آل محمد ومودتهم وطاعتهم والامتنال لأمرهم بصريح العبارة في القرآن الكريم وفي محكم الآيات قال تعالى:

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(٢) وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(٣) وقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ

(١) الكافي: ج ١: ١ ص ٩٨.

(٢) الشورى/ ٢٣.

(٣) النساء/ ٥٩.



لِيَذْهَبَ عَنْكُمْ الرَّجْسُ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴿٣٣﴾ ﴿١﴾ وقال: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿٦١﴾ ﴿٢﴾ في قصة المباهلة المعروفة والتي خضع فيها بعض النصاري وخشعت قلوبهم لذكر الله وفاضت أعينهم بالدموع لما رأوا آيات الله الكبرى تتحرك أمامهم في مثل هذا الموكب الملكوتي العظيم، حتى قال كبيرهم: إني لأرى وجوهاً لو أقسمت على الله أن يزل هذا الجبل من مكانه لأزاله - ولعله أشار إلى جبل أحد المحيط بالمدينة المنورة - ثم قالوا: اقلنا اقلنا يا أبا القاسم، في يوم مشهود، ومعروف وظاهر فضله عند العامة والخاصة، وسيأتي في موضعه من هذا الكتاب انشاء الله تعالى، وإنما أردت فقط أن أشير إلى أن الذين تأثروا بهذه الحقيقة هم قلة قليلة بخلاف الكثرة الكثيرة التي حنت ورضت بدفع الجزية على أن تظل على عقيدتها في الصليب وإن المسيح ابن الله - تعالى الله عما يشركون - على أن القرآن قد أشار إلى هذه الفئة التي فاضت عيونها بالدموع حين وقعت ابصارها على الرسول الأعظم ﷺ وهو خارج ومقبل عليهم حاملاً الحسين محتضناً له على صدره، ويده اليمنى الحسن المجتبي يمشي مع جده المصطفى، وخلفه كانت الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام تمشي وكان أمير المؤمنين عليه السلام يمشي خلفها والرسول يدعو وهم يؤمنون على دعاءه - أي يقولون: آمين بعد

(١) الأحزاب/٣٣.

(٢) آل عمران/٦١.



الانتهاء من الدعاء يقول الحق: ﴿تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾^(١) هؤلاء كانوا من النصارى وقد ذكرهم القرآن الكريم وأعطاهم صفة المودة للذين آمنوا: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قِسِيْنَ وَرَهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾^(٢) أي لا يستكبرون عن الحق - ومع الأسف أن بعض الناس يقرأ هذه الآية مستدلاً بها على أن النصارى في العالم اليوم هم أقرب إلى المؤمنين مودة من اليهود الذين هم أشد الناس عداوة للإسلام والمسلمين، أقول: مما يؤسف له أن هذا البعض الذي يقرأ الآية لا يمشي معها إلى النهاية حيث تظهر هذه الآية أنها تتحدث عن ثلة من النصارى الذين اسلموا وأعلنوا ولايتهم ومودتهم لمحمد وأهل بيته.

(١) المائدة/٨٣

(٢) المائدة/٨٢.

عودة إلى أصل البحث

المهم دعوني أرجع بكم إلى أصل البحث حيث كنا نتكلم عن فاطمة الزهراء عليها السلام، وإنها كلمة الله التامة ثم ضربنا لكم بعض الأمثال بالكلمات الأربع: العطش والجوع، والدعاء والبحر، ولا زلنا في كلمة العطش ولكي تبدو الصورة أكثر وضوحاً فإنه لا بد لنا من ذكر شطر ولو يسير من قصة طالوت والجنود الذين ضربهم العطش في قلب الصحراء، مؤكدين في ذلك أن لمعاني الكلمات مستويات ودرجات وحالات مختلفة متفاوتة في قوتها وضعفها، وفي تألقها وانطفائها وفي نقصها وكما لها حسب مستوى درجة العلم والمعرفة والإيمان بكل كلمة من هذه الكلمات على أن هذا مجرد رمز يشير إلى حقيقة كبرى سنراها في موضوع: فاطمة كلمة الله التامة، وسيأتي هذا بعد نقل الصورة لطلالوت وجنوده وتعالوا معي أيها الأحبة لنأخذها من مصدرها الصادق الصافي الذي هو القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أبداً.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾ (١) ثم يقول: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ

(١) البقرة / ٢٤٩.



عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ (١).
﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (٢) .. الخ.

إذن: فمن خلال هذه القصة نجد أن الذين عرفوا معنى أكثر لكلمة العطش بصبرهم على الظمأ وباكتفاءهم غرفة واحدة من الماء بخلاف بقية الجنود وهم الأكثرية الساحقة حيث القوا بأنفسهم في النهر، أي أنهم لا يكتفوا بالشرب فقط وإنما أغراهم الماء الحلو العذب الذي يترقق فيلمع الحصى من ثناياها كما وقعت أبصارهم عليه، فالتقوا بأنفسهم في وسط النهر وراحوا يشربون ويسبحون ولم يصفوا إلى نداء طالوت الملك القائد الذي كانت طاعته واجبة عليهم ومفروضة لأن الانتصار كان معقوداً بطاعته طالوت في حين كانت الهزيمة معلقة في مخالفته وعدم الانصياع لأوامره.

من كل هذه القصة - وإن كان فيها أبحاث وموضوعات نكتشف من خلالها مواصفات الإمام وخصال الوالي وأخلاق الحاكم على الرعية إلا أننا نكتفي بموضع الشاهد فقط في القصة. وهو أن الفئة التي امتعت من الشرب واكتفت بغرفة واحدة من الماء هي وحدها التي استطاعت أن تسجل انتصاراً لجيش الحق على جيش الباطل، وهي وحدها التي أوقعت أمر وواقع هزيمة في صفوف الأعداء، وهذا لعمري أعظم دليل على أن أهل المعرفة يحرزون تقدماً في نصرة الحق، على الباطل، والدفاع عن حرمة الإيمان بأسرع مما يظن الطرف الآخر المهزوم الذي

(١) البقرة/ ٢٥٠.

(٢) البقرة ٢٥١.



ذهب والهزيمة تغطيه من رأسه إلى قدميه، وراح جيشه يلحق جراحه في صمت وخزي وهوان، في الوقت الذي راح فيه المؤمنون أصحاب القضية المقدسة يواصلون تقدمهم في احراز النصر تلو النصر، واحقاق الحق واطفاء الباطل، وكل ذلك إنما حدث بفعل صبرهم على العطش الذي منحهم مزيداً من نور المعرفة لكلمة العطش، فعرفوا المعنى الكبير لهذه الكلمة فانتصروا في حين جهل الأقوام معنى كلمة العطش فلم يعرفوا حقها وذلك بسبب عدم صبرهم على تحمل الظماً فانكسروا وهزموا وجللهم غبار العار والذلة إلى يوم القيامة.

ومن هذه القصة وتداعي الأفكار تطلع علينا صورة عظيمة لبطل عظيم اقتحم نهر الفرات في كربلاء وكان قلبه كالحديدة الممحاة من شدة الظماً وقساوة العطش ومد يده واغتترف غرفة من الماء ولكنه لم يشرب منه لأنه تذكر عطش أخيه سيد شباب أهل الجنة وريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليهم أجمعين، وذلك البطل هو أبو الفضل العباس بن علي بن أبي طالب عليه السلام حيث وصل إلى المشرعة وهو الساقى عطاشى كربلاء لأنه ذهب إلى مشرعة نهر الفرات وكان عليها جبال من الرجال يقدرون بأكثر من أربعة آلاف فارس مدججين بالسلاح والنبال والسيوف والرماح فما كان من أبي الفضل إلا أن ازاحهم عن مواقعهم وكشفهم عن المشرعة ونزل إلى الماء فاغتترف غرفة ولكنه رماها من يده ولم يذق من الماء طعمه ولم يشرب وقال:

يا نفس من بعد الحسين هوني	وبعدده لا كنت أوتكوني
هذا الحسين وارد المنون،	وتشربين بارد المعين
هيهات ما هذا فعال ديني	ولا فعال صادق اليقين



وإذا كان أصحاب طالوت وهم فئة قليلة عددهم بعدد أصحاب بدر
وبعد أصحاب الإمام صاحب الزمان أي ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً
فقط، أوقعوا تلكم الهزيمة بجنود الأعداء مع أنهم شربوا من الماء فما
بالكم بهذا البطل العظيم الذي امتنع عن الماء رغم عطشه الشديد
الذي طال ثلاثة أيام لم يذق خلالها قطرة من الماء؟ أقول: فماذا نقول
ببطل مجاهد عظيم مثل قمر العشيرة أبي الفضل العباس بن علي
عليهما السلام، وأي هزيمة أكبر وأعظم من تلك الهزيمة التي أنزلها
العباس عليه السلام بأعداء الله وأعداء الإنسانية من جنود بني أمية الشجرة
الملعونة في القرآن؟

هذا وإذا جئنا إلى الإمام الحسين عليه السلام فإننا سنرى العجب العجيب
حيث الحسين عليه السلام حين استولى على الشريعة وسيطر عليها لم يشرب
من الماء أبداً بل أنه أكثر من ذلك رأى جواده يقحم الماء ويمد رأسه إلى
الماء ليشرب، خاطبه بقوله: أنت عطشان وأنا عطشان والله لا أشرب
حتى تشرب، فرفع الفرس رأسه كأنه فهم الكلام ولم يشرب ولما هم
الحسين عليه السلام بالماء ناداه رجل من جنود العدو: يا حسين تلتذ وتهناً
بالماء وقد هتكت خيمتك وحرمتك، فرمى الماء من يده وقصد الخيمة
فوجدها سالمة، ولم يشرب من الماء، أقول: إن هذا يدل على أن المعاني
كلمة العطش مراتب ودرجات ومستويات تختلف باختلاف الناس
أصحاب المواقف، وكلما كان إيمان الإنسان أعظم ومعرفته أعمق كلما
صارت المعاني لهذه الكلمة أكثر كمالاً، وأتم جمالاً كما وردت تلكم
الحقائق في دعاء السحر فأقرؤوه تجدوا كل قضية ولك حقيقة وكل
شعيرة من شعائر الدين، لها مستويات في الكمال والتمام ودائماً



المطلوب أن تبلغ المعاني مداها، وتصل المضامين منتهاها في كل شرع في الأسماء الحسنی، في أسماء أهل البيت في كلمات الله عز وجل في الصفات في الخصال، في كل الأشياء والحقائق لا بد أن تصل الأشياء إلى درجة الكمال والحقائق إلى درجة التمام ومنها الكلمات وذلك حتى يتبين لنا الموضوع الذي نحن بصدده وهو أن فاطمة الزهراء عليها السلام هي كلمة الله التامة، انقل لكم شيئاً من هذا الدعاء ولاحظوه جيداً وهو دعاء مروي عن الإمام علي بن موسى الرضا عليهما السلام، يرويه عن جده الإمام أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليهما السلام يقول فيه: وهو من أدعية السحر في ليالي شهر رمضان المبارك: (اللهم إني أسألك من بهائك بأبهاء وكل بهائك بهي اللهم إني أسألك ببهائك كله، اللهم إني أسألك من جمالك بأجمله وكل جمالك جميل، اللهم إني أسألك بجمالك كله -إلى أن يقول-: اللهم إني أسألك من كلماتك باتمها وكل كلماتك تامة، اللهم إني أسألك بكلماتك كلها.. اللهم إني أسألك من كمالك بأكمله، وكل كمالك كامل، اللهم إني أسألك بكمالك كله.. اللهم إني أسألك من اسمائك بأكبرها وكل اسمائك كبيرة اللهم إني أسألك بأسماءك كلها...).

وتأملوا هذه الكلمات - التي وردت في هذا الدعاء - بدقة حتى تعلموا أن لكل كلمة معنى كامل فإذا وصلت إليه الكلمة وبلغت منتهاها غدت كلمة تامة من جهتين: جهة العلم الذي تحمله الكلمة والذي يتمثل في معناها، وجهة التطبيق الفعلي الذي يظهر حقيقتها في ساحة العدل في العمل، كما في الصدق في العلم، ونحن نعرف اليوم أن سبب مشكلات العالم إنما هو في خلل يصيب الفكر أو خلل يصيب التطبيق

أو كليهما أي خلل في الفكر وخلل في العمل، وتلك -لعمري- حقيقة ثابتة فلا إصلاح يمكن أن يتم في العالم، ولا سعادة ولا أمن ولا استقرار إلا إذا حدثت هذه المعجزة في الفكرة والتطبيق وهذا لا يحدث أبداً إلا عند أهل البيت عليهم السلام، لأن الفكر يجب أن ينطلق من مصدر معصوم لا خطأ فيه ولا غلط، كما أن التطبيق يجب أن يتم ويجري على يد الأمناء من الأولياء الصالحين الذين يحملون الأمن والأمان لكل الناس والذين يسارعون في الخيرات في آناء الليل وأطراف النهار.. أما في غير هذه الحال فلا يمكن للبشرية أن تقوم لها قائمة لأن المشكلات التي تعصف بالعالم اليوم من اقتصادية وسياسية وثقافية، وحضارية، وتربوية، إنما مردها إلى شيء واحد ليس له آخر، وهو محنة الوقوع في فخ الشيطان الرجيم الذي أبعد الناس عن مدرسة الإسلام وبالذات مدرسة أهل البيت عليهم السلام، لأن عندهم وحدهم الفكر الصادق والتطبيق العادل، فالفكر من الله والتطبيق في أهل البيت عليهم السلام، ولعل حديث الثقلين يكفي دليلاً من أروع ما يكون على صدق هذه القضية، ففي حديث الثقلين جاء التوصية والأمر بالتمسك بالكتاب والعترة: (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي، وقد نبئني اللطيف الخبير أنهما -أي الكتاب والعترة- لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض) وهذا هو حديث رسول الله ﷺ وقد اتفقت كلمة الأمة قاطبة على صحة هذا الحديث الشريف كما أخرجه حفاظ المسلمين في كتب الصحاح، وما علينا بحديث انفرد بروايته مالك بن أنس في كتاب الموطأ في الفقه وهو إمام المالكية يقول فيه: كتاب الله وسنتي. فقد أرسله إرسالاً بغير سند ولم تخرجه كتب الصحاح التي أكدت الحديث: (كتاب الله وعترتي) على أن العجيب

الذي يثير الأسى ويجلب الهم والغم هو اعتماد خطباء المساجد في أكثر بقاع الأرض على حديث مالك بن أنس الذي رواه خالياً من العترة وعارياً من السند وما عشت أراك الدهر عجباً وأن تعجب فعجب أخذهم بهذا الحديث الذي لا يسمن ولا يغني من جوع والذي أقل ما يقال فيه أنه حديث يحمل بذور فناءه واسقاطه بداخله، وإلا فأي سنة هذي التي جاءت في حديث الثقلين على زعمهم؟

ألم يقدموا على إحراق السنة على مرأى من الصحابة ومسمع ومنتدى ومجمع؟

ألم يأمر أبو بكر وعمر باحضار أحاديث النبي ﷺ وكان الناس ظنوا أن هؤلاء إنما يريدون من وراء احضار الأحاديث وانتزاعها من الأصحاب، جعلها ووضعها في كتاب يرجعون إليه عند الحاجة، غير أن الناس فوجئوا بعد احضار القراطيس والكتب التي فيها أحاديث السنة النبوية -بأن أبا بكر وعمر أمرا بإحراق ذلكم الكم الكبير والحشد الهائل من الأحاديث بحجة الحفاظ على كتاب الله وبدعوى أن بقاء هذه الأحاديث يسبب خلطاً وتشويشاً لآيات الله، فاقدمووا على إحراق السنة وهذه حقيقة لا ينكرها أحد أبداً ومن أراد المزيد من الاطلاع فما عليه إلا أن يرجع إلى مصادر السنة في كتب الصحاح وغيرها، ليتأكد له أنها حقيقة مفزعة، أن يكون الحديث ممنوعاً تدوينه بعد وفاة النبي ﷺ بل أكثر من ذلك نجد عمر نفسه قد أحدث جلبه في غرفة النبي ﷺ في ما يعرف برزية الخمس حيث طلب النبي ﷺ دواة وقلماً وقرطاساً، ليكتب للناس كتاباً لن يضلوا من بعده أبداً، والكتاب هو التأكيد على لزوم طاعة أهل بيته من بعده والوفاء ببيعة الإمام علي أمير المؤمنين



ﷺ التي جرت وقائعها في يوم الغدير في حجة الوداع هذا هو كل ما أراد النبي -صلوات الله وسلامه عليه أن يثبته ويؤكدته إلا أن عمر رفع صوته في حضرة النبي وقال: إن النبي ليهجر، حسبنا كتاب الله!! فخرجهم النبي من عنده وطردهم وقال: اخرجوا فإنه لا ينبغي لكم التخاصم عندي، وهذه القضية مشهورة ومعروفة وهي التي ابكت ابن عباس حبر الأمة وجعلته يشق بالدموع كلما ذكر رزية الخمس التي أصبحت تعرف بهذا الاسم فيما بعد.. وإني لأعجب كيف يجراً هؤلاء من رفع أصواتهم عند رسول الله وبهذا اللون من الأصوات والرسول كان مريضاً والمريض يحتاج إلى كلمة طيبة يسمعها من العائدين الزائرين له، هذا فضلاً عن أن القرآن الكريم يحرم رفع الصوت في حضرة النبي ﷺ ويجعله علامة تدل على انطفاء التقوى في القلوب في مقابل الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى.. واقرأوا هذه الآية معي أيها الأحبة في سورة الحجرات والتي يقول الحق فيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ فَلِلَّتَقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ (١)

فإذا كان مجرد رفع الصوت بأي نوع من الكلام عند رسول الله يؤدي إلى احراق الأعمال واحباط الحسنات دون أن يشعر بها الإنسان، فما بالكم بمن يرفع صوته بكلام يثير غضب النبي لأن فيه تهمة لرسول الله

(١) الحجرات/ ٢-٣.



وفيه اتهام لعقل النبي ﷺ لأنه قال ﴿إن النبي ليهجر﴾ هكذا وردت العبارة في كل كتب الصحاح باستثناء البخاري الذي أراد أن يخفف عن كاهل عمر فغير الكلم عن مواضعه وتصرف من عنده بالنص فأورد البخاري عبارة: إن النبي غلب عليه الوجد بدل: النص الأصلي المذكور في كتب الحديث واستفاضت به الأخبار: أن النبي ليهجر!.

إذن: فالمسألة ليس فقط بدأت من بعد وفاة النبي ورحيله، وإنما هي انطلقت والنبي على قيد الحياة في أيامه الأخيرة التي أمضاها وهو يتلقى الأذى تلو الأذى من قومه حتى في ساعاته الأخيرة، على أن الأخبار لتؤكد أن الحديث -حديث الثقلين- إنما هو: إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي.. الخ. فالكتاب يتكفل بجانب الصدق في كلمة الله العليا، في حين أن العترة تتكفل بجانب العدل في الكلمة التامة.

ولتوضيح الفكرة دعني أواصل معك أيها الحبيب بقية الكلمات التي ضريناها مثلاً في هذا البحث، فبعد كلمة العطش تجيء كلمة الجوع بنفس الطريقة التي قدمنا بها اختها كلمة العطش، فنحن نجوع في النهار وفي الليل ولكننا نأكل ونجوع في أيام الصيام فنكتشف معنى أعمق لهذه الكلمة من المعنى السابق.. ويجوع الإنسان في الصحراء ويجوع شعب كامل.. وتجوع أسرة ثلاثة أيام متوالية تطعم خلالها الطعام الذي عندها وهي صائمة مسكيناً ويتيماً وأسيراً، وهم ثلاثة أصناف من الناس -يشكلون الطبقة الضعيفة في المجتمع، فهذا مسكين قد أوقعه الجوع والفقر حتى استكان فلم يستطع التنقل والترحال والحركة جاء وقف على بيت علي وفاطمة وهو جائع ينتظر من يعود عليه برغيف خبز أو أي شيء من الطعام، فقام أهل البيت وقدموا كل

طعامهم لهذا المسكين بما فيهم جارية لهم يقال لها فضة وهي فتاة في العشرين من عمرها على أن وجود فضة معهم يدل على أن في الإمكان للناس أن يقوموا بهذا العمل وإن كانت درجة العلم والإيمان عند فاطمة وعلي وابنائها لا يبلغ مستواها أحد من سائر الناس ولكن تظل قضية الأسوة والقُدوة الحسنة تؤكد هذا المعنى بالذات فوجود فتاة في العشرين من العمر تصنع كما صنع أهل البيت وتقوم بنفس الصنيع أي تظل صامدة صائمة تعاني من الجوع ثلاثة أيام، وهو خير دليل على أن في القصة هذه درساً عظيماً وعبرة مفيدة لكل المسلمين بل لكل الناس في مشارق الأرض ومغاربها.. وفي اليوم الثاني يجيئهم يتيم قد فقد أبويه الذين يعطفان عليه فوقف على باب فاطمة يرفع صوته والدمعة تدفع نفسها للخروج من عينيه، وأخذ يصيح بصوته الذي تخنقه البحة والألم: يا أهل بيت النبوة وموضع الرسالة أنا يتيم ليس لي أب ولا أم أريد طعاماً أسد به فورة جوعي واطفأ به حرارة قلبي، فما كاد أهل البيت يسمعون صوته وكان في لحظة تناول الإفطار، حتى قاموا كلهم أجمعون وقدموا كل ما عندهم من الطعام وهو عبارة عن خمسة أرغفة من خبز الشعير، كانت فاطمة الزهراء عليها السلام تطحنه وتمعجنه وتخبزه بيديها روي فداء لتراب رجليها.. وفي اليوم الثالث وهو آخر يوم كان على الباب أسير وهذه المرة السائل من الكفار لأنه أسير والأسير كافر لأنه حين يعلن إسلامه يتحرر من الأسر، فيقف على باب فاطمة عليها السلام ويرفع صوته بهذا النداء: يا أيها المسلمون تأسروننا ولا تطعموننا، لقد ذابت مهجتي من الجوع فهل من سبيل إلى رغيغ من الخبز؟ فقام أمير المؤمنين عليه السلام وكذلك صنعت الزهراء عليها السلام، ونفس الشيء قام الحسن والحسين عليهما السلام وتبعتهما الفتاة فضة وقدموا كل طعامهم

للأسير، وأصبحوا في اليوم التالي وهم يرتجفون مثل الفراخ فلما رآهم النبي ﷺ ووقع بصره عليهم فاضت عيناه بالدموع وقال: لشد ما أرى فيك من ضعف - هذا مضمون ما قاله النبي وممكن أن ننقل النص بالكامل - فنزلت سورة الدهر أو سورة الإنسان وجاء فيها: هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) - إلى أن يقول: وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لُوحَةَ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) (١).

إذاً: فكلمة الجوع ضربت هنا الرقم القياسي في استيعاب معنى الجوع في هذه الكلمة، ولا يخفى عليكم أيها الأحبة أن معرفة معاني الكلمات هي التي تجعلنا نفقه المعنى الكامل التام الشامل لكلمة الله التامة التي لا يتم معناها إلا بالصدق في العلم والعدل في الفعل وقد قالت الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها الصلاة وأزكى السلام في خطابها العظيم:

أيها الناس اعلموا أني فاطمة وأبي محمد ﷺ أقول حقاً عوداً وبدواً، ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً، لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم، فانت تعزوه وتعرفوه تجدوه أبي دون نساءكم وأخ ابن عمي دون رجالكم، على أننا نجد في هذا النص أن الزهراء عليها السلام أكدت أنها هي الكلمة التامة لأنها تقول حقاً عوداً وبدواً، وهذا هو الصدق الذي تحمله

(١) الإنسان/ ١ - ١١.



الكلمة في معناها، ثم قالت: ولا أفعل ما أفعل شططاً، وتأملوا هذه العبارة جيداً إنها تؤكد عصمتها لأنها لا تفعل شيئاً يدل على الشطط والانحراف عن الحق، فهذا أيضاً دليل آخر على أن الكلمة التامة إنما هي الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام لأنها معصومة فلا تتقل غير الحق ولا تعمل غير العدل، ولأن هذه المسألة تحتاج معرفتها إلى شيء من التقوى والخشية من الله عز وجل وهذه صفة العلماء الريانيين: فإنه إنما يخشى الله من عباده العلماء، هذا جانب ذكرته الزهراء قبل أن تقول: اعلموا أني فاطمة كما ذكرت مع خشية العلماء وخشوعهم وخوفهم من الله، ذكرت التقوى وقدمت لندائها هذا نداءاً بالتقوى حيث قالت: فاتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، بمعنى أنها تقول: إذا أردتم معرفة من هي فاطمة الزهراء عليها السلام فعليكم بالتقوى والخشوع، كما في القرآن الكريم حيث ورد هذا المعنى في أكثر من موضع: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ﴾.

ويقول: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

ويقول في أكثر من آية: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا... الخ﴾.

وهذا إن دل على شيء فإنه إنما يدل على أن التقوى إنما هي منظار للنفس وللبصيرة: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾^(١).

كان هذا في باب الجوع ومقدار معرفة معاني كلمة الجوع، أما الدعاء فانظروا إلى آية واحدة هي قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ

(١) الحشر/١٨.



إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾. (١) هذه آية نقرأها في آناء الليل واطراف النهار بنسب متفاوتة من المعرفة لمعنى هذه الآية أو قل: بنسب مختلفة من العلم بكلمة الدعاء بحيث نجد بعضنا يقرأها في تأمل، وآخر يقرأها في خشوع وثالث يقرأ في دموع وبكاء، وممكن نجد من صفا قلبه وتوجه لبه إلى الحق فيقرأها وله شهيق من الحزن والبكاء، غير أنه يظل واحد من القراء الذين قرأوا هذه الآية لا يصل إلى مستواه أحد من الخلق إلا المعصومين عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام، ألا وهو نبي الله يونس بن متى ﷺ الذي قرأ هذه الآية في ظلمات ثلاث: ظلمة الله، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت: سبحانك لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، ولشدة العمق الفكري لدى يونس الذي صاحب هذه القراءة المليئة بالمعرفة قال الله عز وجل: ﴿قُلْ لَّا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلْبَثُ فِي بَطْنِهِ - أَي بطن الحوت - إِلَى يَوْمِ يُعْثُونَ﴾ وهذا يعني أن هذه القراءة للآية المباركة نقلته من الخلود في هذا السجن المتحرك المظلم التي يوم يبعثون إلى الخروج في الهواء الطلق وممارسة حياته من جديد، أي أن معرفته لمعنى كلمة الدعاء هذه جعلته طليقاً حراً بعد أن كان حبيساً قابلاً في الظلمات التي أحاطت به من كل جانب.. وهنا أقول: أنه باستثناء معرفة أهل البيت لكلمة الدعاء التي تفوق معرفة يونس، فإنه ليس في الأرض أحد بلغ في المعرفة لهذه الكلمة الدرجة التي بلغها يونس ﷺ، وأكرر مؤكداً: أن هذا لا ينطبق على أهل البيت إذ أن منزلتهم أعظم درجة من الأنبياء والرسل كافة، خصوصاً صاحب

(١) الأنبياء/٨٧.



العصر والزمان الإمام القائم المنتظر صلوات الله وسلامه عليه الذي إذا قرأ آية الدعاء بين الركن والمقام يوم خروجه فإنه سيحدث زلزالاً في الوجود لأنه هو المضطر الذي يجاب إذا دعى، وهو قارئ هذه الآية لا محالة بين الركن والمقام حيث تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار.. وحيث تشرق الأرض بنور ربها، ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء والصالحين.. إلى آخر المشهد الذي يتصور من يقرأه أنه يقصد القيامة فقط ولا يدري أن هذه المشاهد تحدث في الدنيا قبل يوم القيامة، لأنها تحدث في ظهور الإمام صلوات الله وسلامه عليه وتظهر في الرجعة وتظهر في يوم القيامة حيث تظهر الأشياء على حقيقتها والأمور على حقائقها ولا يخفى على الله شيء من ذلك أبداً.

وما يقال في كلمة العطش والجوع، والدعاء يقال مثله في كلمة البحر.. فهذا البحر يمكن أن تكتبه بيدك وتخطه بيمينك كلمة من ثلاثة أحرف فقط: بحر.. ولكن هل الإحساس الذي تحدثه كلمة البحر هذه في نفسك وقلبك هو نفس الإحساس الذي يحدثه البحر بذاته عندما تقف على ساحله أن تنزل في أعماقه أو تسبح على أمواجه أو تركب ظهره منطلقاً في رحلة من مطلع الشمس إلى مغربها؟ كلا بالطبع إنه إحساس يفوق التصور، ولا يشبه الإحساس الباهت البارد الذي تخلفه كلمة البحر.. بل إن البحر بحد ذاته يشكل معرفة حارة ساخنة في أعماقه وهذا إن دل على شيء فإنه إنما يدل على أن مستويات المعاني للكلمات تختلف في ارتفاعها وانخفاضها، وفي نقصها وكمالها، وفي تمامها وانطفائها.. ومن هنا كانت كلمات الله لا تنفد حتى لو



أَخَذْنَا الْبَحْرَ مَدَادًا لَهَا، وَالشَّجَرَ أَقْلَامًا لِكِتَابَتِهَا وَالْإِنْسَ وَالْجِنَّ كِتَابًا
كَرَامًا لَهَا، لَمَّا بَلَغُوا عَمْقَهَا وَلَمَّا أَحْصَوْا مَعَانِيهَا يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلْ
لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا
بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (١٠٩) ﴿١﴾

وفي آية ثانية يقول سبحانه:

﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا
نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٧) ﴿٢﴾.

(١) الكهف/١٠٩.

(٢) لقمان/٢٧.



مزيد من التوضيح

لكي نفهم الأمور أكثر في رحاب فاطمة عليها السلام فإنه ينبغي لنا أن ندرك الحقائق التالية التي تضيء الطريق لنا فتمضي على بصيرة من أمرنا وهي التالية:

في توجيه الخطاب إلى الآخر فإنه لا بد من توفر شرطين أساسيين في صحة الخطاب أو حتى يستقيم الخطاب في الحقيقة، وهما قدرة في العقل لفهم الخطاب، وقدرة في البدن لتطبيق مضمون الخطاب، فإذا سقطت القدرة في العقل أو في البدن سقطت الحاجة من توجيه الخطاب، وفي هذا الباب يقول الإمام الحسين بن علي عليهما السلام: (ما أخذ الله طاقة أحد، إلا وضع عنه طاعته، ولا أخذ قدرته إلا وضع عنه كلفته) أي أن الله عز وجل حين يأخذ طاقة العقل من الإنسان، يضع عنه أمر الطاعة، أخذ ما وهب، فسقط ما وجب، فلا طاعة مفروضة على من لا عقل له ولا فهم، ونفس الشيء يقال في القدرة والقوة في البدن، فما دام البدن قادراً على أداء الفرائض والعمل بما أوجب الله عليه فإن التكليف لا يرتفع ولا يسقط عنه، أما إذا سقطت القدرة أو القوة من البدن أو من إحدى جوارحه فإن المسؤولية في العمل تسقط وفقاً لذلك العضو، وتلك الجارحة، وخذ على سبيل المثال رجلاً يعاني من علة في بطنه فإنه يسقط عنه الصيام بسبب تلك العلة، أو أن شخصاً لا يملك المال مثلاً فلا زكاة عليه ولا حجة، وآخر لا يملك قوة في بدنه، فإنه يسقط عنه الجهاد والكفاح وهكذا قل في الأشياء



الباقية التي تكون فيها الطاعة مشروطة بوجود القوة في ذلك العضو.. على أن هذه الفكرة ماشية تماماً مع الأصل الذي نحن في صددده وهو موضوع الكلمة التامة التي لا تتم إلا باصابة الحق في الفكر وعدالة التطبيق في العمل إذ أننا رأينا في الحديث المتقدم أن الطاعة مقرونة بطاقة العقل، كما أن العمل مقرون بقدرة البدن عليه، فلا يمكن أن نأمر مشلولاً بالركض ولا مقعداً بالجري والعدو، كما أنه من المستحيل أن نطالب الأعمى بقراءة رسالة خطية إلا إذا كانت مكتوبة بحروف المكشوفين فذلك شيء آخر، وينفس السبب لا يطلب من الصم والبكم اللقاء خطاب مفيد وبلغ.

على أن كل ذلك إنما هو من باب ضرب الأمثال لتقريب المعاني إلى الأذهان، وخلاصة القول في هذه النقطة الثانية: ان كلمات الله لا تتم ولا تكتمل ولا تظهر حقائقها إلا في آيات الله الكبرى وهم محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وموسى بن جعفر وعلي بن موسى ومحمد بن علي وعلي بن محمد والحسن بن علي والخلف الحجة الهادي المهدي صاحب العصر والزمان صلوات الله عليهم أجمعين.. على أن فاطمة الزهراء عليها السلام تظل لها خصوصية لا يشاركها فيها أحد، بل أن لها خصائص تنفرد بها قبل المعصومين، ومنها أنها الصديقة الكبرى التي دارت القرون الأولى على معرفتها، ومنها أنها فاطمة فطمت الخلق عن معرفتها إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً واستطاع أن يعرفها حق المعرفة فإنه بذلك يدرك ليلة القدر لأن فاطمة هي ليلة القدر وهذا نبأ عظيم وسر مستودع في شخصيتها لا سبيل لكشفه ولا طريق إلى معرفته إلا عن



طريق فاطمة ذاتها، أي أنك لا يمكن أن تعرفها إلا بها، كما عرف أخوه يوسف، أخاهم يوسف بذاته قالوا: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ وكما جاء في الدعاء الذي يتناول هذا الجانب من المعرفة بالنسبة لله عز وجل: (بك عرفتتك وأنت دللتني عليك ودعوتني إليك ولولا أنت لم أدر ما أنت) على أن هذا النص يقرب المعاني إلى أذهانتنا إذ أنه ينتقل من الخالق إلى المخلوق، ومن الله تبارك وتعالى إلى الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء حيث شق لها اسماً من أسماء الحسنى فهو الفاطر، وهي فاطمة بل ان لفاطمة عليها السلام -عند الله عز وجل تسعة أسماء- كما يقول أبو عبد الله الصادق عليه السلام فاطمة والبتول والمباركة والطاهرة والصديقة والراضية والمرضية والزكية والزهراء، عليها، وسيأتي بحث هذا الحدث في موضعه من هذا الكتاب انشاء الله تعالى.

أجل فقد تمت كلمة الله في فاطمة الزهراء عليها السلام صدقاً وعدلاً وذلك من خلال الأسماء التي عرضها الله عز وجل على الملائكة بعد أن علمها آدم عليه السلام فكان أو اسم منها، اسم فاطمة يشهد بذلك ويدل عليه حديث الكساء الذي يذكر الله فيه اسم فاطمة قبل أسماء أبيها وبعليها وبنوها، قال -لما سأله جبرئيل: ومن يا رب تحت الكساء أو الخمسة الذين هم تحت الكساء؟ فقال الله عز وجل: «هم فاطمة وأبوها وبعليها وبنوها» وهذا لعمرى شاهد يضاف إلى آية الأسماء التي يقول فيها: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾^(١) يبين أن لفاطمة عليها السلام خصائص تتفرد بها دون بقية المعصومين سأحدث لكم عنها في سياق هذا الموضوع بإذن الله تعالى.

(١) البقرة/٣١.

A decorative border in a black and white line-art style, featuring intricate floral and scrollwork patterns that frame the central text.

تمام الكلمة عند

فاطمة عليها السلام

تمام الكلمة عند فاطمة الزهراء عليها السلام

للقرآن طريقة يقدم فيها الفكرة مجسدة بأشخاص بحيث تستطيع أن تشعر بحالة التطبيق لتلك الفكرة بالذات، وهذا هو الأصل فإن إتمام الكلمات عند الله عز وجل، إذ أن الكلمة لكي تصبح تامة فإنه لا بد لها من صدق الفكرة وعدالة التطبيق، لأن المشكلات إنما تنشأ بسبب خلل في الفكر أو خلل في التطبيق، وفي الإسلام.. الفكر من الوحي، والتطبيق من خلال العدالة الاجتماعية، ومن هنا تمت كلمة الله.. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١١٥) (١)

ومن هنا أيضاً يكون نشر العدل في ربوع الأرض بظهور الإمام صاحب العصر والزمان صلوات الله عليه، فيملاً الله الأرض به قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً، ونحن الآن على مقربة من هذا اليوم الموعود..

(ويروونه بعيداً ونراه قريباً..)

إذن: فكل فكرة في القرآن لا بد لها من أمة تجسدها سواء كانت تلكم الأمة شعباً كاملاً، أو أفراداً أو حتى أسرة واحدة، أو رجل واحد مثل إبراهيم الخليل، الذي كان أمة في إقامة الحق والعدل والقسط في الأرض.

(١) الأنعام/ ١١٥.



وهذا يجيء المثال من أصحاب الكهف فكرة وعملاً:

● فكرة:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾

● وعملاً:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾

ولنستمع للقرآن بقلوب واعية حيث يقول:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾

والذي يقرأ هذا النص ينتهي إلى الأمور التالية:

أولاً: بيّن الحق سبحانه أن كل شيء في الحياة وكل زينة على الأرض، إنما هو للامتحان، لا بل أكثر من ذلك، إنه يقول:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾.

تأملوا العبارة في الآية الكريمة جيداً، فهو تقدست أسماؤه، لم يقل (إنا جعلنا زينة على الأرض)، وإنما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

أي أن كل شيء في الأرض، إنما هو زينة وهذه الزينة تجتذب القلوب والنفوس وتثير العقول، والشهوات، وكل ذلك يتخلص في هذه الغاية: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.



أي أن البلاء والامتحان إنما تظهر حقيقته في العمل الأحسن وليس الحسن، لا.. إنما هو قال: ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

ثم حينما تنتهي هذه الغاية وتصل مهمة الإنسان إلى النهاية، تجيء الغاية الكبرى التي بعدها تقوم القيامة، وينتهي كل شيء في الحياة ليبدأ كل شيء في الحياة بعد الموت.

﴿وَأَنَا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾

والفكرة هي أن القرآن الكريم حينما يقدم فكرة فإنه يضع معها أفراداً أو أمماً، طبقت تلك الفكرة بهذا الشكل وهذا الترتيب.

فهؤلاء أصحاب الكهف وهم فتية آمنوا بربهم فزادهم نوراً وهدى ورحمة ومعرفة بالحق، فجعلهم الله مثلاً حياً لهذه الفكرة المتقدمة..:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾.

ومن هذا المنطلق يقوم القرآن الكريم بتحليل الأمور وتصوير العقول، بل إنه يقدم نموذجاً رائعاً في هذا المجال، مجال الإمامة، فيذكر في قصة إبراهيم عليه السلام:

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَشَابَهُ لِّلنَّاسِ وَآمَنَّا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ إِلَىٰ أَن يَقُولَ: وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾

وفي آية أخرى: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (١٢٦) ﴿١﴾

والآن لاحظوا أين جاءت الإمامة؟

إنها جاءت في مكان الأمن والطعام، فأينما تحل الإمامة يحل معها الأمن والطعام، فلا يحتاج الناس بعدها إلى شيء..

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾.

تأملوا هذه العبارة بدقة وطمأنينة وثبات، إنه يقول: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾.

وفيها تقول الصديقة الطاهرة فاطمة عليها السلام:

(وكنتم على شفا حفرة من النار مذقة الشارب ونهزة الطامع، وقبسة العجلان وموطئ الأقدام، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فأنقذكم الله بأبي محمد عليه السلام).

وهذا كلام الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء الآية الكبرى صلوات الله وسلامه عليها.

ثم نجد الزهراء عليها السلام تذكر إمامة أمير المؤمنين عليه السلام نبين في الوقت ذاته الأمن والاستقرار والزمن الغدائي في ظل حكومته، فتقول عليها السلام:

(لو سار بهم لسار بهم سيراً سجعاً لا يكل راكبه ولا يمل راكبه، ولأصدرهم بطاناً ونصح لهم سراً وإعلاناً، ولم يكن يتحلي من الدنيا

(١) البقرة/ ١٢٤-١٢٦.



بظائل ولا يتخطى منها بنائل غير ري الناهل وشعبة الكافل، ولبيان لهم الزاهد من الراغب، والصادق من الكاذب، ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون.. ألا هلم فاسمع وما عشت أراك الدهر عجياً وإن تعجب فعجب قولهم... إلى آخر كلامها صلوات الله وسلامه عليها، والذي تؤكد فيه أن الله عز وجل جعل إمامتهم أماناً من الفرقة وجعل طاعتهم نظاماً للملة.

إذن: فالقرآن الكريم يظهر هذه الحقيقة، إلى الناس جميعاً وهي أن الإمامة تجري الأنهار من تحتها من أمن وغذاء ورحمة وسلام وعشب وماء، لأن الإمام إنما هو لرفع الظلم فكيف يصبح الإمام ظالماً، وهذه الحقيقة لا بد من التركيز عليها.

ولا بد من وضعها موضع التنفيذ الفكري والعقلي والروحي، بمعنى أن الإنسان الذي يريد أن يصل إلى الله عز وجل لا بد له من السير في هذا الصراط المستقيم، وفي هذه الوجهة المستقيمة نحو الحق . ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾.

إذن: فالألفة والوحدة وجمع الكلمة وتأليف القلوب، كل ذلك لا يتحقق إلا بإمامة أمير المؤمنين علي عليه السلام وإمامة الأئمة من ولده إلى يوم القيامة، وهذا معنى العقيدة بالأئمة الإثني عشر الذي ذكرهم الله عز وجل في القرآن الكريم، إشارة وتلميحاً وتصريحاً ومرة بكل وضوح كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾.

فالله تبارك وتعالى لم يفصل لنا كم نصلي وكم مرة نسعى بين الصفا والمروة، وكم مرة نطوف حول البيت الحرام، وإنما ترك ذلك كله لرسوله

المصطفى محمد ﷺ، ثم أمرنا أن نأخذ من الرسول ما أتانا به من عند الله عز وجل: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ وأمرنا بطاعته وطاعة رسوله وأولي الأمر من أهل بيت محمد ﷺ، لأن أولي الأمر لا يكونون إلا معصومون، وذلك حسب ترتيبهم بعد الله والرسول، ولأن طاعة وطاعة الرسول معصومة أي في مجال معصوم، إذ لا خطأ في مجال الحق لا عند الله تعالى ولا عند رسوله الكريم ﷺ، فكذلك لا يوجد خطأ في أولي الأمر، وإلا لكان الله عز وجل يأمرنا بإطاعة أهل الذنوب والمعاصي والخطايا، وهذا لا يكون أبداً لا من قريب ولا من بعيد.

على أنه يمكن أن يقال تثبيتاً لهذا الأمر بأن الله أمرنا بمودة أهل البيت الطاهرين، وأمر الله نبيه محمداً ﷺ، أن يبين للناس من هم أهل البيت الطاهرين، فأظهر النبي ﷺ للناس أصحاب الكساء، وهم علي وفاطمة والحسن والحسين الطاهرين، وهم أصحاب آية التطهير..

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾.

كما أنهم أصحاب آية المودة، أو قل أهل آية المودة: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾.

وهذا هو الحق من رب العالمين، وهم أهل البيت الذين أخرجهم النبي ﷺ يوم المباهلة، إذ أنه لم يخرج لمواجهة المشركين إلا بأهل بيته علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام، وقد انتصر النبي ﷺ، حين أخرجهم ولو كان يمكن الانتصار من دونهم لما أخرجهم معه، لأن ذلك يعد ترجيحاً بلا مرجح، وهو ضرب من العبث ورسول الله ﷺ، لا يصنع العبث لأنه منزّه عن ذلك بنص القرآن العظيم: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.

توضيح آخر

ولتوضيح الموضوع أكثر، أنقل لكم بعض تأملاتي في هذا الشأن فأقول:

لمعرفة الأمور لا بد من معرفة الإنسان لنفسه، ففيه طاقات متضادة فيه الخير وحنوده، والشر وحنوده، فيه الإيمان وفيه الكفر، فيه التقوى وفيه الفجور، وهذه كلها تحتاج إلى أجواء لتربيتها وتهذيبها.
قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾.

طاقات العقل تهذب بالعلم، وطاقات النفس تهذب بالأخلاق، وطاقات الروح تهذب بالإيمان تأملوا جيداً، وهذه كلها تحتاج إلى أجواء الأمن والسلام والعلم والخبر، وقد ارتبطت هذه بكلمة الإمامة وبموقع الإمامة، انظروا في القرآن الكريم: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ...﴾.

- وانظروا إبراهيم ماذا يقول عن الأمن وكيف يستدل أن الأمن والسلام، لا بد له من الإيمان والعلم للرفعة.

- ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾.

- ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

- ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾.

- وتقول الزهراء عليها السلام في هذا الصدد: (فأبشروا بسيف صارم وسطوة معتد غاشم).

- ثم اقرؤوا حديث الثقلين الذي يقول فيه المصطفى ﷺ: (إني تارك فيكم الثقلين).

- لا يمكن أن يوجد سلام وأمن من دون أهل البيت ﷺ، وقد ورد في موضوع الإمامة وإنها مصدر الأمن والسلام والغذاء، مصدر الأمن الغذائي والسياسي والاقتصادي والثقافي.

- وتقرأ ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ...﴾، ويقول: ﴿وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ... وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾.

- أي أنه حتى الكافر ينعم في ظل حكومة الإمام ولكنه متاع قليل لأن الدنيا متاع قليل..

- وهذا يدل على إشعاع الإمام وإنه رحمة وإنه سلام وإنه طمأنينة..

- إذا فلاحظوا: (فأبشروا بسيف..)، بغياب الإمام.

- وهذا معنى ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾، أي تحت ظل الإمام، وليس في الإسلام نص يدعو إلى الكراهة.

- وليس هناك نص يدعو إلى العنف.

- ولكن هناك حقائق الكراهة كأمر طبيعي (حب وكره)، (فأحببه ما تحب لنفسك، وكرهه ما تكره لها).

- (حب وكره) و(رضا وغضب) و(فرح وبكاء).

- (أضحك وأبكي)، هل تريد إلغاء هذه الفرائض من الإنسان فيجب الجلال والضحية، والظالم والمظلوم، ويحب العلم والجهل، ويحب الصحة والعافية.

- ويحب الحسنة والسيئة.
- ماذا تريد من الإنسان؟؟
- وكيف تريدني أن أترك الكره وهو موجود في أعماقي لأشياء
تكرهها نفسي وتعافها طبيعتي..؟؟
- كيف أتصرف أمام البكاء والضحك، وأمام الحزن والفرح، وأمام
العلم والجهل، وأمام الشك واليقين، وأمام العفة والتهتك، وأمام الصدق
والكذب، وأمام الإنسان الظالم والإنسان المظلوم؟؟ ماذا أصنع أمامهم.
- إذا أمرتني أن ألغي هذه الفرائض!! فماذا أكون؟؟
- وهل يستطيع الإنسان أن يمحو هذه الفرائض؟؟
- ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾.
- التنازع من الصراع.
- والمنافسة من التعاون.
- «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان»، لأن
التعاون على الإثم والعدوان يؤدي إلى التنازع والتنازع يؤدي إلى الفشل،
في حين أن التعاون على البر والتقوى يؤدي إلى المنافسة، والمنافسة
تؤدي إلى النجاح والظفر، والسبب في ذلك كما أشرنا من قبل أن
التنازع يتحرك لأكثر من هدف، بينما المنافسة لها هدف واحد
﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. (هو الحق هو علي عليه السلام).
- ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾.



يا ميزان الأعمال

- كما ورد في زيارة أمير المؤمنين علي عليه السلام حيث هو ميزان الأعمال لأنه هو الحق والوزن يومئذ الحق.
- وهذا الميزان الذي ذكرناه، ينفع الناس في الدنيا وفي الآخرة .
- ولكن قسم ينتفعون به في الدنيا فقط، وهم الكفار في حين أن المؤمنين ينتفعون به في الدنيا والآخرة أمناً وأماناً، ولكن في غياب الإمام تستباح الحرمات.. (فأبشروا بسيف صارم..).
- لأنه وما كان الله ليعذبهم وهم يستغفرون.
- ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (١).
- وجود الإمام رحمة شاملة.
- وكل مولود يولد في يوم ولادة الإمام يكون مؤمناً تقياً أينما ولد.
- وهذه من خصائص الإمام المعصوم صلوات الله عليهم أجمعين.
- إذا فكيف نستفيد ونتنفع من الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام؟
- مثال: تأثير الإمام على الكائنات كلها..
- مثال ذلك: الآن الشمس والقمر والنجوم والسموات والأرض، واللوح والقلم والعرش، هذه لها تأثيرات على الناس جميعاً. بكل أشكال التأثيرات، سواء منها السلبي أو الإيجابي.

(١) الأنفال/٣٣.

- والإمام فوق كل هذه الأشياء بقوته، كم هو جبرائيل قوي، قوة الإمام أعظم من قوة جبرائيل وأعظم من روح القدس، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾، والإمام المبين هو أمير المؤمنين علي عليه السلام.

- ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾.

- ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ وهو القرآن الكريم، يصفه بأنه تبياناً لكل شيء، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾.
- ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾.

- لذلك أعماله عظيمة.. (ضربة علي يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين).

- قال له رسول الله ﷺ: «يا علي أوصيك بثلاث، إن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك وتصل من قطعك».

- عفا عن أهل البصرة كما أعفى النبي عن أهل مكة.

- وأعطى من حرمه وقصة الماء في صفين حيث أباحه لأعدائه بعد أن استولى عليه.

- ووصل من قطعه.. الخ.

- اقرأ ص ٤٢ السلم والسلام: قال أمير المؤمنين عليه السلام، ثم نسبت تلك الفتوح إلى آراء ولاتها وحسن تدبير الأمراء القائمين بها، فتأكد عند الناس نباهة قوم وخمول آخرين، فكنا نحن ممن حمل ذكره، وخبت ناره، وانقطع صوته وصيته، وأكل الدهر علينا وشرب ومضت السنون.
- والأحقاب بما فيها ومات كثير ممن يعرف ونشأ كثير ممن لا يعرف.

- والشاهد على ذلك سبي فارس، أراد عمر بن الخطاب أن يبيع النساء ويجعل الرجال عبيد العرب، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال: أكرموا كبير كل قوم..

- قال عمر: قد سمعته يقول: إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه، فإن خالفكم فخالفوه، قال أمير المؤمنين عليه السلام هؤلاء قوم قد ألقوا إليكم السلم، ورجبوا في الإسلام ولا بد من أن يكون لي فيهم ذرية، وأنا أشهد الله وأشهدكم إنني أعتقت نصيبي منهم لوجه الله تعالى.
فقال جميع بني هاشم: قد وهبنا حقنا أيضاً لك.

فقال عليه السلام: اللهم أشهد إنني قد أعتقت ما وهبوني لوجه الله.
فقال المهاجرون والأنصار: قد وهبنا حقنا لك يا أخا رسول الله.
فقال علي عليه السلام: اللهم إنني أشهد أنهم قد وهبوا لي حقهم، وقبلته وأشهدك إنني قد أعتقتهم لوجهك.

فقال عمر: لم نقضت عزمي في الأعاجم وما الذي رغبتك عن رأيي فيهم؟؟

فأعاد عليه السلام ما قال رسول الله في إكرام الكرماء.
فقال عمر: قد وهبت لله وله يا أبا الحسن ما يخصني وسائر ما لم يوهب لك، فقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: اللهم أشهد على ما قالوه وعلى عتقي إياهم..^(١)

(١) مستدرك الوسائل.



أقول: وهذا يجعلنا ندرك ونفقه قول الزهراء عليها السلام في أمير المؤمنين عليه السلام حيث تقول:

(ويحهم أني زحزحوها عن رواسي الرسالة، وقواعد النبوة والدلالة، ومهبط الروح الأمين (الوحي الأمين) والطبين بأمور الدنيا والدين (بأمر الدنيا والدين) ألا ذلك هو الخسران المبين، وما نقموا من أبي الحسن؟ نقموا والله منه نكير سيفه وقلعة مبالاته بحتفه، وشدة وطاته (وطئه) ونكال وقعته، وتنمره في ذات الله عز وجل. والله لو تكافؤا عن زمان نبذه رسول الله ﷺ، لا عتلقه ولسار بهم سيراً سجحاً، لا يكلم خشاشه (خشاشه)، ولا يكل سائره ولا يتعتع راكبه، ولأوردهم نميراً فضفاضاً تطفح ضفتاه، ولا يترنق جانباه، ولأصدرهم بطاناً ونصح لهم سراً وإعلاناً، قد تحير الري، غير متحل فيه بطائل، ولا يحظى من الدنيا بنائل، غير ري الناهل وشبعه الكافل (إلا بغمر الماء وردعه شرر الساغب) ولبان لهم الزاهد من الراغب، والصادق من الكاذب، ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، وسياخذهم الله بما كانوا يكسبون.. الخ).^(١)

(١) العوالم/٤٦٠.



طاقات متعادية

يولد الإنسان، وتولد معه طاقات مختلفة، وأضداد متعادية متصارعة، وغرائز شتى يضرب بعضها بعضاً وتحاصره ليلاً ونهاراً وسراً وجهاً، يولد ويولد معه الخير والشر، يولد ويولد معه العقل وجنوده وهم سبعمون، والجهل وجنوده وهم سبعمون، بحيث يقف كل جندي في جهة فهذا في جهة الحق، وذاك في جهة الباطل.

هذا في جهة العقل، وذاك في جهة الشر، وتقوم حرب طاحنة ما بين هاتين الجبهتين:

- الخير والشر - العقل والجهل

كل جندي يقف في مقابل جندي من الضد.

هنا مع العقل يقف الإيمان والدين والحياء وهنا مع الجهل يقف الكفر والإلحاد والتهتك.

هنا مع العقل يقف الحق والعدل والصدق، وهناك مع الجهل يقف الباطل والظلم والكذب.

هنا مع الحق ومع العقل يقف اليقين والأمن والصلاح، وهناك مع الجهل يقف الشك والقلق والفساد.. وهكذا!!

ومن المنتصر؟؟

في هذه المعركة التي تبدأ مع الإنسان من ولادته، ومن يوم بلوغه سن التكليف فمن يوم ولادته تولد معه، ومن يوم تكليفه وبلوغه سن التكليف يبدأ الصراع في داخله.



ولذلك هذه المرحلة من أخطر المراحل في نمو الإنسان وهي المرحلة التي ينتقل فيها من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الشباب والمراهقة.

- فإذا صار انسجام في داخل نفسه وقلبه وعقله وروحه، انتقل هذا الانسجام والتوافق إلى الأسرة وإلى العائلة التي يعيش فيها، ومن ثم إلى المجتمع الذي يتحرك من خلاله، ومن هنا كان تغيير العائلة وتغيير المجتمع وتغيير العالم ينطلق من تغيير الإنسان نفسه، أي تغيير نفسه.

- وهذا قانون عام وسنة ثابتة في الكون والحياة والإنسان: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾

في المجالين: من السلب والإيجاب، الصلاح والفساد.

فهو ممكن يصلح الأرض بعد فسادها، بأعماله بعد فسادها، بأعماله الصالحة، وممكن أن يفسد الأرض بعد إصلاحها بأعماله الفاسدة، وهذا هو الإنسان إذا التفت إلى نفسه وعرف قدرها لم يهلك، وإنما يحفظ في حين أنه إذا لم يعرف نفسه ولم يعرف قدرها، هلك وأهلك الحرث والنسل معه.

وهذه ملاحظات لا بد من التركيز عليها في هذا المجال.

إن الإنسان لا يمكن أن يتعايش مع نفسه فيحصل على الأمن والسلام والنجاح إلا بشرط كما أنه لا يمكن أن يتعايش مع أسرته في أمن وسلام ونجاح إلا بشرط، إلا بنفس الشرط.

ولا يمكن للإنسان أن يتعايش مع الناس ومع الأمم ومع الشعوب ومع المجتمعات كلها، إلا بنفس ذلك الشرط، والشرط هو أن يكون له إمام يقتدي به ويستضيء بنوره.. الخ.

- كما قال الإمام الرضا عليه السلام: (إلا بشرطها وشروطها وأنا من شرطها وشروطها).

- ومن هنا ننتقل إلى موضوع أن الإمام له أثر كبير وإشعاعات من الرحمة والأمن والطمأنينة على كل شيء في الوجود.. الخ.

- ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

- ومن هنا: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

- ثم نتطرق إلى موضوع الآيات وما فيها من دقة حيث إنها ذكرت أنه حتى الكافر ينتفع بالإمام والإمامة ولكنه لا ينتفع بها في الدنيا فقط، لأنه لولا الحجة لساخت الأرض بأهلها.. الخ.

- ومثله كمثّل الشمس، ومن هنا يأتي المثل الذي يقول: إن الناس ينتفعون بالإمام الغائب كما ينتفعون بالشمس حين يغطيها السحاب، فالشمس غائبة عن الخلق حجبها السحاب عنهم ولكن السحاب لم يحجب النفع الذي ينزل من الشمس على الناس والحياة، كذلك غيبة الإمام، وإنما هو غائب وهذا صحيح، ولكن هذه الغيبة لم تحجب ولم تستر النفع الذي ينزل من الإمام إلى الناس، لأنه لولا لساخت الأرض بأهلها.. الخ.

- ولكن عندما يخرج يضع يده على رؤوس العباد، فتكتمل عقولهم وأخلاقهم (أو أحلامهم).

الانتفاع بالإمام الغائب

في موضوع الانتفاع من وجود الحجة عليه الصلاة والسلام، وأنه انتفاع عام وشامل للملاحظات التالية:

١ - أن الله سبحانه وتعالى إنما يرحم العباد بأسباب، وأبى الله أن يجري الأمور إلا بأسبابها، فمثلاً رحمة الله واسعة، وهو الرحمن الرحيم، رحمان بالمؤمنين ورحيم بالعباد جميعاً، أو قل: رحمان في الدنيا والآخرة، الله الرحمن الرحيم خاص وعام، والإمام كذلك جعله الله رحمة للعالمين فرحمة خاصة للمؤمنين ورحمة لغير المؤمنين وهذا بحث ضامل وواسع.

٢ - يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا﴾
وآية أخرى: ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾.

إذاً: فهو يعطي الجميع لكن واحد يعطيه الدنيا فقط لأنه أراد الدنيا، ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا﴾.

وآخر يعطيه الآخرة، وقد يجمع الله الدنيا والآخرة، لا قوام لأن الذي يطلب الآخرة تجيئه الدنيا في حين الذي يطلب الدنيا لا تأتيه الآخرة، وإلا كانت الآخرة لحقت كل الفراعنة والطغاة.. الخ.

٣ - قال الله تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾.

٤ - أن النبي ﷺ رحمة للعالمين، وهذا يعني أن كل إنسان وكل مخلوق ينتفع بوجود النبي، ولكن يوجد فارق أو فوارق في الانتفاع، فالذي لا يؤمن بالآخرة يكون انتفاعه محدوداً، بحدود الحواس فقط وليس أكثر، في حين أن الذي يؤمن بالآخرة يتسع انتفاعه ويتعمق أكثر فأكثر.. الخ، ولذلك نجد موضوع الانتفاع بالإمام في غيبته، كانتفاع الناس بالشمس حين يسترها السحاب، وفي هذا المثال قضايا علمية كبيرة يمكن أن تطرق وتطرح في هذا الشأن بالذات.

٥ - (وحبسني عن نفعي بعد أملي.. الخ).

٦ - قضية الحجب والسواتر والموانع التي تمنع الانتفاع من بعض الأمور... الخ، وهذا بحث دقيق لا بد من الإشارة إليه، ويأتي فيه موضوع درجات الناس وإنهم في الانتفاع حسب درجاتهم ومراتبهم، وهذا موضوع لا بد من التركيز عليه والدخول فيه بدقة.

٧ - وبالدرجات للروايات يعلو المؤمن إلى أقصى درجات الإيمان.

٨ - أنتم أفقه الناس إذا عرفتم معاني كلامنا.

٩ - اقرأ الآيات التي في آخر سورة الأنبياء.

١٠ - سلامة المتلقي، قل: صحة المتلقي تعد شرطاً أساسياً في التفاعل والانتفاع لأن الأرض الطيبة هي وحدها التي تنتفع من الشمس والمطر والهواء، بينما تظل الأرض الخبيثة لا تستطيع الانتفاع بذلك أبداً.



مصادر الطاقة والكلمة

قال تعالى:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥)﴾ (١)

في العادة الناس يتفقون على الأشياء الطبيعية الحسية التي تتعلق بحاجات البدن، ويختلفون في القضايا الفكرية والروحية التي تتعلق بالقلب والعقل والروح.

فمثلاً كل الناس يتفقون على مصادر هذه الحاجات الأساسية، النور والحرارة من الشمس والقمر، والماء والري من البحر والسحاب، وكذلك الغذاء مصدر الشجر والأنعام، وحين يريد الواحد منا عسلاً يذهب إلى النحل لا إلى غيره من الخلق، وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أن الناس كافة يتفقون على مصادر الأشياء الطبيعية حتى في العلوم التي لها علاقة بالطبيعة.

نجد الشعوب والأمم والقبائل كلها تتعارف على هذه العلوم ولا تتناكر لها أو عليها، فالفيزياء واحدة في الغرب والشرق، والكيمياء واحدة، ليس فيها كيمياء مؤمنة ولا كيمياء كافرة، وما يقال في هذا يقال في أخواتها من العلوم الطبيعية، فالرياضيات واحدة في موسكو وفي واشنطن، أو الهندسة هي ذاتها في اليابان وفي الجزائر، بل إن القوانين

(١) الأنعام/ ١١٥.

التي تلف عالم الملك والطبيعة هي واحدة لا يخالف فيها قانونٌ قانوناً،
أبداً أو مطلقاً، غير أن الاختلاف يقع في القضايا الفكرية، فهذا عقلي
يحتاج إلى كلمة..؟؟؟

من أين آخذ هذه الكلمة؟؟

من أي مصدر؟؟

وقلبي يحتاج إلى الأمن والطمأنينة، فمن يوفر الأمن القلبي؟
وإذا كنت أظهر بدني بالماء فبأي شيء أظهر روحي؟
وهكذا دواليك..

إذن: فهذه هي القضايا التي يختلف فيها الناس، إنهم يتفقون على
كل الأشياء التي تخص الأبدان والطبيعة، ولكنهم يختلفون في كل شيء
يخص الروح والقلب والعقل.

يقول تعالى في محكم كتابه:

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا
سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥)﴾ (١).

أجل في النبأ العظيم، من هو؟؟

وكيف نتعامل معه؟؟

هنا يظهر الاختلاف.

(١) النبأ / ١-٥.



على أن السؤال: هل تركنا الله جاهلين تائبين حائرين، نتخبط في
الظلمات لا نهتدي إلى شيء؟

كلا.. ثم كلا.. وذلك أنه ليس من المعقول أن يجعل الله عز وجل
غذاء أبداننا في مصادر معصومة لا تخطئ أبداً، فالشجرة معصومة
ولو مجازاً لا حقيقة- ليس فيها خطأ، وهي التي تمدنا بالغذاء
لأبداننا، ونحن نعرف أن الروح أعظم درجة من البدن.

فكيف نأخذ غذائها من مصادر ليس فيها عصمة ولا حفظ؟؟؟

وإنما هي مصدر الخطأ والغلط، كما هو الشاهد اليوم في المدارس
الفكرية التي لا تؤمن بحديث الثقلين: كتاب الله عز وجل والعترة أهل
البيت عليهم السلام.



فاطمة عليها السلام هي الكلمة الطيبة

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) ﴾ (١)

ورد في كتاب معاني الأخبار عن جابر الجعفي، قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي الباقر -عليهما السلام- عن قول الله عز وجل: ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾

قال عليه السلام:

(أما الشجرة فرسول الله ﷺ وفرعها علي عليه السلام، وغصن الشجرة فاطمة بنت رسول الله ﷺ وثمرها أولادها عليهم السلام، وورقها شيعتنا، ثم قال عليه السلام: إن المؤمن من شيعتنا ليموت فتسقط من الشجرة ورقة، وإن المولود من شيعتنا ليولد فتورق الشجرة ورقة). (٢)

(١) إبراهيم / ٢٤-٣٠.

(٢) تفسير نور الثقلين للحويزري / ومعاني الأخبار للصدوق ص ٤٠٠.



وفي حديث آخر يرويه ابن عباس عن النبي ﷺ (إن جبرائيل قال للنبي: أنت الشجرة وعلي غصنها وفاطمة ورقها والحسن والحسين ثمارها).^(١)

وفي حديث ثالث عن أبي جعفر وأبي عبدالله -عليهما السلام: في قول الله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾

قال ﷺ: يعني النبي ﷺ الأصل الثابت والفرع الولاية لمن دخل فيها.^(٢)

ورابع ينقله الحسن بن محبوب يتصل بإسناده إلى سلام بن المستير، عن أبي جعفر الباقر ﷺ، قال: سألته عن قول الله تعالى: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾.

قال ﷺ: الشجرة رسول الله ﷺ، ونسبه ثابت في بني هاشم وفرع الشجرة علي بن أبي طالب عليهما السلام، وغصن الشجرة فاطمة عليها السلام وثمرتها الأئمة من ولد علي وفاطمة عليهما السلام، والأئمة من أولادها أغصانها، وشيعتها ورقها، وأن المؤمن من شيعتنا ليموت فتسقط من الشجرة ورقة، وأن المؤمن ليولد فتورق الشجرة.

قلت: أرايت قول الله تعالى: ﴿تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلُّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾؟..

(١) تفسير نور الثقلين للحويزري/ ومعاني الأخبار للصدوق ص ٤٠٠.

(٢) تفسير نور الثقلين للحويزري/ ومعاني الأخبار للصدوق ص ٤٠٠.



قال عليه السلام: يعني بذلك ما يفتون به الأئمة شيعتهم في كل حج وعمرة من الحلال والحرام، ثم ضرب الله لأعداء الله آل محمد ﷺ، مثلاً فقال: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ (١).

وفي بصائر الدرجات روى عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ ..

قال عليه السلام: (هو ما يخرج من الإمام من الحلال والحرام في كل سنة إلى شيعته). (٢).

(١) تفسير نور الثقلين للحويزري.

(٢) تفسير نور الثقلين للحويزري.



فاطمة عليها السلام هي الليلة المباركة

قال رسول الله ﷺ:

ملعون ملعون من يظلم بعدي فاطمة ابنتي، ويغصبها حقها، ويقتلها.
ثم قال ﷺ: يا فاطمة! إبشري فلك عند الله مقام محمود تشفعين فيه لمحبيك وشيعتك، فتشفعين.

يا فاطمة! لو أن كل نبي بعثه الله وكل ملك قرّبه شفّعوا في كل مبغض لك غاصب لك ما أخرجه الله من النار أبداً. ^(١)

حين سئل الإمام أبو الحسن موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام عن تأويل الليلة المباركة في القرآن الكريم أكد بأنها أمه فاطمة الزهراء عليها السلام حيث قال عليه السلام:

أما (حم) فهو محمد ﷺ، وهو في كتاب هود الذي أنزل عليه، وهو منقوص الحروف، وأما (الكتاب المبين)، فهو أمير المؤمنين عليه السلام.
وأما (الليلة): ففاطمة عليها السلام.

وأما قوله: (فيها يفرق كل أمر حكيم).

يقول: يخرج منها خير كثير، فرجل حكيم ورجل حكيم، ورجل حكيم... إلى آخر الخبر بطوله. ^(٢)

وكان هذا الجواب من الإمام باب الحوائج عليه السلام رداً على السؤال الذي تقدم به رجل نصراني كان قد ورد عليه من مكان بعيد يبحث عن الحق فوجده عنده عليه السلام.

(١) البحار: ٣٤٦/٢٩.

(٢) البحار: ٣١٩/٢٤ و ٣٢٠ ح ٢٨، عن الكافي: ٣٨٨/٢ ح ٤.



فاطمة عليها السلام كلمة الغضب

يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: (احذر العاقل إذا أغضبته، والكريم إذا أهنته، والنذل إذا أكرمته، والجاهل إذا صاحبتة) ^(١).

ورد عن أهل البيت عليهم السلام قولهم: (أنتم أفقه الناس إذا عرفتم معاني كلامنا) ..

واللافت للنظر أن كلامهم يجري في كل شيء في الحياة بحيث ينطبق على ذلك الشيء الذي تذكره بصورة كاملة، وخير دليل على ذلك هو الحديث الذي نحن في صدد، وهو قول أمير المؤمنين عليه السلام: (احذر العاقل إذا أغضبته .. إلى آخر الحديث) ..

وذلك أن العاقل حليم لأن الحلم يدل على كمال العقل، والحليم لا ينجر وراء توافه الأمور ولا يغضب لقضايا الشخصية، وإنما يغضب للحق وللقضايا المصيرية، لأن في الأمور التي تخص حياة الشخص يمكن التسامح والتساهل والعفو، والصفح ..

قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾، ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾.

ويقول الله تعالى: ﴿وَالْكََاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ .. وهنا نرى أيضا أن الحليم أي العاقل لا يغضب في الأشياء

(١) سفينة البحار/ مادة الصاد بدعه الدال (٩٠/٥)



التي تخص حياة الإنسان الاجتماعية ومن قبيلها .. غيبة الإنسان أو شتمه أو هضمه بعض الحقوق، وما ذكرناه هذا هو في مجال الحياة الاجتماعية، أما في مجال الحياة العقائدية أو العقيدية والولاية والالتزام بالدين والحق والعقيدة، فإن الغضب وغضب الحليم خاصة لا يسكت حتى يأخذ الحق مجراه ويعود الى أهله.

ومن هنا كان غضب فاطمة الزهراء عليها السلام لا ينطفئ ولا يسكت لأنه غضب من أجل الحق الضائع، ولذلك كانت كلمة الغضب عند فاطمة فكانت سلام الله عليها هي الرمز لغضب الله عزوجل، حتى صار غضبها ميزانا لغضب الله عزوجل، ورضاها ميزانا لرضا الله عزوجل.. فأنا في العادة أعلم أن لي رباً وهو عادل ورحيم، وأن لهذا الرب سُخطاً ورضاً، وحبّاً وبغضاً، وأنا لا أدري متى يغضب ومتى يرضى، ومن يحب ومن يبغض؟؟

فلا بد لي من وحي أو رسول يُبين لي غضب الله ورضاه، وكان ذلك واضحاً في غضب الزهراء عليها السلام فهي كلمة الغضب لأن الأمة اتفقت كلمتها في هذا المضمار: (إن الله ليغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها..).

إذن فهذه المسألة واضحة وهي تحذير أمير المؤمنين في حديثه المذكور آنفاً من غضب العاقل، لأنه إذا غضب فلا يسكت غضبه إلا الحق وعودة الحق إلى وضعه الطبيعي وعند أهله، وكما في هذا المثال، كذلك في الكريم إذا أهنته، والقوم قد أهانوا فاطمة عليها السلام ولم يحفظوا حقها وعهد النبي بها، حيث قال ﷺ في حديث ينقله الخاصة والعامة: (فاطمة بضعة مني من آذاها فقد آذاني ومن سرها فقد سرنى.. فاطمة



هي روعي التي بين جنبي.. إن الله لما أخرجني من صلب آدم، أحب أو أراد أن يخرجها من صلبي)..

وهذا الحديث يدل على أن الزهراء عليها السلام ما كانت في صلب آدم ولا في أحد من أصلاب الأنبياء، وإنما كانت عند الله عزوجل في الجنة تسبح الله وتقده إلى ليلة الإسراء والمعراج حيث جعلها الله عزوجل في صلب أبيها عليه السلام من خلال ثمر وثمار الجنة التي أكلها النبي عليه السلام، فلما هبط إلى الأرض، حيث تحولت إلى نطفة في صلبه، فواقع خديجة عليها السلام فحملت بفاطمة الزهراء عليها السلام وكان يشمها فيجد فيها رائحة الجنة فيقول عليه السلام: (إن ابنتي فاطمة حواء إنسية، كلما اشتقت إلى رائحة الجنة، شممت رائحة ابنتي فاطمة..).

وكما هو مشهور على أن الأخبار تؤكد أنه كان يشم منها مثل رائحة التفاح في الجنة، فقد روت الأحاديث الصحيحة، إنها كانت سلام الله عليها في تفاحة في الجنة، وهذا من مكنون الأسرار، ومخزون العلم والمعرفة فلا تظهره إلا لأهله..

أقول...:

هذا الحديث الذي نحن بصدده يبين هذه الحقيقة ويدل على أنها كانت من أصدق الأحاديث التي تدل على عظمة فكر أهل البيت عليهم السلام في كل أبعاد الحياة وفي كل الاتجاهات الفكرية والفقهية والعلمية، بحيث يستطيع الواحد منا أن يأخذ أي حديث عن أهل البيت عليهم السلام ويطبقه على كل شيء يجري أمامه في الحياة وفي الفكر والعقيدة.



إن هذا الذي وقع على الزهراء من الظلم فأثار غضبها هو عينة الذي وقع على ابنتها السيدة زينب العقيلة عليها السلام، فأثار غضبها وأشعل قلبها بالحزن والمصاب ونار اللوعة والدموع، كما وقع ذلك في مجلس ابن زياد أمير الكوفة لبني الزرقاء، حيث راح يتساءل عن زينب عليها السلام إذ رآها جالسة بناحية القصر وقد حفت بها إمائها، ولما ألح بالسؤال أجابه بعض إمائها: هذه زينب بنت علي عليها السلام، فأقبل نحوها يخاطبها بقوله: (الحمد لله الذي فضحككم وأكذب أعدوئكم).

فقالت زينب عليها السلام: (إنما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر وهو غيرنا يا عدو الله).

فرد عليها ابن زياد: (كيف رأيت صنع الله بأخيك وأهل بيته؟).

فقالت عليها السلام: (ما رأيت إلا جميلاً، هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم فتُحاج وتُخاصم فانظر يومئذ لمن الفلج ثكلتك أمك يا ابن مرجانة..).

فاستشاط ابن زياد غيضاً وغضباً وكأنه هم بها ليضربها وذلك عندما أخذ سوطاً بيده وراح يتخطى الناس ليضرب العقيلة زينب، فقام إليه أحد مستشاريه ومنعه من ذلك موضحاً له خطورة الموقف وحذره من أنه إذا ضرب السيدة زينب عليها السلام في مجلسه، هذا فإن الناس لن يسكتوا على فعلته تلك وصنيعته في المجلس، فتركها ابن زياد في قصة معروفة وهو يقول لها: (لقد شفا الله قلبي من طاغيتك الحسين والعصاة المردة من أهل بيتك).

فقالت عليها السلام: (لقد قتلت كهلي واجتثت فرعي فإن كان هذا يشفيك فقد اشتفيت).



فقال ابن زياد: (إنها سجاعة ولعمري لقد كان أبوك شاعراً سجاعاً).
فقالت عليها السلام: (يا ابن زياد: ما للمرأة والسجاعة، وإن لي عن
السجاعة لشغلاً، ولكن صدري نفث بما قلت).

أقول: هذا الموقف يدل على أنها عليها السلام غضبت من أجل الحق
ونفس الشيء حدث معها في مجلس يزيد بن معاوية في الشام، حيث
شتمها في المجلس، فرقت عليها السلام وبكت وتمنت حضور أخوتها
وكبار قومها في المجلس، كما أشارت إلى هذه الحقائق في خطابها
العظيم الذي فجرته حمماً وصواعق أهوت به على رأس يزيد ورؤوس
الظلمة من أتباعه وأعوانه.

إذاً: فالمثال الذي ضربته لكم من خلال هذه الكلمة الذهبية التي
قالها أمير المؤمنين عليه السلام: (احذر العاقل إذا أغضبته، والكريم إذا أهنته
والنذل إذا أكرمته).

وهذا ينطبق على أعداء آل محمد عليهم السلام، فقد أكرم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله
الطلاق وهم بنو أمية فأطلقهم وقال صلى الله عليه وآله: (اذهبوا فأنتم الطلقاء)..
ولكن ماذا فعل الطلقاء؟؟

وماذا فعل أبناء الطلقاء؟؟

ماذا فعلت تلك الفئة في أهل بيت الرحمة وموضع الرسالة ومختلف
الملائكة، كما وصف ذلك الشاعر ابن الصيفي في أبياته المعروفة:

ملكننا فكان العفو منا سجية	ولما ملكتم سال بالدم أبطح
وحسبكم هذا التفاوت بيننا	وكل إناء بالذي فيه ينضح



ولكم كلمتنا الأخيرة في هذا الحديث وهي:
واحذر الجاهل إذا صحبتته.

لماذا؟

لأن الجاهل يوقعك في مواقف حرجة ويجر عليك الويلات ويفطيك بأشواك الجهل ويثير عليك حفيظة الآخرين وذلك أن الجاهل عدو العالم، والجهل من جنود الحمق بل هو رئيس جبهة الضلال، ضد جبهة العلم والإيمان والحق والصدق.. الخ.

والآن وبعد هذه المقدمة التي تدل على أن كلام أهل البيت عليهم السلام يجري في كل أبعاد الحياة بحيث يستطيع الواحد منا أن يتخذ منه مجالا واسعا، ورحاباً ذا آفاق، وأبواب ليس لها حدود ولا نهايات، لأنها كلمة، وكلمات الحق وحدود الحق تفوق الخيال، وتتجاوز العد والإحصاء.

إذاً: فلنأخذ هذه المفردة وهي عنوان من عناوين هذا الكتاب:



فاطمة كلمة المعرفة

ماذا تعني هذه الكلمة؟

لكي ندرك أبعادها لا بد لنا من إلقاء نظرة على عالم المعرفة وتبسيط مزيد من الضوء في هذا المجال بالذات لنأخذ صورة حقيقية مما يجري أمامنا من فكر وفقه ولغة وتفسير وأدب لهذه الكلمة بالذات: المعرفة.

يولد الإنسان خالي الذهن ليس فيه علم ولا معرفة، يقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ..

وهنا لاحظوا الآية جيداً وأمعنوا النظر فيها.. إنها آية عجيبة تحمل في ثناياها أروع صورة للإنسان وهو يدخل الحياة لا يعلم شيئاً من لذاتها ولا من علومها، غير أنه ينزل إلى الحياة مزوداً بوسائل وآلات وأدوات وأجهزة تمكنه من التفاعل مع الحياة والأخذ منها ليعطي عطاءاً تربوياً يشمل كل أبعاد الحياة..

ومن هنا جعل الله عز وجل وظيفة لكل آلة مهمة ولكل جارية وظيفة تختلف عن أختها ولكنه جمع بين كل الآلات بحبل الإيمان ووحدة الهدف والغاية والمشية.

يقول في ذلك عز وجل: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ ..



وهذا يعني أن للعين رسالة وللسمع رسالة ولللسان رسالة وكذلك
لليد، والبطن والفرج وبقية الجوارح، على أننا نستطيع أن ندرك
القضية أكثر عندما نلقي نظرة على رسالة الحقوق للإمام علي بن
الحسين عليهما السلام حيث يجعل لكل عضو في الإنسان حقاً بل
يجعل لكل آلة وأداة وجارحة يقلبها أو ينتفع بها حقاً خاصاً بها، فاعلم
إن لعينيك عليك حقاً أو قل:

إن لبصرك عليك حقاً ولسمعك عليك حقاً وكذلك في بقية الجوارح،
ومعنى ذلك أن هذه الأجهزة إنما جاءت من أجل قضية مقدسة
وعظيمة والقضية هي الولاية للرسول ولأمير المؤمنين عليه السلام ومنه
تسحب إلى بقية الأئمة صلوات الله عليهم أجمعين، ويدل على ذلك
قوله تعالى في آخر الآية الكريمة: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا
تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

إذن: فركزوا على آخر الآية ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، هنا تتكشف الحقائق
أمامنا، إذ أن المسئولية تبين أن الشكر إنما هو في مقابل النعمة وأكبر
النعمة نعمة الولاية، حيث تجتمع النعم كلها في أربع واضحة: الوجود،
والعقل والعلم والإيمان.

العقل هو لاستثمار العمر والوجود، ثم العلم غذاء للعقل فلا عقل بلا
علم، وكذلك الإيمان الذي يبين لنا نوع العلم، وهذه حقيقة لا بد من
التركيز عليها وهي أن اندماج العلم والإيمان هو الذي يجعل الإنسان
يخلق في آفاق العلم والمعرفة والارتقاء..

﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾



أي أن العلم والإيمان اللذان يرفعان الإنسان إلى درجات عالية ومنازل رفيعة، بل وإنما هما العلم والإيمان المنطلقان من بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه وتلك هي بيوت النبي وعلي وفاطمة والحسن والحسين وإلى صاحب العصر والزمان صلوات الله عليهم أجمعين.

إذن: فإن جوارح الإنسان إنما هي من أجل اقتسام المسئولية والاضطلاع بها في كل زمان ومكان بحيث لا تستطيع الموانع ولا العقبات أن تحجب هذه الآلات عن المعرفة بأي حال من الأحوال.

وحتى تبدو الصورة أكثر وضوحاً فإنه لا بد لنا من تسليط الضوء على الفكرة التالية التي تقول: لا بد للمعرفة من الخروج من الظلمات إلى النور، لأن الظلمات تسلب القدرة على المعرفة فليس في الإمكان للقابع في الظلام أن يعرف نور الحق أبداً، ومن هنا كانت وصية الحق سبحانه إلى موسى بن عمران: ﴿أَنْ أَخْرِجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكَرَهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾.

*** وهذا هو الحق:**

أخرجهم من الظلمات، هذه أول خطوة ثم ذكرهم بأيام الله، لأن الذكرى تنفع المؤمنين، والمؤمن غير الذي يتخبط في الظلام، وعلى هذه الفكرة فأي كلمة في القرآن الكريم تتحدث عن الذكرى وإعادة إحيائها فإنما هي من أجل معرفة الحق، وإظهاره في معارج النور والإيمان إلى العالم كافة، فحين نقرأ في سورة مريم وطه والأنبياء حديث ذكرى الأنبياء وأن الله يأمرنا بإحياء ذكراهم بقوله:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾
 ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾
 ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾
 ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ﴾

فإن المراد بذكرهم إنما هو إحياء ذكراهم ليكونوا أسوة حسنة للعالمين، وقدوة طيبة يستطيع الناس الاقتداء بهم. من كل ذلك نخرج بحصيلة علمية مركزة مفادها:

إن الإنسان إنما جاء إلى الحياة ليحمل حضارة وأمانة ورسالة إلى العالم كافة.

ولهذا كله نجد القرآن الكريم يوجهنا إلى أهل البيت عليهم السلام في طلب العلم وأخذ المعرفة وإلقاء السؤال، فيقول الله عز وجل: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وهذا هو الحق فنحن أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً ولكن الله زودنا بوسائل العلم والمعرفة، ثم وجهنا إلى مصادر العلم فقال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ويقول عز وجل في آية أخرى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾

والطعام هنا فيه تفسير وتأويل، التفسير هو الطعام المعروف للبدون، في حين أن التأويل يبين أن الطعام هاهنا إنما هو العلم والمعرفة والأدب والتربية، حيث يقول الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام في تأويل قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾

أي فليُنظر إلى علمه الذي يأخذه عمن يأخذه، ولعل في المثل الذي ضربه الله للكلمة حيث جعلها الله بمنزلة الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، لخير دليل على أن الغذاء نوعان، غذاء للبدن كما في الشجرة وغذاء للروح كما في الكلمة.

كما يمكننا إلقاء نظرة على كلام أهل البيت عليهم السلام لنُدرك مدى التفاعل الذي يريده الإسلام لنا من الكلمة والجوارح في البدن، فهذا الإمام الصادق عليه السلام في زيارة الإمام الحسين عليه السلام يقول:

(لبيك داعي الله، إن كان لم يجبك بدني عند استغاثتك ولساني عند استنصارك، فقد أجابك قلبي وسمعي وبصري) ..

أي قلبي الذي يحمل حبك الذي يضيء له عقلي وسمعي وبصري فتكتمل هذه الجوارح بحب الحسين عليه السلام.

كما أن الله عز وجل خاطب العقل: «وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إليّ منك، ولا أكملتك إلا فيمن أحب» .

وهذا نص مقدس لا بد من التأمل فيه والتدبر بحروفه وكلماته، لأنه واضح جداً أن العقل لا يكتمل إلا بحب الله عز وجل، والسؤال هو:

من الذين يحبهم الله؟؟!!

أو قل.. ما هي الأعمال التي تقرينا من الله عز وجل وتجعل الله تعالى يحبنا؟؟!!

الأعمال كثيرة ومتشعبة، ومنها الطهارة والتوبة، يقول تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ..



فأنا أغسل بدني بالماء، ولكن بأي شيء أغسل قلبي وروحي؟؟
لا شك أن غسل الروح والقلب إنما يتم بالتوبة وحب أهل البيت عليهم السلام.
قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.
والشيء ذاته في حديث الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله:
(حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسينا).

وما دام الله يحب من أحب حسيناً فإن حب الحسين يحيي القلوب
ويكمل العقول، أي أن كل شيء له علاقة بالحسين عليه السلام إنما هو يحيي
العقول مثله مثل البكاء على الحسين عليه السلام وإقامة المآتم والعزاء على
مصائبهم روي لهم الفداء فإنه هو الآخر تكتمل به العقول وتحيا به
القلوب وتستقيم به النفوس .

إذن: فالمعرفة كلمة تتمثل في حب أهل البيت عليهم السلام
وطاعتهم، وعلى أننا سنحاول أن نستوفي هذا البحث بشيء من
التفصيل غير المخل في البحث بعد فترة وجيزة من هذا الموضوع إنشاء
الله تعالى.

A decorative border with intricate floral and geometric patterns, featuring repeating motifs of stylized leaves and scrolls, framing the central text.

فاطمة

شجرة مني

فاطمة شجنة مني

على أنني أود أن أتأمل في هذا الحديث الشريف الذي رواه علماء العامة قاطبة، كما رواه علماء الشيعة كافة، وهو الحديث الذي يقول فيه النبي محمد ﷺ :

(فاطمة بضعة مني) .

وفي رواية أخرى :

(فاطمة شجنة مني ، يقبضني ما يقبضها، ويبسطني ما يبسطها...) .

وحتى نعرف عمق هذا الحديث وشموله، فإنه لا بد أن نعرف أولاً من هو صاحب الحديث، وما هي أبعاد شخصيته ؟؟

وللإجابة على ذلك نقرأ آيتين من القرآن الكريم آية في العلم وأخرى في الخلق، لأن كمال الإنسان إنما يعتمد على العلم والخلق، العلم هو الصدق في الفكر، وفي مصدر المعرفة، والخلق هو العدل في العمل والتطبيق لهذا الفكر، وذاك العلم وهذا هو التفقه في الدين الذي تتم به الكلمة، ويتحقق به المعنى ويكتمل به الدين، لأن كمال الإنسان بالعقل فلا خير في صورة لا عقل معها، وكمال العقل بالدين، لأن الدين والحياء تبعاً للعقل، كما ورد في حديث خلق العقل، وعرضه على أبينا



آدم عليه السلام، حيث اختار العلم، فإذا الدين والحياة يتبعان العقل، فقال لهما جبرائيل: شأنكما - أي أنتما وما اخترتما - ثم انصرف عنهما وعرج إلى السماء .

إذاً: فكمال العقل بالدين، ولذلك كان العقل حجة باطنة، وكان الأنبياء والرسل والأئمة حجة ظاهرة، وهم يمثلون الدين بتمام معنى الكلمة، ومن هنا كان العقل يتكامل ويتفاعل مع الدين والإيمان والأخلاق.

وبعد ذلك نجد أن كمال الدين بولاية أمير المؤمنين علي عليه أفضل الصلاة والسلام ..

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (١) .

كل ذلك بولاية الإمام علي عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام .
إذاً: فالإنسان الكامل إنما هو الذي اكتملت فيه كلمة الحق، وتمت فيه كلمة الصدق والعدل ..

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ (٢) ..

أي صدقاً في العلم والمعرفة والمنهج والفكر، وعدلاً في التطبيق والمنهج، وهذا هو الحق بعينه لأن على المشكلات التي تطلع من مغرزها على الناس إنما سببها أحد شيئين:

(١) المائدة/٣.

(٢) الأنعام/١١٥.



إما خلل في الفكر، وإما خلل في التطبيق، أو في كليهما، أي في الفكر والتطبيق، ونحن في مدرسة الزهراء فاطمة عليها السلام ليس عندنا خلل لا الفكر ولا في التطبيق خصوصاً ونحن نسمعها تقول :

(أيها الناس اعلموا أني فاطمة وأبي محمد عليهما السلام، أقول حقاً وعوداً وبدواً، ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً، لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) .

فهي لا تقول غير الحق، ولا تفعل غير العدل، فليس في قولها غلط ولا في فعلها شطط، لأنها معصومة، طاهرة مطهرة، وهي سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين، يسعد من أحبها ونصرها - لأنها مفروضة الطاعة والمودة - ويشقى من أبغضها وخذلها .

أقول: لكي نعرف ولو شيئاً بسيطاً من حق فاطمة عليها السلام، فإنه لا بد لنا من معرفة القائل لهذا الحديث :

(إنما فاطمة شجنة مني يقبضها ما يقبضها، ويبسطني ما يبسطها...) .

لقد عرّف الله حبيبه المصطفى في آيتين هما من أكثر الآيات تركيزاً على هذا المضمرة:

آية في العلم ، وآية في الخلق ، فأية الله :
﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾^(١).

(١) النساء/١١٣ .



ولاحظوا هنا دقة الكلام في هذه الآية خصوصاً عندما نعرف أن هذا العالم كله ..

﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ۖ ﴾ (١).

في حين أن علم النبي ﷺ عظيم، ثم الآية الثانية يقول فيها:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۖ ﴾ (٢).

لأن العلم يحتاج إلى حركة ومشية وسلوك وعمل، فالخلق العظيم يلخص كل رحلة العلم هذه التي جاء بها النبي من عند الله تبارك وتعالى، ومعنى ذلك أن خلق النبي أعظم من كل ما خلق الله في هذا الوجود، يدل على ذلك وصفه للعلم بأنه فضل عظيم من الله للرسول محمد ﷺ ومعنى ذلك أن العلم الذي لا يحيط به أحد، إنما جعله الله عند رسوله العظيم، فكان قلب النبي مفتاحاً وموثلاً لهذا العلم العظيم ولهذا الخلق العظيم .

وبكلمة: عالم الملك والملكوت، بل كل عالم الغيب مطوي في قلب النبي والشيء اللافت للنظر، أن هناك شيئاً واحداً في هذا الوجود يقبض قلب النبي ويبسطه، وذلك الشيء هو فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها، وتفسير ذلك في وضوح كامل :

أن فاطمة الزهراء إذا أطلقت من قلبها آهة واحدة، أو أنت أنه واحدة، فإن العالم كله يهتز لحزنها ويفزع لدمعتها، وإن الملائكة والأنبياء والرسل كافة تتقبض لانقباض فاطمة وتتبسط لانبساطها، فأى حزن هذا الذي تشكوه وتبته فاطمة عليها السلام ؟؟

(١) النساء/٧٧.

(٢) القلم/٤.



إنه حزن يهز الوجود، وتشهق الكائنات من البكاء والحزن على فاطمة الزهراء عليها السلام .

وعلى هذا الأساس فإن إقامة العزاء على فاطمة ليس خاصاً بطائفة دون أخرى في الإسلام، ولا مقتصراً على الشيعة فقط، وإنما من خلال هذا الحديث والآيات، يتبين لنا بأن أدلة الكتاب والسنة تأخذ بأعناق القوم، لإقامة مجالس العزاء في وفاة الزهراء وفي أيام الفاطمية، فطوبى لمن أقام العزاء عليها، وشارك في الحزن والطم والبكاء ، وويل لمن أهمل ذلك، ولم يشارك في إحياء هذه الذكرى المفجعة المصبوغة بلون الحسرات والزفرات، كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام في ذلك:

نفسى على حسراتها محبوسة يا ليتها خرجت مع الزفرات
لا خير بعدك في الحياة وإنما أبكي مخافة أن تطول حياتي
ويقول :

أرى علل الدنيا علي كثيرة وصاحبها حتى الممات عليل
وإن افتقادي فاطماً بعد أحمد دليل على ألا يدوم خليل
ومن هنا أود أن أقول لكم كلمة سمعتها من أحد الفقهاء الكبار، وأنقلها لكم بتصرف :

أن علياً عليه السلام هو من عرفتموه ، وهو الذي يقول: والله لو تظاهرت العرب على قتالي ما وليت عنها ...

وهو الذي خاض أكثر من ثمانين حرباً وانتصر فيها كلها، بل أن أحداً لا يجرو أن ينازل علياً في الحرب، فما قابله أحد في ساحة

المعركة، إلا وأعانه على نفسه، لأنه إذا أمسك بالرجل أمسك بنفسه، وضرباته وتراً لا شفع فيها، أي أنه لا يثني الضربة أبداً، وإنما هي ضربة واحدة تقتلع الأبطال وتهز الجبال، فإذا العمالة يتهاوون أقزاماً تحت بريق سيفه، فهو قانع باب خيبر الذي تعجز العصابة أولوا القوة من الرجال على زحزحة الباب فضلاً عن فتحه وحمله، وأمير المؤمنين عليه السلام هو قانع باب خيبر وذاك حصون اليهود على رؤوسهم حصناً .. حصناً، حتى قال الله عز وجل في ذلك:

﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ..﴾ (١)

والرعب إنما حل في قلوبهم بفعل الإمام علي عليه السلام، يقتحم حصونهم الواحد تلو الآخر، ويدكُّ معاقلهم بسيف ذي الفقار الذي ما أشار به إلى أحد من أعداء الله إلا وأطار رأسه في الهواء، ونثر حشاشته على البسيطة بعدما سقى الأرض بدمائهم .

أقول :

هذا هو الإمام علي أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام ، وهذه شجاعته التي لا توصف، وذلك علمه الذي لا يحد بحدٍّ كما يقول القرآن الكريم :

﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ..﴾ (٢)

(١) الحشر/٢.

(٢) الرعد/٤٣.



على أن كل قوة في الوجود ، جعلها الله في علي عليه السلام ، لأنه هو الإمام الذي قال عنه الحق :

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ (١).

أقول : هذا الإمام العظيم، الذي تهتز القلوب وتخضع الجبال عند ذكر اسمه، كان جالساً في مسجد النبي ﷺ، حين أقبل الحسنان عليهما السلام وهما يبيكان إلى المسجد، لنقل خبر وفاة أمهما فاطمة عليها السلام، فما كاد أن يسمع بالخبر حتى قام ثم وقع على الأرض مغمى عليه، فجاءوا إليه بشيء من الماء فنتشروه على وجهه، فقام الإمام علي عليه السلام، ومشى إلى بيت فاطمة عليها السلام، فما إن جلس عند رأسها، حتى رأى ورقة مكتوبة بخط يدها كانت قد وضعتها تحت الوسادة، فأخذها أمير المؤمنين، وأقبل على قراءتها، وإذا بها تقول :

(أبا الحسن جهزني وكفني وصل علي في الليل إذا هدأت الأصوات ونامت العيون، وعف موضع قبري، وتعهد قبري بتلاوة القرآن فإن الميت يأنس بتلاوة القرآن إذا قرئ على قبره)، ثم راحت توصيه بأولادها، زينب وأم كلثوم والحسن والحسين، ألا تصح في وجهيهما، فإنهما سيصبحان يتيمين منكسرين، بالأمس فقدما جدهما رسول الله ﷺ، واليوم يفقدان أمهما فاطمة عليها السلام .

وبالفعل فقد طبق أمير المؤمنين وصيتها بحذاقها، ولم يدع منها حرفاً واحداً، وبعد أن نفض يديه من دفنها، هاجت به الأحزان فأرسل عبراته ودموعه، وارتفع صوته بالبكاء موجهاً خطابه إلى رسول الله ﷺ، بقوله :

(١) يس / ١٢ .

(السلام عليك يا رسول الله عني، وعن ابنتك النازلة في جوارك
والسريرة اللحاق بك، قل يا رسول الله عن صفيتك صبري، ورق عنها
تجلدي، ألا أن في التأسى لي بعظيم فرقتك، وفادح مصيبتك، موضع
تعز، فلقد وسدتك في ملحودة قبرك، وفاضت بين نحري وصدري
نفسك " إنا لله وإنا إليه راجعون"، فلقد استرجعت الوديعة، وأخذت
الرهينة، أما حزني فسرمد، وأما ليلي فمُسهد، إلى أن يختار الله لي
دارك التي أنت بها مقيم، وستنبئك ابنتك بتضافر أمتك على هضمها،
فأحفها السؤال واستخبرها الحال، هذا ولم يطل العهد، ولم يحل منك
الذكر، والسلام عليكما سلام مودع لا قال ولا سئم، فإن أنصرف فلا عن
ملالة، وإن أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين).^(١)

على أن في كلمة: (فأحفها السؤال، واستخبرها الحال..)، دليلاً على
أن الزهراء عليها السلام، ليس فقط أنها لم تخبر أمير المؤمنين عليه السلام، بما
جرى عليها من المصائب والمحن واللواعج، والأشجان، ولكن أيضاً أنها
لا تريد أن تخبر حتى أبيها رسول الله ﷺ، بما جرى عليها من ألوان
المصائب وما وقع عليها من الظلم والجور، لذلك يقول الإمام علي عليه السلام
في خطابه للرسول الأعظم ﷺ :

(فأحفها السؤال، واستخبرها الحال..).

هذا وقد وردت نصوص أخرى تفيد بأن أمير المؤمنين، خاطب
النبي ﷺ بقوله :

(١) نهج البلاغة رقم كلامه ٢٠٢ ص ٣١٩ / طبعة صبحي الصالح.



(فكم من معتلج في صدرها ، لم تجد إلى بثه سبيلاً...)، ثم يواصل في خطابه فيقول :

(ولولا استيلاء المستولين - ما معناه ومضمونه - لجعلت المقام على قبرها إلى أن يحكم الله لي، ولأعولت إعوال الثكلى على قبرها - هذا مضمون الخطاب وليس النص) .

من كل ذلك نخرج بحصيلة مفادها: أن فاطمة عليها السلام، قد وقع عليها من الظلم والجور والاضطهاد، ما لم يقع مثله ولا بعضه على أي شخص في العالم، فهي المرأة الوحيدة التي كانت مهددة بحرق بيتها عليها وعلى أولادها وبعلمها من قبل المنافقين والأعداء .

فاطمة عليها السلام أصدق الناس لهجة

* روي بسنده عن عائشة إنها كانت إذا ذكرت فاطمة سلام الله عليها بنت النبي ﷺ قالت :

«ما رأيت أحداً كان أصدق لهجة منها إلا أن يكون الذي ولدها،» (١)

* روي بسنده عن عمرو بن دينار، قال: قالت عائشة :

«ما رأيت أحداً قط أصدق من فاطمة - سلام الله عليها - غير أبيها،
(الحديث).» (٢)

(١) مستدرك الصحيحين (١٦٠/٣)، قال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم،
(أقول): ورواه بن عبد البر أيضاً في استيعابه (٧٥١/٢) .
(٢) حلية الأولياء (٤١/٢) .

"إن ولد فاطمة أنا أبوهم وعصبتهم"

* روي بسنده عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : لكل بني أم عصة ينتمون إليهم إلا ابني فاطمة وعصبتهما. (١)

* روي بطريقين عن فاطمة بنت الحسين عليه السلام عن فاطمة الزهراء يعني بنت النبي ﷺ ، قالت : قال رسول الله ﷺ : كل بني آدم ينتمون إلى عصبتهم إلا ولد فاطمة فإني أنا أبوهم وأنا عصبتهم. (٢)

* ذكر أحاديث ثلاثة (أولها) : لكل بني أنثى عصة ينتمون إليها إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وعصبتهم، (ثانيها) : كل بني أم ينتمون إلى عصة إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وأنا عصبتهم، (ثالثهما) : كل بني أنثى فإن عصبتهم لأبيهم ما خلا ولد فاطمة فإني أنا عصبتهم وأنا أبوهم، (أخرجه الطبراني عن عمر). (٣)

* ولفظه : «إن لكل بني أب عصة ينتمون إليها إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وأنا عصبتهم، وهم خلقوا من طينتي ويل للمكذبين بفضالهم، من أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله». (٤)

(١) مستدرک الصحيحین (٣ / ١٦٤) ، قال : هذا حديث صحيح الإسناد .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (١١ / ٢٨٥) .

(٣) كنز العمال (٦ / ٢٢٠) ، أخرجه الطبراني عن فاطمة الزهراء عليها السلام .

(٤) كنز العمال (٦ / ٢١٦) .



* قال : عن فاطمة الكبرى قالت : قال رسول الله ﷺ : «كل بني أم
ينتمون إلى عصبه إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وأنا عصبتهم». (١)

* قال: عن عمر: قال: قال رسول الله ﷺ : «كل ولد أب فإن عصبتهم
لأبيهم ما خلا ولد فاطمة فإني أنا أبوهم وعصبتهم». (٢)

(١) الهيثمى في مجمعه (٩ / ١٧٢) .

(٢) ذخائر العقبى (ص ١٢١) .

فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني

* في باب مناقب قرابة رسول الله ﷺ، ومنقبة فاطمة رضي الله عنها، روي بسنده عن المسور بن مخرمة أن رسول الله ﷺ قال : «فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني»^(١).

* وذكره المناوي وقال : استدل به السهيلي : «على أن من سبها فقد كفر لأنه يغضبه، وأنها أفضل من الشيخين» .^(٢)

* في باب ذب الرجل عن ابنته روى حديثاً عن المسور بن مخرمة قال فيه : إنه قال - أي النبي ﷺ : «فإنما هي فاطمة بضعة مني يرييني ما أرابها ويؤذييني ما آذاها»^(٣).

* في باب فضائل فاطمة رضي الله عنها، روي بسنده عن المسور بن مخرمة، قال: قال رسول الله ﷺ : «إنما فاطمة بضعة مني يؤذييني ما آذاها»^(٤).

(١) صحيح البخاري في كتاب بدء الخلق ، (أقول) وذكره المتقي أيضا في كنز العمال (٢٢٠/٦)، وقال: أخرجه ابن أبي شيبة .

(٢) فيض القدير (٤ / ٤٢١)، ورواه النسائي في خصائصه .

(٣) صحيح البخاري في كتاب النكاح، أقول: ورواه أبو داود في صحيحه (ج١٢) في باب ما يكره أن يجمع بينهن من النساء، ورواه أحمد بن حنبل في مسنده (٣٢٨/٤)، وأبو نعيم في حليته (٤٠/٢) .

(٤) صحيح مسلم في كتاب فضائل الصحابة .



* هذا وذكره الفخر الرازي أيضاً في تفسير آية المودة في سورة الشورى، وقال: "يؤذني ما يؤذيها"، وذكره في سورة المعارج أيضاً في تفسير قوله تعالى: (وفصيلته التي تؤيه)، ولفظه: "فاطمة بضعة مني".

* روي بسنده عن المسور بن مخرمة حديثاً عن النبي ﷺ، قال فيه: «فإنما ابنتي يعني فاطمة عليها السلام بضعة مني يربيني ما أربها ويؤذيني ما آذاها»^(١).

* روي بسنده عن عبدالله بن الزبير حديثاً عن رسول الله ﷺ، قال فيه: «إنما فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها وينصبني ما أنصبها»^(٢).

* روي بسنده عن عبيدالله بن أبي رافع عن المسور أنه بعث إليه حسن بن حسن عليه السلام يخطب ابنته، فقال له: فليقني في العتمة: قال: فلقية، فحمد الله المسور وأثنى عليه ثم قال: أما بعد أيم الله ما من نسب ولا نسب ولا سبب ولا صهر أحب إلي من نسبكم وسببكم وصهركم، ولكن رسول الله ﷺ قال: «فاطمة بضعة مني يقبضني ما يقبضها ويبسطني ما يبسطها»، وأن الأنساب يوم القيامة تنقطع غير نسبي وصهري وعندك ابنتها ولو زوجتك لقبضها ذلك فانطلق عاذراً له، قال: حديث صحيح الإسناد^(٣).

-
- (١) صحيح مسلم في الباب المتقدم، ورواه الترمذي (٣١٩/٢)، في فضل فاطمة (ع).
(٢) صحيح الترمذي (٣١٩/٢)، ورواه الحاكم في مستدرك الصحيحين (١٥٩/٣): وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ورواه أحمد بن أحمد في مسنده (٥/٤).
(٣) مستدرك الصحيحين (١٥٨/٣) ورواه أحمد بن حنبل في مسنده (٢٢٣/٤ و ٢٢٢) بطريقتين مختلفتين ورواه البيهقي في سننه (٦٤/٧) مختصراً ورواه أبونعيم مختصراً وقال: هذا حديث متفق عليه من حديث علي بن الحسين وابن أبي مليكة عن المسور بن مخرمة.

* روى بسنده عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: ما خير للنساء؟ فلم ندر ما نقول، فسار علي عليه السلام إلى فاطمة سلام الله عليها، فأخبرها بذلك فقالت: فهلا قلت له: خير لهن أن لا يرين الرجال ولا يرونهن، فرجع فأخبره بذلك، فقال له: من علمك هذا؟ قال: فاطمة، قال: «إنها بضعة مني»^(١).

* قال: «إنما فاطمة شجنة مني يبسطني ما يبسطها ويقبضني ما يقبضها»^(٢).

* قال: عن الحسن البصري قال: قال علي بن أبي طالب عليه السلام: قال لنا رسول الله ﷺ، ذات يوم: أي شيء خير للمرأة فلم يكن عندنا لذلك جواب، فلما رجعت إلى فاطمة عليها السلام قلت: يا بنت محمد إن رسول الله ﷺ سألنا عن مسألة فلم ندر كيف نجيبه، فقالت: وعن أي شيء سألكم؟ فقلت: قال: أي شيء خير للمرأة؟ قالت: فما تدرون ما الجواب؟ قلت لها: لا فقالت: ليس خير للمرأة من أن لا ترى رجالاً ولا يراها، فلما كان العشي جلسنا على رسول الله ﷺ، فقلت له: يا رسول إنك سألتنا عن مسألة فلم نجبك فيها، ليس للمرأة شيء خير من أن لا ترى رجالاً ولا يراها، قال: ومن قال ذلك؟ قلت: فاطمة، قال: صدقت إنها بضعة مني»^(٣).

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٤٠/٢)، ورواه سعيد بن المسيب عن علي عليه السلام نحوه، ورواه في (١٧٤/٢) عن سعيد بن المسيب عن علي بن أبي طالب عليه السلام مثله.

(٢) كنز العمال (٢١٩/٦)، (أقول): ورواه الحاكم في مستدرك الصحيحين (١٥٤/٣) عن المسور بن مخرمة عن رسول الله ﷺ، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد.

(٣) كنز العمال (٣١٥/٨) ورواه في الصفحة المذكور ثانياً عن علي عليه السلام، وقال: ورواه الدارقطني في الأفراد، وقال: أخرجه البزار وأبو نعيم في حليته.

* روى بسنده عن المسور بن مخرمة قال: سمعت رسول الله ﷺ، يخطب على منبره هذا وأنا يومئذ محتلم، فقال: «فاطمة بضعة مني». (١)

* قال: ودخل عبدالله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط على عمر بن عبدالعزيز، وهو حديث السن وله وفرة، فرفع عمر مجلسه، وأقبل عليه فلام قومه، فقال: إن الثقة حدثني حتى كأنه سمعه من في رسول الله ﷺ: «إنما فاطمة بضعة مني، يسرني ما يسرها، وأنا أعلم أن فاطمة عليها السلام لو كانت حية لسرها ما فعلت بابنها». (٢)

* قال: فقالت - يعني فاطمة عليها السلام - لأبي بكر وعمر: رأيتهما إن حدثتكما حديثاً عن رسول الله ﷺ، تعرفانه وتعلان به؟ قالوا: نعم، فقالت: نشدتكما بالله ألم تسمعا رسول الله ﷺ، يقول: رضا فاطمة من رضاي، وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحب فاطمة ابنتي فقد أحبني، ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني؟ قالوا: نعم سمعناها من رسول الله ﷺ، قالت: فإني أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتماني وما أرضيتماني، ولئن لقيت النبي ﷺ، لأشكونكما إليه فقال أبو بكر: أنا عائد بالله تعالى من سخطه، وسخطك يا فاطمة، ثم انتحب أبو بكر يبكي حتى كادت نفسه أن تزهد وهي تقول: والله لأدعون الله عليك في كل صلاة أصليها، ثم خرج - يعني أبا بكر - فاجتمع إليه الناس، فقال لهم: يبيت كل رجل منكم معانقاً حليته مسروراً بأهله وتركتموني وما أنا فيه لا حاجة لي في بيعتكم، أقيلوني بيعتي.. الخ. (٣)

(١) خصائص النساء ص ٣٦

(٢) الصواعق المحرقة لابن حجر (ص ١٠٧)، أقول: وذكره في (١٣٨) أيضاً باختلاف يسير، وقال: أخرجه أبو الفرج الأصبهاني.

(٣) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ص (١٤)، تحت عنوان كيف كانت بيعة علي بن أبي طالب.



قلادة في عنق

فاطمة
الطحاوي

قلادة في عنق فاطمة عليها السلام

عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه قال: رأى النبي ﷺ فاطمة وعليها كساء من أجلّة الإبل وهي تطحن بيديها وترضع ولدها، فدمعت عينا رسول الله ﷺ فقال: يا بنتاه تعجلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة، فقالت: يا رسول الله الحمد لله على نعمائه، والشكر لله على آلائه فأنزل الله:

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾. (١)

وكان النبي ﷺ يبدأ في سفره بفاطمة ويختم بها، فجعلت وقتاً سترأ من كساء خيبرية لقدم أبيها وزوجها فلما رآه النبي ﷺ تجاوز عنها وقد عُرف الغضب في وجهه حتى جلس عند المنبر فنزعت قلادتها وقرطبيها ومسكتيها ونزعت الستر فبعثت به إلى أبيها وقالت: اجعل هذا في سبيل الله فلما أتاه قال ﷺ قد فعلت فداها أبوها ثلاث مرات ما لآل محمد وللدنيا فإنهم خلقوا للآخرة وخلقوا الدنيا لهم.

وعن علي عليه السلام أن النبي ﷺ دخل على ابنته فاطمة فإذا في عنقها قلادة، فأعرض عنها، فقطعتها فرمت بها، فقال رسول الله: أنت مني يا فاطمة ثم جاءها سائل فتناولته القلادة.

ولتوضيح الصورة أود أن أذكر لكم أيها الأحبة رأياً طيباً في هذا المضمرة، لأن كثير من الروايات تصور النبي ﷺ يوم دخل على فاطمة

(١) الضحى/ ٥.



عليها السلام، راجعاً من سفره، فرأى عليها قلادة فأعرض عنها، ثم خرج وآثار الغضب ظاهرة على وجهه الشريف، ثم الزهراء قطعت القلادة وأرسلتها إلى النبي ﷺ فقال: فعلتها فداها أبوها - ثلاثاً - ..

وهنا يجب أن نتوقف قليلاً عند هذا الحديث، ففاطمة يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها، فمستحيل أن يغضب الرسول عليها لأن قلادة كانت على جيدها، أبداً، وإنما المسألة وما فيها هي عند دخول النبي إلى بيت فاطمة رآها تبكي والغضب على وجهها، وحين سألها عن سبب البكاء أخبرته بأن عائشة ذكرت أمها خديجة ونالت منها، أي أن عائشة رفعت صوتها على فاطمة شاتمة أمها خديجة هذا هو المعنى الذي يذكره أهل البيت (عليهم السلام) .. فما كان من النبي ﷺ إلا أن غضب حتى اهتز شعر رأسه الشريف، على أن ذلك ليس بمستبعد ولا غرابة فيه، لأن عائشة معروفة بهذا اللون من الخلق، فالقرآن يذكرها في سورة التحريم هي وحفصة بأنهما صفت قلوبهما أي مالت عن الحق كما هو معروف، والتي يزيغ قلبها عن الحق، ويميل عن موقع الإيمان ماذا تنتظر منها غير هذا، فهي التي كانت تثير المتاعب لرسول الله ﷺ كما في صريح القرآن وفي آيات محكمات يظهرن أن النبي قال لهن:

﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُدْلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثِيَّاتٍ وَأَبْكَارًا﴾. (١)

﴿إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُدْلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَنَّ﴾ وتكفي هذه العبارة ﴿خَيْرًا مِّنْكَنَّ﴾ أنهن لسن من خير النساء، هذا باستثناء خديجة لأنها لم تكن

(١) التحريم/٥.

حية يوم نزول هذه الآيات فليس الخطاب موجهاً لخديجة سلام الله عليها لأنها صديقة طاهرة وهي من خيرات النساء اللواتي بلغن درجة الكمال مثل مريم وآسية وكلثم وسارة، أما فاطمة فإنها سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين.

فموضع الشاهد أن الذي يقرأ تاريخ عائشة وما صنعت بالنبي وما ظهر منها من شماتة تفوح رائحتها يوم وفاة الزهراء عليها السلام حيث أظهرت عائشة فرحاً وسروراً لموت فاطمة وحين رأت النعش الذي جرى صنعه لها، استهزأت بالنعش وقالت كلمتها المعروفة: صنعوا لها هودجاً كهودج العروس .. وهي ضاحكة مستبشرة عليها غبرة ترهقها قترة وذلة، بفعل الشماتة التي أظهرتها يوم وفاة الزهراء وبفعل الفرح الذي طفق على عائشة كما يقول عمر كحالة صاحب كتاب أعلام النساء في ترجمة الزهراء عليها السلام، وهو من علماء مصر وكبار الفقهاء والكتاب، يذكر في كتابه هذا فرح عائشة وسرورها بموت ولموت فاطمة حتى ابلغ عليٌّ بذلك وقامت نساء النبي بمنع عائشة من دخول دار فاطمة لهذا السبب وهذا الغرض.

على أن موقف عائشة من علي كان أشهر من النار على علم، وأوضح من عدم سجود إبليس لأدم، فها هي تجيش الجيوش وتقود الجنود ضد الإمام علي عليه السلام وهو إمام زمانها بنص الوحي الإلهي، ونص بيعة الناس له بعد مقتل عثمان بن عفان، فهو الإمام والخليفة شرعاً وعرفاً، وفق اختيار الله له، واختيار الناس كذلك ولكن عائشة بنت أبي بكر قادت جيشاً جراراً قوامه أكثر من ثلاثين ألفاً من الرجال والأعراب والمنافقين الذين هم أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، لأنهم لم يلجئوا إلى ركن



وثيق ولم يستضيئوا بنور العلم والهدى .. علماً بأن الرسول ﷺ كان قد حذرهما من مغبة الخروج ضد الإمام علي عليه السلام في حديث الحوَاب الذي ينقله المسلمون كافة، حيث وجّه النبي خطابه لبعض أزواجه وكانت عائشة واحدة منهن، فقال: أيتكن صاحب الجمل الأذنب، تنبّحها كلاب الحوَاب، فتزل قدمها على الصراط يوم تخف عليه الأقدام .. وحذرهما أكثر من مرة ألا تخرج ضد أمير المؤمنين علي عليه السلام، كما حذرتها أم سلمة وقالت لها: أن الله يأمرك أن تكوني جليسة بيتك إذ يقول: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ ...

فالأفضل للمرأة - أية امرأة - والوضع الأمثل لها، أن تكون ربة بيت تدير أسرة وعائلة شأنها في ذلك شأن الأنبياء، وكأن وظيفة المرأة هي وظيفة الأنبياء والرسل .. المهم قال لها النبي ذلك وحذرهما ولكنها ركبت رأسها، وركبت ذلكم الجمل الأبتَر الأذنب المشؤوم الذي حذرهما النبي من الركوب عليه ومن الاقتراب منه لأنه جمل يشتمل على الفتنة الهوجاء، والنائرة العمياء، غير أنها ركبت وسارت والجيوش تقودها إلى محاربة علي أمير المؤمنين عليه السلام الإمام العادل والخليفة الصادق الراشد صلوات الله وسلامه عليه، وما أن انتهت الحرب بعد أن كثر القتل تحت هودج عائشة وبغيرها - حتى أرجعها الإمام علي إلى المدينة مع أربعين يحرسونها وقال لها: ما أنصفك الذين أخرجوك إذ صانوا حلائلهم وأبرزوك، كما أرسل معها أخاها محمد بن أبي بكر وهو من حوارِي الإمام علي أمير المؤمنين لأنه كان في غاية الصفاء ومنتهى الصدق ... على أن عائشة اكتشفت لما وصلت إلى المدينة أن الأربعين الذين يحرسونها إنما هم نساء في زي الرجال، ومعنى ذلك أن الإمام

أمير المؤمنين عليه السلام لم يرضى لها أن ترجع مع الرجال وإنما أرجعها مع نساء مثلها للحفاظ عليها .

أقول: هذا كله محفوظ في التاريخ الصحيح، وإليكم عني لا تقولوا حدثنا بما لاقاه الإمام الحسن عليه السلام من كره وعداوة منها بلغت حداً أنها أمرت سفهاء الأمويين ومعهم مروان بن الحكم وأشياعه، أن يرموا جنازة الحسن بالسهام، فجاءت السهام كرشق المطر وشكت نعشه حتى اخترق بعضها النعش ووصل إلى بدن الإمام الحسن فشكه بحقد وبغض وعدوان، هذا بعد أن منعت الإمام الحسن من زيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله وذلك عندما أراد بنو هاشم وعلى رأسهم الإمام الحسين عليه السلام أن يجدد العهد لأخيه الحسن بزيارة قبر جده المصطفى، ولكن عائشة وقفت وكادت أن تقع فتنة في ذلك اليوم لا يعلم مداها إلا الله، لولا وصية الإمام الحسن عليه السلام لأخيه الإمام الحسين عليه السلام، يقول له فيها: أخي بحقي عليك لا تهرق بسببي ملء محجمة دماً .. وكان بنو هاشم يتفجرون غيضاً وغيضاً لما حصل من هتك حرمة الإمام الحسن سيد شباب أهل الجنة، وخصوصاً إذا نظرنا إلى موقف قمر العشيرة أبي الفضل العباس عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام فإننا نجده كان في قمة الغيظ والغضب وكانت يده على قائم سيفه ينتظر الإذن من أخيه وإمامه سيد شباب أهل الجنة الحسين عليه السلام، ووالله الذي لا إله غيره أن لو أذن الحسين لأبي الفضل بوضع السيف في الرقاب ذلك اليوم لما بقي منهم أحد لا والله، ولكن الأمر كما ترى هذا هو الإمام الحسين عليه السلام يقول لأخيه العباس عليه السلام أخي أبا الفضل اذكر وصية أخينا الإمام الحسن عليه السلام.



وهكذا رجعوا بنعشه إلى البقيع ودفنوه هناك في الحسرات والآهات والدموع، وهذا بعض ما سطرناه عن هذه المرأة التي آذت النبي - كما في سورة التحريم - ورفعت صوتها بوجه الحوراء الإنسية فاطمة، ونالت من أمها خديجة حيث شتمتها، ولعننها، يدل على ذلك أنها كانت تؤذي بعض نساء النبي مثل صفية بنت حي بن أخطب زوجة النبي ﷺ فتقول لها: يا يهودية يا بنت اليهودي.. فكانت صفية تشكو ذلك إلى النبي وتبث حزنها إليه فيقول النبي لصفية: إذا قالت لك ذلك فقولي لها: كيف تكون يهودية، من أبوها موسى بن عمران، وعمها هارون، وزوجها محمد ﷺ .

على كل حال أن الذي يقرأ حياة عائشة يجد سرعة انسياقها وراء عاطفتها وعدم مراعاتها لموازين الحق، على أن الذين صوروها في قضية الإفك وأن السماء تدافع عنها هؤلاء واهمون وخاطئون لأن أهل البيت يؤكدون أن مسألة الإفك كانت ضد مارية القبطية زوجة النبي وذلك حين اتهمتها عائشة بالخيانة وقالت للنبي في الملأ في المسجد وكانت هي وحفصة وأبوبكر وعمر قد دخلوا على النبي ﷺ في المسجد لتقول عائشة له: إن إبراهيم هذا ليس ولدك ولا هو منك وإنما هو من غلام مارية القبطية وكان معها غلام يخدمها وهو غلام محبوب أي لا يملك ما يملكه الرجال من آلة الرجولة، والقصة معروفة جداً لدى التاريخ الصحيح، فالله عز وجل، أنزل قرآناً في قصة الإفك يدافع فيه عن شرف النبي عن مارية أم إبراهيم وليس عن عائشة وهذه حقيقة يمكن معرفتها من إلقاء نظرة تحقيق في التاريخ لتظهر الحقائق، لأن الله لا يدافع عن امرأة تخرج لحرب وصي رسول الله الإمام الذي

أذهب الله عنه الرجس وطهره تطهيراً .. وهنا لا يمكن لأحد أن يقول:
أن علياً ليس مع الحق في حرب الجمل وأن عائشة مع الحق أبداً.

أنا أتحدى أي باحث ومحقق يعرف الإسلام تمام المعرفة أن يقول
هذا اللون من الكلام، خصوصاً إذا عرفنا أن الصراع لا يقع بين حقين
وإنما يقع دائماً بين الحق والباطل، ونحن نعرف أن الحق مع علي وعلي
مع الحق، بنص القرآن والسنة وأقول ليس في إمكان أحد أن يقول غير
ذلك وهو يزعم أنه مسلم ومؤمن، أبداً .. ليس في إمكانه إلا التسليم أن
الحق مع علي بن أبي طالب عليه السلام وأن الذين حاربوه هم أهل الباطل
وهم الناكثون الذين نكثوا ببيعة الحق، فهل يساعد ذلك أن الله يدافع
عن امرأة تعتبر هي رأس الناكثين لولاية وعهد الإمام علي عليه السلام،
هل يمكن أن ينزل قرآن من السماء يتلى آناء الليل وأطراف النهار
يدافع عن امرأة شنت الحروب على الحق، ولطخت يديها بالدماء وزلت
قدمها عن الصراط بشهادة أحاديث نبوية شريفة صحيحة كما تجدها
وتقرأها في صحيح البخاري ومسلم، وكما تقرأ حديث الرسول ﷺ
وهو يشير بيده إلى بيت عائشة ويقول: ها هنا الفتنة ها هنا الفتنة.

إذن: فليس من المنطق ولا من المعقول أن تكون قصة الإفك نزلت في
الدفاع عن عائشة، إضافة إلى أن الرواية المختلقة ترفض ذلك رفضاً
قاطعاً، خصوصاً عندما نسلط مزيداً من الضوء على القصة وكيف
بدأت أن عائشة كانت مع النبي في جيشه وهو خارج للحرب وهي في
هودجها وقد دلفت في الليل البهيم في الصحراء لقضاء حاجتها،
فأضاعت عقداً كان في عنقها، ولما رجعت إلى المحمل أدركت أن العقد
ليس معها، ولا في جيدها، فأسرعت تبحث عنه في الصحراء ثم أنها لما

رجعت إلى المكان الذي انطلقت منه، لم تجد أحداً هناك، حيث غادر الجيش المكان وسار النبي مع أصحابه دون أن يسأل عن زوجته عائشة أين هي، ورأت أن الهودج الذي كانت في داخله قد حملوه الصحابة وأجلسوه على ظهر البعير، دون أن يشعروا بأن صاحبة الهودج وهي عائشة لم تكن فيه، ودون أن يحسوا بوجودها، وفسروا هذا المطب الكبير الذي لا تقبله العقول، فسروه بأن عائشة كانت صغيرة السن، وكان جسمها نحيفاً فما كان أحد يميز ولا يفرق بين محمل خال من عائشة وآخر يحتوي عليها، وهل هذا التفسير مقبول يا أهل العقول، ثم لماذا يقع العقد من جيدها على الأرض؟ .. وكيف جاز للنبي أن يترك زوجته دون أن يسأل عنها ويتأكد من ركوبها في هودجها، وهو صاحب الغيرة والحمية والأريحية والشجاعة والبسالة؟ ثم ألم يكن هناك نساء مع عائشة في هذه الحرب؟ أم كانت وحدها؟ فإذا كان معها نساء فكيف غفلن عنها وهن معها يتحدثن ويأكلن ويشربن بعضهن مع بعض، وإن كانت عائشة وحدها وليس معها أية امرأة من نساء النبي ولا من بنات شيبة الحمد، ولا من نساء عمروالعلی، ولا من أزواج بني هاشم فإن ذلك يستدعي التركيز والاهتمام من النبي في أن يسأل عن عائشة وهل هي في الهودج أم لا؟

ثم أي غباء هذا الذي ينسب إلى أصحاب النبي وهم المعروفون بالفتنة والذكاء خصوصاً في مسألة القوافل والمحافل وركوب النساء فيها، فكيف جاز لهم أن يستعملوا الغباء هنا فلم يعد في إمكانهم أن يميزوا فيما إذا كانت المرأة في هذا المحمل، أم انه محمل فارغ وخال ليس فيه أحد؟ ..

والأدهى والأمر من ذلك إظهار النبي في صورة الرجل المنكسر الذي يحاول أن يعتذر من عائشة وهي لا تقبل عذره، وأبوها يقول لها: تقدمي واشكري النبي فتقول: لا والله ولا كرامة، لا أشكره أبداً إنما أشكر الله؟

وهل هذا صحيح، هل الذي يرفض شكر النبي يقبل الله شكره؟ هل هذا منطق؟

المهم سأتلو عليكم تأملاتي ونظراتي لهذه الحادثة التي أحزنت النبي وأثارت غضبه لأنها رمته بأعز ما عنده وهو مسألة العرض والشرف والسمعة، على أننا يمكن أن نستدل بمواقف عائشة من النبي والزهراء والوصي والحسن عليه السلام بأنها هي التي قادت هذه القضية مثلما قادت الجيوش والرجال ضد أمير المؤمنين علي صاحب الوصية ..

والآن أعود بكم إلى أصل الحديث وهو خروج النبي من عند فاطمة وعليه آثار الغضب فإن ذلكم الغضب كان بفعل عائشة لأنها ذكرت خديجة فنالت منها ورفعت صوتها على فاطمة فكانت فاطمة غاضبة يوم دخل النبي بيتها وإذا غضبت فاطمة فإن الله يغضب لغضبها، وكذلك الرسول بل ان مائة وأربعة وعشرين ألف نبي يغضبون لغضبها لأنها مع الحق وهم يغضبون للحق ضد الباطل، بل ان الكون كله بما فيه عالم الملك وعالم الملكوت يغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها، هذا ونحن نقرأ حديثاً عن رسول الله ﷺ يقول فيه:

إن الله ليغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها، وهذا الحديث مروي عن الإمام أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليهما السلام.

وحديث آخر ورد بنفس الإسناد يقول فيه:

إن فاطمة شجنة مني يسخطني ما أسخطها ويرضيني ما أرضاها
وفي لفظ آخر ورد نفس الحديث:

إن فاطمة شجنة مني يقبضني ما يقبضها، ويبسطني ما
يبسطها. (١)

على أن اختيار هذا اللفظ بالذات يقبضني ما يقبضها، ليدل على أن
كل شيء في الوجود يبكي لبكاء فاطمة ويحزن لحزنها، فقد وردت
بذلك أخبار صحيحة تؤكد هذا المعنى واقرؤا معي إذا شئتم الحديث
التالي: قال علي أمير المؤمنين عليه السلام: ولقد رأيت بكاءً منها - أي من
فاطمة يوم وفاة أبيها رسول الله ﷺ - احسب أن السموات والأرضين قد
بكت لها، ثم قال لها: يا بنية، الله خليفتي عليكم وهو خير خليفة،
والذي بعثني بالحق لقد بكى لبكائك عرش الله وما حوله من الملائكة،
والسموات والأرضون وما فيهما، يا فاطمة والذي بعثني بالحق، لقد
حرمت الجنة على الخلائق حتى أدخلها وإنك لأول الخلق يدخلها .. (٢)

على أن هنالك حديث يرويه المسلمون كافة يؤكد فيه النبي ﷺ: إن
أول شخص يدخل الجنة، هو فاطمة بنت محمد - صلى الله عليها
وعلى أبيها وبعليها وبنيتها والسر المستودع فيها - . لذلك كتبت هذا
الحديث إلى قوله: «وانك لأول من يدخلها» ولم أكمله ليكون عندي
متسع من الوقت حتى أناقش أدلة هذا الحديث وهو حديث صحيح
رواه أهل البيت عليهم السلام بطرقهم الخاصة .

(١) إقرأوا للمزيد من المعرفة البحار ج ٤٣/٥٤ .

(٢) بحار الأنوار ج ٢٢/٤٩٠ .



إذن: فغضب النبي ﷺ عند خروجه من بيت الزهراء عليها السلام ليس بفعل القلادة التي كانت في عنقها، ولكن بفعل الغضب الذي رآه على وجه فاطمة ودموعها تجري على وجهها لأن عائشة نالت من أمها خديجة الكبرى أم المؤمنين صلوات الله وسلامه عليها.. ومثل هذا مثل الحديث الذي يبين أن هناك مشادة في الكلام والقول وقعت بين علي وفاطمة ودخل الرسول يصلح بينهما، وهذا هو الكذب بعينه والافتراء بذاته، فقد قال النبي ﷺ: أن الكذابين سيكثرون من بعدي - ثم أمر الأمة الإسلامية أن تجعل القرآن ميزاناً لحديث النبي ﷺ .

إذن: فالحديث هذا محض اختلاق وهو من الأحاديث المفتعلة والقصص المختلقة التي كان يفوز في بطولتها أبو هريرة وكعب الأحبار وأمثال هؤلاء من مراسلي الشجرة الملعونة، من بني أمية، حيث كانوا يتقربون إليهم بهذا وأمثاله، وإلا فالإمام علي هو الحق، وفاطمة هي الحق وهل يقع صراع بين حق وحق؟ وهل يقع نزاع بين نور ونور؟ كلا والله ثم كلا ..

ولدفع هذه التهم وإبعاد هذه الافتراءات قال الإمام علي عليه السلام في حق فاطمة عليها السلام: والله ما أغضبتني ولا أغضبته ولا أكرهتني ولا أكرهتها على أمر، ثم يقول ولا عصت لي أمراً - وذلك أنها معصومة، وهو معصوم فلا تضارب ولا تنافر ولا تضاد بين أمرها وأمره، لذلك يضيف قائلاً: وكنت إذا نظرت إلى فاطمة انجلت عني الهموم والأحزان.. هذا بالإضافة إلى أنها يوم وفاتها قالت للإمام علي عليه السلام: أبا الحسن ما عهدتني كاذبة ولا خائنة ولا خالفتك منذ عاشرتني، قال: معاذ الله أنت أبر وأعلم وأتقى وأشد خوفاً من الله من أن أوبخك

بمخالفتي وقد عز عليّ فقدك ومفارقتك إلا انه أمر لا بد منه، والله
لقد جددت عليّ مصيبة رسول الله ﷺ وعظمت عليّ وفاتك وفقدك،
فانا لله وإنا إليه راجعون، من مصيبة ما أعظمها وآلمها وأحزنها .

ثم أخذ رأسها ووضعها في حجره، وبكى جميعاً ساعة .

واقروا معي إذا شئتم هذا الحديث الذي يؤكد هذه الفكرة التي نحن
بصددها .

على انه حديث يدل على عصمة فاطمة عليها السلام لأنها لو كانت ممن
تقارف الذنوب - كما يقول البعض - لم يكن مؤذيتها مؤذياً للنبي ﷺ
على كل حال، بل من فعل المستحق من ذمها وإقامة الحد، ان كان الفعل
يقتضيه، ساراً له ومطيعاً له .

ومعنى ذلك ان النبي عندما يقول: (فاطمة بضعة مني يؤذيني ما
يؤذيها...) فان ذلك يدل دلالة واضحة على عصمتها لأنها لو كانت
تقارف الخطأ لما كان الرسول يؤذيه ما يؤذيها، لان صاحب الخطأ ينال
جزاءه، وتعالى الله علواً كبيراً أن يجعل فاطمة غير معصومة تتعاطى
الذنوب مثل سائر الناس .

أقول: تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ان فاطمة عليها السلام أشارت إلى
هذه الحقيقة في أول خطابها التاريخي العظيم، وذلك حين قالت:

أيها الناس اعلموا اني فاطمة وأبي محمد ﷺ، أقول حقاً عوداً
وبدواً، ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً، لقد جاءكم
رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف
رحيم .

فهي لا تقول غير الحق، ولا تعمل غير العدل، لأن الله جعل كلمته التامة في فاطمة وجعلها الحجة البالغة ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته﴾. (١)

وبمزيد من تسليط الضوء على هذه الفقرة التي تبين فيها عصمتها عليها الصلاة والسلام، تظهر لنا حقائق كثيرة لا مجال هنا لذكرها، وانما نتركها لموضعها من هذا الكتاب انشاء الله تعالى، ولكن ذلك لا يمنع من الإشارة الى نقطة بالغة الأهمية في هذه القضية وهي أن الزهراء سلام الله عليها قبل أن تعلن عن نفسها أنها فاطمة وتطالب الناس بالتعلم والتفقه لمعرفة حقها ومنزلتها، قالت:

فاتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون، فانه انما يخشى الله من عباده العلماء.

وكأنها بهذا تريد أن ترفع الحجب وتكسر القيود والأغلال، وتزيل الموانع التي تمنع الناس من رؤية الحق، وذلك بذكر التقوى والعلم والخشوع المصاحب لذلك العلم، كما قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ﴾. (٢)

وبالمثل: فان الله عندما أراد من موسى أن يذكر قومه بأيام الله أمره أولاً أن يخرجهم من الظلمات إلى النور، ثم بعد ذلك يذكرهم بأيام الله لأن أجواء الموضوع انما هي في عالم النور، لا في الظلمات، ففي النور يمشي المؤمن في الناس، حتى يكون غيره ميتاً في الناس كأنه قبر

(١) الأنعام/١١٥.

(٢) البقرة/٢٨٢.



يمشي على قدميه : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي
النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ ... ﴾ . (١)

ومن هذا المنطلق، أرادت الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء سلام
الله عليها أن تخرج الناس من ظلمات الكفر والشرك والجهل والظلم
والشك، إلى نور اليقين والإيمان والحق والصدق والعدل، ثم تذكّرهم
ليس بأيام الله فقط وإنما تذكّرهم بأنها هي فاطمة وما أدراك ما
فاطمة، حيث قالت: أيها الناس اعلموا أني فاطمة وأبي محمد ﷺ،

لأن معرفة فاطمة تحتاج إلى دراسة وعلم، لذلك قالت: (اعلموا أني
فاطمة) إذ ليست في إمكان أحد أن يعرفها حق معرفتها، وإذا كان
هناك من يتمكن من معرفة فاطمة، ويعرف حقها فانه يكون بذلك قد
أدرك ليلة القدر، وعرف أن الليلة فاطمة والقدر هو الله عز وجل،
وهذا منتهى التكريم وغاية العظمة في معرفة الصديقة الطاهرة
فاطمة الزهراء الطيّبة.

على اننا نعرف أن طرق المعرفة بعدد أنفاس الخلائق فهذا نعرفه من
كلامه، وذلك من ملامح وجهه:

تكلّموا تعرفوا - يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام - فان المرء مخبوء
تحت لسانه . ويقول: ما أضمر ابن آدم شيئاً إلا وظهر على فلتات لسانه
وصفحات وجهه .

ولذلك نجد بعض الكلمات تموت على الشفاء لأول وهلة فهي لا
تستحق الذكر، في حين ان هناك كلمات تظل قوية متوهجة مادام

(١) الأنعام/١٢٢.

قائلها على قيد الحياة فإذا مات ماتت كلماته معه، وقسم من الكلام يظل طوال الدهر قوياً متألقاً فاعلاً، ومؤثراً في القلوب والنفوس والأرواح، وهذا هو كلام الأنبياء والأئمة عليهم السلام لأنه مستمد من كلمات الله وأسماءه، وكلام الله عز وجل فوق كل كلام وأسماءه فوق الأسماء .

إذن: ففاطمة عليها السلام حين تقول: اعلّموا أني فاطمة، فأنها تريد أن تقول ان معرفة شخصيتي ومنزلتي وحقي تحتاج إلى علم العلماء وتفقه الفقهاء، بالإضافة إلى التقوى التي تطهر القلوب من أمراض الشرك والشك والجهل، ومن هنا فانه ليس في إمكان كل أحد ان يعرف فاطمة عليها السلام، لذلك اقتصرت معرفتها على الخواص من الناس وعلى الفقهاء من الشيعة، وقبل ذلك اقتصرت معرفتها على أبيها وبعليها وبنيتها روعي فداء لهم جميعاً، صلى الله على محمد وأهل بيته الطيبين الطاهرين .

إذن: فاقروا معي إذا شئتم هذه الأحاديث التي وردت في هذا المضمار:

١- وبالإسناد المقدم ، عن موسى بن جعفر عن أبيه عليه السلام قال : لما كانت الليلة التي قبض النبي ﷺ في صبيحتها دعا عليا وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وأغلق عليه وعليهم الباب وقال: يا فاطمة، وأدناها منه، ففاجأها من الليل طويلاً، فلما طال ذلك خرج علي ومعه الحسن والحسين وأقاموا بالباب والناس خلف الباب، ونساء النبي ﷺ ينظرن إلى علي عليه السلام ومعه ابناه، فقالت عائشة: لأمر ما أخرجك منه رسول الله ﷺ وخلا بابنته دونك في هذه الساعة، فقال لها علي عليه السلام: قد عرفت الذي خلأها وأرادها له، وهو بعض ما كنت فيه وأبوك وصاحباه مما قد سماه: فوجمت أن ترد عليه كلمة، قال علي عليه السلام: فما



لبث أن نادتي فاطمة عليها السلام فدخلت على النبي ﷺ وهو يجود بنفسه، فبكيت ولم أملك نفسي حين رأيته بتلك الحال يجود بنفسه، فقال لي: ما يبكيك يا علي؟ ليس هذا أوان البكاء، فقد حان الفراق بيني وبينك، فأستودعك الله يا أخي، فقد اختار لي ربي ما عنده، وإنما بكائي وغمي وحزني عليك وعلى هذه أن تضيع بعدي فقد أجمع القوم على ظلمكم، وقد أستودعكم الله، وقبلكم مني وديعة يا علي، إني قد أوصيت فاطمة ابنتي بأشياء وأمرتها أن تلقيها إليك، فأنقذها، فهي الصديقة الصدوقة، ثم ضمها إليه وقبل رأسها، وقال: فداك أبوك يا فاطمة، فعلا صوتها بالبكاء، ثم ضمها إليه وقال: أما والله لينتقم الله ربي، وليفضن لفضبك فالويل ثم الويل ثم الويل للظالمين، ثم بكى رسول الله ﷺ قال علي عليه السلام: فوالله لقد حسبت بضعة مني قد ذهبت لبكائه حتى هملت عيناه مثل المطر، حتى بليت دموعه لحيته وملاءة كانت عليه، وهو يلتزم فاطمة لا يفارقها ورأسه على صدري، وأنا مسنده، والحسن والحسين يقبلان قدميه ويكيان بأعلا أصواتهما قال علي عليه السلام: فلو قلت: إن جبرئيل في البيت لصدقت، لأنني كنت أسمع بكاء ونغمة لا أعرفها، وكنت أعلم أنها أصوات الملائكة لا أشك فيها، لأن جبرئيل لم يكن في مثل تلك الليلة يفارق النبي ﷺ، ولقد رأيت بكاء منها أحسب أن السماوات والأرضين قد بكت لها، ثم قال لها: يا بنية، الله خليفتي عليكم، وهو خير خليفة، والذي بعثني بالحق لقد بكى لبكائك عرش الله وما حوله من الملائكة والسماوات والأرضون وما فيهما، يا فاطمة والذي بعثني بالحق لقد حرمت الجنة على الخلائق حتى أدخلها، وإنك لأول خلق الله، يدخلها بعدي كاسية حالية ناعمة، يا فاطمة هنيئاً لك، والذي بعثني بالحق إنك لسيدة من يدخلها من

النساء، والذي بعثني بالحق إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا صعد، فينادي إليها أن: يا جهنم لا تقول لك الجبار: اسكني بعزي، واستقري حتى تجوز فاطمة بنت محمد ﷺ إلى الجنان، لا يغشاها قتر ولا ذلة، والذي بعثني بالحق ليدخلن حسن وحسين: حسن عن يمينك، وحسين عن يسارك، ولتشرفن من أعلى الجنان بين يدي الله في المقام الشريف ولواء الحمد مع علي بن أبي طالب عليه السلام يكسى إذا كسيت، ويحبنى إذا حببت والذي بعثني بالحق لأقومن بخصومة أعدائك، وليندمن قوم أخذوا حقك، وقطعوا مودتك، وكذبوا علي، وليختلجن دوني فأقول: أمتي أمتي فيقال: إنهم بدلوا بعدك، وصاروا إلى السعير. (١)

٢- مناقب ابن شهر آشوب: سعد بن أبي وقاص سمعت النبي ﷺ يقول: فاطمة بضعة مني من سرها فقد سرني ومن ساءها فقد ساءني، فاطمة أعز البرية علي. مستدرك الحاكم، عن أبي سهل بن زياد، عن إسماعيل، وحلية أبي نعيم عن الزهري، وابن أبي مليكة، والمسور بن مخرمة أن النبي ﷺ قال: إنما فاطمة شجنة مني يقبضني ما يقبضها ويبسطني ما يبسطها. وجاء سهل بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز فقال: إن قومك يقولون: إنك تؤثر عليهم ولد فاطمة، فقال عمر، سمعت الثقة من الصحابة أن النبي ﷺ قال: فاطمة بضعة مني يرضيني ما أرضاها ويسخطني ما أسخطها. (٢)

(١) بحار الأنوار: ج ٢٢/ ٤٩٠ ح ٣٦.

(٢) بحار الأنوار: ج ٤٣/ ٣٩ ح ٤١.



حوار في المنبر

حوار في المنبر

عنوان معروف في دنيا الخطابة. ورمز من رموز المنبر الحسيني،
التقينا على رغم مشاغله الكثيرة وقد أعطانا الكثير من وقته وأجاب
على أسئلة المنبر الحسيني بشيء من التفصيل... تحدث عن تجاربه
وعن مقترحاته لتطوير المنبر الحسيني... وتحدث في نصائح للخطباء
المبتدئين على أمل أن ينتفع الجميع بتجاربه ومقترحاته...

وقبل البدء نود أن نرحب بالعلامة المجاهد الشيخ عبد الحميد
المهاجر شاكرين له تفضله بالاستجابة لنا والإجابة على أسئلتنا..

سماحة الشيخ نريد أن نعرف ما هي رؤيتكم لمنبر الحسين عليه السلام في
الحاضر والماضي والمستقبل، وهل في إمكان هذا المنبر ان ينهض بالأمة
الإسلامية ويقودها إلى طريق النصر، وأن يواجه الصعاب التي تعترض
طريقه، والتحديات الراهنة التي تواجه الخطاب الحسيني في كل يوم
وفي كل ساعة وفي كل لحظة؟

- بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على
محمد وآله الطيبين الطاهرين... وبعد:

فإن هذا السؤال يصلح في نظري أن يكون مقدمة ومدخلاً لكتابة
موسوعة علمية حول المنبر الحسيني، ولاشك انه سؤال ينطلق من موقع
المسؤولية ومن الواقع الذي يعيشه المنبر اليوم، ويمكن أن نجد الإجابة
على هذا السؤال في النقاط التالية:

أ - رؤيتي للمنبر الحسيني تتطلق من كونه الصوت الأقوى والأكثر فاعلية وتأثيراً في نفوس الجماهير ووجدان الأمة، وهو الصوت الوحيد القادر على نقل كلمة الحق وقول الصدق وإراءة الطريق لكل الناس في عالم يضج بالإثم والعدوان، وتسوده الفتن كقطع الليل المظلم، ويفطيه الظلم والجور. بحيث إذا أصفى الواحد منا سمعه لا يجد غير المنبر الحسيني يضيء الطريق للجماهير، ويقول كلمة الحق والعدل بكل قوة وعزيمة مهما كانت الظروف قاسية، في الوقت الذي تختفي فيه الأصوات الأخرى إذا أحست بالخطر.

ب - إن صوت المنبر الحسيني مستمد من صوت الإمام الحسين عليه السلام الذي يقول: (والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أفرار العبيد) ويقول عليه السلام: (ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلة والذلة وهيئات منا الذلة) ويقول عليه السلام: (كونوا أحراراً في دنياكم) فهذه كلمات تجعل منبر الحسين أقوى وانصع وأصدق منبر يشهد التاريخ الإنساني منذ فجره وإلى أن تقوم الساعة.. وليس في هذا مبالغة ولا خروج عن الحقيقة، بل إن نظرة واحدة نلقيها على تاريخ هذا المنبر في الماضي والحاضر تكفي لإعطائنا ألف دليل ودليل على الدور الرائد الذي قام به منبر الحسين عليه السلام في تقويم الأمة، ومحاربة الظلم والجور والفساد، وفي إعادة الثقة في نفوس الناس بالإسلام والقرآن.

ج - في كلمة للإمام أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام يقول فيها وهو يزور جده الحسين عليه السلام: (ألتمس - أي بزيارتك يا حسين بذلك - كمال المنزلة عند الله عز وجل وثبات القدم في الهجرة

إليك، والسبيل الذي لا يختلج دونك في الدخول في كفالتك التي أمرت بها) والكفالة تعني أن الكفيل يضمن إحضار المكفول في أية لحظة على أن يكون كافلاً لكل شؤونه في الحياة، وهذا هو المعنى الدقيق الذي أراده الإمام الصادق عليه السلام من هذه الزيارة التي جاءت في أصح كتب الشيخ الصدوق وهو كتاب (من لا يحضره الفقيه) وهو أن هناك أناساً أمر الإمام الحسين عليه السلام من قبل الله عز وجل بكفالتهم وهؤلاء هم الذين يخدمون الحسين عليه السلام ويحيون أمر أهل البيت عليهم السلام ويقيمون مجالس العزاء ويصعدون المنبر الحسيني لحمل هذه الأمانة وإيصال هذه الرسالة الكبرى إلى العالم كله، وأية منزلة ومكانة أعظم وأشرف من هذه المنزلة التي يكون فيها الخطيب المخلص خادماً للحسين مكفولاً من قبل الإمام الحسين عليه السلام بأمر الله عز وجل؟

د - في حديث الثقلين يؤكد النبي صلى الله عليه وآله على حقيقة هامة مفادها: انه لا خلاص لشعوب الأرض، ولا سعادة لهم، ولا حرية ولا رفاه ولا حقوق ولا عدالة اجتماعية، إلا بالقرآن وأهل البيت عليهم السلام، بالتمسك بالثقلين كتاب الله والعترة الطاهرة، والمنبر الحسيني هو أعظم تجسيد حي لهذا الواقع وأنصح ترجمة لهذا الحديث الشريف حديث الثقلين الذي ذكره المسلمون كافة وأجمعت على صحته وصحة سنده الأمة الإسلامية كلها. على أن موضع الشاهد في نقل هذا الحديث أن المنبر الحسيني الذي يستمد وجوده وشرعيته من حديث الثقلين لقادر على خلاص الأمة وإنقاذها من المحن والمتاعب والويلات وهو - أي المنبر - يحمل حلاً لجميع المشكلات التي تضغط على صدر الأمة، سواء كانت اقتصادية، أو اجتماعية، أو ثقافية، فإنها بالتالي تجد حلولها في ظل المنبر الحسيني الذي هو صوت الإسلام الدين القويم.



هـ - وأود هنا أن أضيف نقطة بالغة الأهمية بخصوص موضوع
المواجهة الساخنة التي يشهدها المنبر الحسيني مع القوى الأخرى
والخطوط المعادية وهي أن الرسول الأعظم ﷺ حينما أراد أن يواجه
النصارى من أهل الكتاب، واجههم بعلي وفاطمة والحسن والحسين
عليهم السلام في قصة المباهلة المعروفة وانتصر عليهم بأهل البيت وليس
بغيرهم وفي هذا بلاغ لقوم عابدين، وهو: أن المنبر الحسيني، - بما أنه
الصوت الوحيد الذي ينطلق من مدرسة أهل البيت عليهم السلام - فإنه يُعتبر
الخطاب الإسلامي لعالم الغرب وللحضارة المعاصرة، وعلى الخطباء
والواعظين أن يدركوا هذه الحقيقة وأن يكونوا في مستوى المسؤولية
لرفع مستوى هذا المنبر أو بتعبير آخر، لرفع مستوانا إلى مستوى المنبر
الحسيني العظيم حتى نستطيع أن نكلم الناس على قدر عقولهم
وفهمهم، ونتمكن من هدايتهم وإرشادهم أي نهديهم إلى الحق،
ونرشدهم إلى سبيل الرشاد في مدرسة أهل البيت (عليهم أفضل
الصلاة وأزكى السلام).

نود أن نطرح عليكم سؤالاً يتعلق بكربلاء المقدسة وشؤونها وما
يجري على الساحة اليوم من إثارة شبهات حول أحداث كربلاء وانها
تحمل نوعاً من المبالغة، فما هو قولكم في ذلك؟

- كربلاء وما أدراك ما كربلاء، إن تاريخها قد كتبه الله عز وجل
بنفسه في قلوب الأنبياء والرسل والأولياء وسجل أحداث كربلاء قبل أن
يبرأها وجعلها في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى.. إن إلقاء نظرة واحدة
على يوم كربلاء وواقعة الطف ترينا ان هذه الواقعة استأثرت باهتمام
كبير وبتركيز بالغ من الرسول ﷺ ومن أهل البيت عليهم السلام بالذات، فقد

جاءتنا أحداثها مصورة بدقة متناهية عبر القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والتاريخ الصحيح، بل أكثر من ذلك فإننا نجد الله عز وجل لم يكتف بتسجيل تاريخ كربلاء والحسين عليه السلام في الكتب السماوية وحدها، وإنما سجلها وكتبها في الآفاق بحمرة دم الحسين عليه السلام، وجعلها مكتوبة في قلوب الأحرار والشرفاء من المؤمنين والمؤمنات بحروف من محبة الحسين عليه السلام، حتى قال رسول الله ﷺ:

(إن للحسين محبة مكنونة في قلوب المؤمنين لا تنطفئ إلى يوم القيامة).

وفي حديث آخر قال عليه السلام: (إن للحسين حرارة في قلوب المؤمنين لا تبرد ولا تنطفئ أبداً) أي حتى بعد قيام الساعة تظل تلك القلوب مشتعلة بحب الحسين وبالحزن على مصابه عليه السلام على أننا حين نقرأ قوله تعالى: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) ندرك من ذلك رؤية خاصة تشير إلى آثار دماء الحسين عليه السلام في الحمرة المشرقية والحمرة المغربية التي تظهر في الآفاق حين طلوع الشمس وحين الغروب، وقد أشار إليها أبو العلاء المعري بقوله:

وعلى الأفق من دماء آل شهيدين علي ونجلاه شاهدان

كما وقد أشارت الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السلام بهذا المعنى وهذا الخصوص وهي كثيرة بل أكثر من كثيرة لو أردنا استقراءها. هذا من جانب ومن جانب آخر فإننا نجد أن الله عز وجل - كما تحدثنا الأخبار الواردة عن أهل البيت عليهم السلام - قد عرض قضية كربلاء ويوم الحسين عليه السلام على الأنبياء كافة فما من نبي إلا وقد سمع بواقعة الطف ويوم الحسين ويكى لمقتله ومصرعه في يوم عاشوراء وهكذا كل الأنبياء

والرسل والأولياء الصالحين. وهذا يعني أن الحسين عليه السلام قد سبقه تاريخه وذلك لتوثيق هذا الإسناد.. وقد تحدثت الأخبار والروايات بشكل واسع وعريض في هذا المجال.

يضاف إلى ذلك عرض النقاط التالية:

١ - إن أحداث كربلاء وواقعة الطف وصلت إلينا عن طريق أهل البيت عليهم السلام الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً فهذا الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام وهو حجة الله في الأرض كان حاضراً يوم عاشوراء مع أبيه الحسين عليه السلام وقد شاهد ورأى بعينه كل ما دار وما جرى من أحداث ووقائع مأساوية أمام عينه وقد رواها بتفاصيلها حتى في خطبه التي ألقاها في الكوفة وفي الشام.

كما أنه كان في كربلاء، الإمام محمد الباقر عليه السلام وهو ابن الإمام السجاد عليه السلام وحفيد الحسين عليه السلام وكان في سن الرابعة من عمره وقد أدرك كل ما جرى من مصائب ولواعج وأشجان وأحداث ونقلها للعالم. أضف إلى ذلك وجود العقيلة زينب ابنة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وهي البطلة العظيمة العاقلة اللبيرة العالمة غير المعلمة وقد شاهدت كل وقائع كربلاء وأحداث يوم عاشوراء وكانت ترعى أطفال أخيها الحسين وكانت أسيرة مسبية يطاف بها هي وأخواتها من بنات الرسالة، البلدان من بلد إلى بلد ومن أرض إلى أرض، وكانت زينب عليها السلام هي الناطقة باسم أخيها الحسين عليه السلام في كل موطن وموضع تقف فيه هذه البطلة وهي التي روت أحداث كربلاء ووقائع عاشوراء وقد عاشتها بنفسها وذوقت طعم مصائبها كلها.. هذا ويمكن القول أن الله عز وجل حين عرض أخبار كربلاء وتاريخ عاشوراء ومقتل الحسين وأهل بيته عليهم السلام

على الأنبياء والمرسلين (صلوات الله عليهم أجمعين)، فإنه إنما أراد بذلك أن يرسخ أسانيد الواقعة وصورها وحقائقها في النفوس، نفوس الأجيال كافة بحيث لا يمكن لأحد أن يشك في صحتها أو يثير غباراً عليها.

٢ - إن الأئمة المعصومين عليهم السلام ذكروا وتحدثوا عن واقعة الطف بكل تفاصيلها.

٣ - إن الرسول ﷺ كان قد تحدث وتكلم عن يوم عاشوراء ومقتل الحسين من قبل ولادة الحسين إلى ما بعد ولادته، وهذا هو الملف التاريخي الكبير الذي حفظته لنا بطون الكتب لدى المسلمين جميعاً بحيث لم نجد واقعة ولا حادثة ولا قضية استأثرت بهذا الحجم الهائل الكبير من اهتمام الأنبياء والرسل والأئمة والمؤرخين والصحابة والتابعين بمقدار ما استأثرت به واقعة كربلاء ويوم عاشوراء، لذلك فهي فوق الشكوك والشبهات.

٤ - ثم بالإضافة إلى الذين كانوا من أهل البيت في كربلاء ورووا الواقعة كلها مثل الإمام السجاد والباقر والسيدة زينب والسيدة الرياب وفاطمة بنت الحسين وسكينة وأمثال هؤلاء الطيبين وقد مرت الإشارة إليهم، أقول: بالإضافة إلى وجود هذا العدد الكبير من أهل البيت عليهم السلام فهناك عدد من أصحاب الحسين الذين لم يُقتلوا وإنما وقعوا في الأسر وقد روى الواقعة بتفاصيلها وأسماءهم موجودة ومدونة في كتب التاريخ من قبيل عقبة بن سميان وأمثاله، فقد اكدوا وذكروا الواقعة بكل تفاصيلها وجزئياتها.

٥ - حين نقرأ خطب الإمام الحسين عليه السلام وكلامه الذي ألقاه في مكة وفي طريقه إلى كربلاء، وخطبه التي ألقاها في يوم عاشوراء، أقول: حين ندرك هذا المعنى ونقرأه بدقة وإمعان فإننا نستطيع أن نصل إلى حقائق تثير الدهشة وتشد القلوب والأسماع وقد صور الإمام الحسين عليه السلام فيها حتى عدد الجيش الذي خرج لقتاله وصور نفوسهم وذلك في قوله: (ولكن أسرعتم إليها كطيرة الدبا.. إلخ) وطيرة الدبا الجراد، وحين يصور الحسين عليه السلام أعداءه بالجراد فإنه يريد أن يبين حجم الجيش وعدده، وانهم جاءوا للإفساد، كما أنه خرج للإصلاح في أمة جده، كما أن وجود قبر الحربن يزيد الرياحي بهذا المكان البعيد عن الحائر الحسيني في كربلاء يدل على اتساع رقعة الحرب التي جرت يوم عاشوراء، ومن ثم يمكن الاستفادة من ذلك بمعرفة الجيوش التي خرجت لقتال الحسين عليه السلام وهكذا يمكن رصد وضبط كثير من الوقائع والأحداث من خلال خطب الإمام الحسين عليه السلام، وأعني بها التي لم يهتم التاريخ بتسجيلها، أما التي كتبها التاريخ وسجلها أهل البيت عليه السلام فهي بحر ليس له ساحل ولا محيط.

ثم إن وجود مراقد متعددة وكثيرة لرأس الحسين عليه السلام في حلب ودمشق وعسقلان والقاهرة والمدينة وكربلاء والنجف وأمثال هذه المناطق ليدل دلالة واضحة على عظم المصيبة وكبر الرزية وأن رأس الحسين عليه السلام كان يطاف به في البلدان والفلوات من بلد إلى بلد ومن مكان إلى مكان، كما جاء ذلك في الزيارات الواردة عن أهل البيت ، مثل الزيارات التي وردت عن الإمام الصادق عليه السلام. والإمام المهدي عليه السلام وكذلك بقية الأئمة فقد وردت عنهم زيارات متعددة تشير إلى واقعة الطف وما جرى فيها من أحداث وفجائع ورزايا وأحزان.

يؤخذ عليك انك من أكثر الناس دفاعاً عن الشعائر الحسينية التي تجري فصولها في ذكرى عاشوراء بما في ذلك مظاهر التشبيه والتطبير، واللطم وضرب السلاسل المجرحة وما شابه ذلك، فما هو ردكم على هذا المأخذ؟

- ليت أمامي ألف مأخذ ومأخذ من هذا القبيل، فإنه لشرف عظيم أن تتسم منابري ومجالسي ومحاضراتي بأجواء الدفاع عن هذه الشعائر التي يدل تعظيمها على تقوى القلوب، والقرب من الله ومن النبي ﷺ وأهل بيته الطيبين، بل الدفاع عن الشعائر الحسينية صفة ملازمة للإيمان لا تنفك عنه بأي حال من الأحوال، ويكفي في ذلك دليلاً دامغاً وحجة بالغة، أن يكون الرسول ﷺ والأئمة الطاهرون هم أول من أمر بإقامة هذه الشعائر والتشجيع عليها، وقد كانت سيرة العلماء الأعلام والفقهاء العظام ومراجع التقليد تنصب على هذا المضمار، من إحياء أمر أهل البيت الطيبين وذكرى عاشوراء ويوم كربلاء على مرور الليالي والأيام.. أضف إلى ذلك أن الناس إزاء الشعائر الحسينية إما مجتهدون، أو مقلدون. فأما المجتهدون فقد أفتوا بإقامتها وقالوا كلمتهم بمشروعيتها، وإنها من أنصع المظاهر التي تحيي الإسلام وتحفظه، وأما المقلدون فقد ساروا واتبعوا طريق الحق في إحياء تلك الشعائر الحسينية، وكانوا على سبيل نجاة في ذلك.

ما هي المعايير والموازين المعتمدة من قبلكم في إنجاح أو إسقاط الخطيب؟ أهى معايير الجودة دائماً، أم هناك أيضاً المعايير الأيديولوجية والأخلاقية والعلمية، وبتعبير أكثر دقة نقول: ما الذي يجعل من فلان خطيباً ناجحاً ومن آخر خطيباً فاشلاً؟

- دخل رجل اسمه جعفر بن عفان على الإمام الصادق عليه السلام وكان هذا الرجل ممن يمارس قراءة العزاء على الحسين عليه السلام وهو من أهل البصرة، فقال له الإمام عليه السلام - ما مضمونه - : (بلغني أنك تقول الشعر - تشد الشعر - في الحسين عليه السلام وتجيد) وهذه الكلمة الأخيرة (وتجيد) تفتح آفاقاً أمام خطباء المنبر وهو إن المطلوب الجودة في التعمق في الفكر، والجودة في الإلقاء، والجودة في الأسلوب وطريقة العرض، وهذا هو السر الكامن وراء نجاح وفشل الخطيب، فالذي يجتهد ويقرأ ويتأمل ويفكر فيما يقرأ ويستخرج طرقاً جديدة في الإلقاء والأسلوبية ويكون همه الدائم هو الصعود إلى أعلى مرتبة في الخطابة والبيان والمنبر، لاشك أن هذا الإنسان يصل إلى ذلك المستوى، ويحقق نجاحاً منقطع النظير، بخلاف الذي يكسل ويترهل ويجمد على معلومات محدودة، ويقتصر على شيء محدود من الخطابة، فإنه لا يحصد إلا الفشل الذريع.. على أن لي ملاحظة هنا في هذا المجال وهي أن الفشل لا وجود له في عالم المنبر الحسيني، لأن الخطيب الحسيني مهما كان محدوداً، ومهما كان محدود الأفراد من المستمعين فإنه يسجل رقماً عالياً في النجاح، إذ إن إقامة العزاء وإحياء ذكر أهل البيت عليهم السلام والبكاء على مصائبهم وذكر مصائبهم، يجعل من الثواب ما تعجز عن حمله الملائكة، كما ورد ذلك في الروايات والأحاديث الصحيحة التي وصلتنا من أهل البيت عليهم السلام ومدرستهم.. كما في حديث الإمام الصادق عليه السلام: (من بكى وأبكى على الحسين دخل الجنة) وهذا ينطبق على الفرد الواحد، كما ينطبق على المليون، ويمكن قراءة مراجعة الأحاديث هذه في الكتب الأربعة وفي كامل الزيارات والوسائل وما شابه ذلك.

وبمناسبة ذكر المصادر فباي كتاب للقراءة الحسينية تنصحون؟

- هناك كتب قيمة وجديرة بالقراءة والدراسة والمطالعة في هذا المجال، وأذكر منها على سبيل المثال:

١ - كتاب أسرار الشهادة، للدريندي.

٢ - كتاب الخصائص الحسينية، للشيخ التستري.

٣ - كتاب نَفَسَ المهموم، للشيخ القمي.

٤ - كتاب العوالم، للشيخ البحراني.

٥ - كتاب بحار الأنوار، للمجلسي.

٦ - ثم لابد من قراءة كتب المقاتل مثل: مقتل الحسين، للمقرم، ومقتل الحسين لأبي مخنف، ومقتل الحسين لابن طاووس. يضاف إلى ذلك قراءة كتب التاريخ مثل الطبري، والكامل ومروج الذهب، ومقاتل الطالبين... إلخ.

هل لنا أن نعرف نوع العلاقة التي تربط الخطيب بالجماهير، وكيف يحافظ عليها، فالتناس لهم حاجات وعندهم مشكلات، والخطيب هو أولى الناس بقضاء حوائجهم، والسعي لحل مشكلاتهم. فكيف يتعامل الخطيب، وكيف يستطيع أن يكون حاضراً مع الناس، وفي الوقت ذاته يرفع دروسه وفكره، ومنبره وينطلق في التحضير والدراسة والحفظ والقراءة. أي أنه كيف يكون في وسعه أن يوفق بين قضاء الحوائج وبين السعي في بناء المنبر الحسيني أروع وأجمل وأقوى بناء خصوصاً ونحن أصبحنا مكشوفين أمام العالم في هذه الأيام من خلال أجهزة الإنترنت ومحطات الفضاء والأقمار الصناعية التي تجري في الأفق وتنقل للناس كل غث وسمين وشاردة وواردة؟

- هناك حقيقة يجب ألا تغيب عنا أبداً وهي أن الخطيب الذي ينزل إلى الساحة ويعيش مع الناس ويستمع إلى مشكلاتهم يكون - في العادة - أعرف الناس بمشكلات المجتمع وأدري الناس بمعالجتها.. علماً أن النبي ﷺ كان - كما يصفه الإمام علي عليه السلام - طبيباً دواراً بطبه - أي أنه كان يدور بطبه لمعالجة النفوس الإنسانية، والمشكلات الاجتماعية، وفي هذا الحديث إشارة رائعة يذكرها أمير المؤمنين عليه السلام، وهي أن للمريض حالتين - كما هو معروف - حالة تجعله قادراً على الذهاب إلى الطبيب لطلب العلاج والشفاء، وحالة ثانية تستدعي إحضار الطبيب عنده، وذلك لسوء حالة المريض، وتدهوره الصحي... وحين يكون النبي ﷺ طبيباً دواراً بطبه، فإنه تكون حالة الأمراض الاجتماعية قد استفحلت واستشرت وتفاقت حتى لم يعد هناك مجال لنقل المريض إلى الطبيب، وإنما لابد أن يحضر الطبيب بنفسه عند المريض، وهذه الحالة هي بالضبط حالة المنبر اليوم إذ إن المجتمعات في انتظار قدوم الطبيب الحسيني إليها، لوضع الدواء على الجرح، وإعادة الناس إلى الإسلام ومدرسة أهل البيت عليهم السلام.

هذا من جانب وجانب آخر يستطيع الخطيب الواعي الهادف أن يجعل من أوقاته وقتاً خاصاً للناس مثلاً واللقاء بهم بشكل لا يؤثر على انطلاقته في الدراسة والقراءة، وقد رأيت قسماً من كبار الخطباء حيث كان الواحد منهم يخصص من وقته ولو ساعة واحدة في الأسبوع للقاء بمن يريد لقاءهم، ثم يكون عنده شخص ثقة وأمين يجعله لمراجعة الناس وتفقد أحوالهم، هذا إذا كان له شأن في هذا المجال، أما أنا ورغم اتصالي المكثف بالناس على اختلاف مشاربهم وطبقاتهم

ودرجاتهم في الإيمان والمعرفة، فإن لي رأياً آخر في هذا المجال وهو أن المنبر الحسيني بحد ذاته يعتبر مؤسسة ذات أبعاد فقهية ولغوية وتفسيرية، وأدبية وحضارية وإنسانية.. إن المنبر رسالة مقدسة تأخذ من الخطيب العالم كل وقته وليس له أن يفرط في وقت المنبر لأن التفريط جناية، خصوصاً وإن المنفعة تعود في النهاية على الناس وإلى الناس لإرشادهم وتوضيح طريقهم في الحياة، ومن هنا فإني أقولها بصوت رفيع إن على خطباء المنبر أن يحترموا أوقاتهم وأعمارهم وأن لا ينفقوا منها حتى ولو ساعة واحدة في غير هذا الاتجاه، لأن المنبر اليوم يواجه تحديات في الإعلام والتبليغ والغزو الفكري والاختراق الأخلاقي الذي أخذ يهز قواعد التربية من الأساس، وعليه فإنه لابد من أن يكون للمنبر الحسيني دور فعال وقوي وثابت.

يرى بعض المراقبين لأجواء المنبر أن هناك نوعاً من المبالغة في طرح القضايا العقائدية، خصوصاً تلك التي تخص أهل البيت عليه السلام فضائلهم، من قبيل أن الإمام علياً عليه السلام يستطيع أن يحيي الموتى وأنه أفضل من الأنبياء باستثناء النبي محمد صلى الله عليه وآله وأن الزهراء عليها السلام أفضل من مريم ابنة عمران، فما هو جوابكم على هذه الإشكالية؟

- المشكلة ليست في المعرفة ولا في أصل الموضوع، وإنما المشكلة في عدم معرفة الناس لأهل البيت عليه السلام، فالذي لا يعرف حقيقة الإمام علي عليه السلام يستكثر عليه مثل هذه الفضائل وكذلك بالنسبة للصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام وإلا فأننا حين ندرس القرآن الكريم وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، نجد القرآن يؤكد هذه الحقائق في عدد كبير من آياته، ففي آية المباهلة نقرأ أن

علياً ﷺ نفس النبي ﷺ وفي حديث المنزلة المتفق عليه لدى المسلمين، نجد علياً ﷺ يتلو النبي ﷺ وهو نفسه أيضاً (يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي) وهذا يدل دلالة واضحة في الكتاب والسنة ان علياً ﷺ أفضل من الأنبياء لأن نفس النبي ﷺ أفضل من نفوس الأنبياء وكذلك حديث المنزلة، ثم حين نقرأ في العمق الفكري نجد أن الله سبحانه وتعالى قد منح هذه القدرة - أي قدرة إحياء الموتى - منحها لقسم كبير من الأنبياء، ومنهم على سبيل المثال إبراهيم الخليل ﷺ وعيسى ﷺ الذي كان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله ويحيي الموتى بإذن الله.

فإذا كان الله قد منح إذنه لعيسى بن مريم وأعطاه قدرة إحياء الموتى وكذلك صنع مع خليفه إبراهيم ﷺ فلماذا نستكثر على الإمام علي ﷺ أن يكون لديه هذه القدرة على إحياء الموتى، وقد فعلها بالفعل كما في التاريخ الصحيح.. ثم بعد ذلك نجد الله جعل هذه القدرة في بقرة بني إسرائيل: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْهُ بِغَضَبِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ..﴾^(١) وهكذا بالنسبة للصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء العظيمة، وكيف كانت أفضل من مريم لأن مريم كانت سيدة نساء عالمها والزهراء كانت سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين، كما صحت الرواية والحديث عن النبي ﷺ هذا بالإضافة إلى الأحاديث الأخرى التي تقول:

(١) البقرة/ ٧٣.

(إن فاطمة سيدة نساء الجنة) ومريم من نساء الجنة ففاطمة سيدتها، بل أكثر من ذلك حين ندرس حياة الزهراء نجد أن الله قد أخذ على كل الأنبياء مودتها وطاعتها وإن طاعتها كانت مفروضة على كل الأنبياء كما في الأخبار، ثم إنها عليها السلام كفو لعلي عليه السلام، وهي أم الأئمة النجباء الطاهرين، وواحد من أبنائها هو الإمام المهدي عليه السلام الذي يصلي عيسى خلفه، أي أن عيسى كما في الصحاح يصلي خلف الإمام المهدي عليه السلام فعيسى عليه السلام مأموم بإمامة المهدي عليه السلام وهذا يدل على زن الإمام المهدي عليه السلام أفضل من عيسى عليه السلام والإمام عليه السلام يقول إن لي أسوة بفاطمة بنت محمد، وأمثال هذه الأحاديث الصحيحة السند التي تؤكد إن فاطمة الزهراء هي أفضل ليس فقط من نساء العالمين ومن مريم وإنما هي أفضل حتى من الأنبياء باستثناء أبيها رسول الله ﷺ.

وبعد ذلك فهل في إمكان أحد أن يقول: إن هناك نوعاً من المبالغة في نقل روايات المنبر؟ كلا ثم كلا. إن قراءة واعية لفكر أهل البيت عليهم السلام ومنزلتهم في الإسلام، تكشف لنا حقيقة كبرى وهي أننا مهما قلنا ونقلنا عن فضائلهم فإننا سنظل في بدايات وأوليات فضائلهم عليهم السلام، وقد جاء في الحديث أن الجن والإنس لو كانوا كتاباً والشجر أقلاماً، والبحار مداداً لما أحصوا فضائل علي بن أبي طالب عليه السلام، وقد قال الحبيب المصطفى ﷺ ليلة الإسراء والمعراج (رأيت إبلاً تحمل فضائل علي بن أبي طالب لا يعرف أولها ولا آخرها إلا الله) وكيف يمكن إحصاء ومعرفة فضائل رجل كانت ضربة واحدة منه أفضل من عبادة الثقلين إلى يوم القيامة، وهي ضربة علي عليه السلام يوم الخندق، كما جاء ذلك في صحيح الروايات وأسانيد التاريخ.



إذن فلا يمكن لأحد أن يتهم المنبر الحسيني بالمبالغة في نقل الوقائع والأحداث والفضائل، بل إنني أجزم إننا مقصرون في إحياء أمرهم ونقل فضائلهم.

بمناسبة ذكر فضائل أهل البيت عليهم السلام دار حديث بين ثلة من المثقفين وذكروا فيه ان أهل البيت ولدوا ناقصين ثم تكاملوا في الحياة فما هو تعليقكم على ذلك؟

- عندما نسمع عيسى بن مريم عليه السلام

وهو في المهد يقول: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ﴾... إلخ^(١)، ندرك حقيقة الكمال عند أهل البيت عليهم السلام وانهم ولدوا كاملين لأنهم نور الله في الأرض، وقد خلقهم الله من نوره. وجعلهم أنواراً بعرشه محققين، ثم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً انه ليس صحيحاً ولا منطقياً ان نقيس أهل البيت عليهم السلام بالمعيار ذاته الذي نقيس به أنفسنا، فال محمد لا يقاس بهم أحد من العالمين أبداً ومطلقاً.. فكما ان الله عز وجل ليس عنده دين أعظم من الإسلام ولا كتاب أعظم من القرآن ولا نبي أعظم من محمد عليه السلام، كذلك ليس عنده أعظم من الإمام علي عليه السلام، ولا امرأة أعظم من فاطمة الزهراء عليها السلام، وأيضاً ليس عند الله أئمة أعظم ولا أفضل من أئمة أهل البيت عليهم السلام..

وهذا بحد ذاته يكفي دليلاً ما فوقه دليل، وبرهاناً ليس أعلى منه

(١) مريم/٣٠-٣١.

برهان على أن أهل البيت عليهم السلام لا يقاس بهم أحد من الخلق على الإطلاق.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن أي نوع من الكلام عنهم وفي فضائلهم وحول فكرهم مهما كان قوياً وفاعلاً فإنه لا يعد مبالغة أبداً، بل إننا مهما قلنا مقصرون قطعاً وبالتأكيد.

هل يمكن توضيح هذا الجانب أكثر، وتبسيط الضوء على هذه المسألة وذلك لما لها من أصل في العقيدة؟

- الضوء يتسلط على جانبين في هذه المسألة:

الأول: ان الله عز وجل فياض العطاء، وانه يقول: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا... ﴾ ^(١) وهذا يعني ان لكل واحد قدرة وقابلية على الأخذ، فإله هو المعطي وإذا لم تكن هناك موانع تمنع الاستفادة من هذا العطاء، فإن النتيجة مذهلة ومدهشة، ولذلك نجد في قضية أهل البيت عليهم السلام وعظمتهم، أن العطاء الإلهي الذي لا حدود له، يقابله الاستعداد والقابلية لدى أهل البيت على الأخذ والانتفاع، فلا مانع في العطاء والمعطي، ولا في الأخذ وأخذ، فتكون النتيجة قطعاً أن أهل البيت هم أعلى قمة وذروة في عالم الإمكان، وليس في الإمكان أن يوجد خلق أعظم منهم أبداً.

الثاني: ان الله عز وجل قد احتجب عن الخلق بهم أي بأهل البيت عليهم السلام، كما يقول الإمام الباقر عليه السلام أي لأن الله لا يمكن ان يراه

(١) الرعد/١٧.

أحد، فهو لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير، فإن أهل البيت عليهم السلام يجب أن يكونوا أعلى قمة في هذا الوجود، من حيث الخلق والإبداع، وليس في القدرة ولا في الإمكان أن يوجد خلق أعظم ولا أفضل ولا أكمل ولا أزكى ولا أنمى منهم.. روعي وأرواح العالمين لهم الفداء.

أريد أن أوجه نقداً وهو أن بعض المنابر التي تبدو ضعيفة وباهتة فما هو رأيكم في نقدي هذا، وهل هناك نقاط ضعف يمكن معالجتها وإذا كان كذلك فكيف يتم العلاج؟

- اليوم أصبح العالم قرية كونية واحدة وهذا يحملنا مسؤولية أكبر لمعالجة نقاط الضعف التي تظهر أحياناً هنا وهناك في الإلقاء، والأسلوبية، وطريقة الطرح، وعدم نضوج المعلومة التي تطرح فوق المنبر، وعدم الإحاطة بها من كل جوانبها..

وهذه كلها إنما يتم التغلب عليها، بالمتابعة والمطالعة والدراسة والتدريب المستمر لطرق الإلقاء، وهضم المعلومات، وبالإصرار على بلوغ الهدف، وبعد التوكل على الله عز وجل فإن المشكلات هذه تذوب وتتساقط الواحدة تلو الأخرى تحت عرية النجاح والقوة في الفكر والقول والفعل.

على أنه لا بد من الاستفادة من ثورة التطور التكنولوجي وإدخال المنبر الحسيني في مجالاتها، مثل الأقمار الصناعية والإنترنت، والمحطات الفضائية ودور الطباعة والنشر، والصحافة والإذاعة في كل المجالات، كأن يكون المنبر الحسيني أقوى الأصوات في هذا المضمار من حيث الشكل والمضمون والإبداع والابتكار والخلق. ومن هنا فإن



على المنبر الحسيني ان يكون على اتصال دائم بالساعة الراهنة
واللحظة الجارية وحديث شؤون الساعة، حتى يزداد قوة ولمعناً وتأثيراً
في النفوس والقلوب والعقول.

إن الخطيب الذي لا يتناول شؤون الساعة، يخسر رسالته ولا
يستطيع أن يوصل صوت الحق إلى العالم، وحينما نقرأ قوله تعالى:
﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَرُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَرُوا بِالصَّبْرِ (٣)﴾^(١) فإن الرؤية
التي نستفيدها من السورة هي ان الإنسان الذي لا يتقن لغة العصر،
يخسر قضيته، أضف إلى ذلك ان المجال الذي يرعى فيه المنبر هو
مجال العالم يرعى فيه المنبر هو مجال العالم كله، فليس هناك قضية
تستأثر باهتمام الخطيب دون أخرى بل كل القضايا المطروحة في
الساحة، طبعاً هذا الكلام في المجال الاجتماعي أما قضايا العقيدة
والتوحيد والولاية والإمامة ومظلومية أهل البيت عليهم السلام فإنها من أكثر
القضايا استئثاراً باهتمام الخطيب الحسيني، كما قال الإمام الرضا
عليه السلام: (رَحِمَ اللَّهُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَنَا) فقل له كيف يحيي أمركم؟ قال عليه السلام:
يتعلم علومنا ويعلمها الناس، فإن الناس لو عرفوا محاسن كلامنا
اتبعونا).

كيف وأين بدأت رحلتكم مع المنبر الحسيني، وما هي التجارب التي
استفدتموها في هذا المجال؟

- رحلتي مع المنبر وأجواء الخطاب الحسيني، بدأت في مرحلة

(١) سورة العصر.

مبكرة جداً في حياتي كنت أدرج فيها من الخامسة إلى السادسة، في مدينة الرميثة بالعراق وأنا أقوم بتمثيل شبيه ولديّ مسلم بن عقيل، في اليوم الخامس من شهر محرم الحرام من كل عام حيث كانت تجري هناك أحداث وقائع جرت على آل الرسول ﷺ، ومنها مقتل ومصرع هذين الطفلين اليتيمين المنكسرين، وكان مصرعهما من فجائع الدهر، فكنت أقوم بدور أحد الطفلين وأنا أقرأ في السماعاة الكبيرة أبياتاً من الشعر فتتهتز المدينة بكل أطرافها من البكاء والنحيب والمويل.. واعتبر تلك الفترة من حياتي هي أول أيام حياتي المنبرية وأنا في تلكم السن المبكرة.. ثم صرت بعد ذلك أقوم بأدوار التمثيل لشبيهه القاسم بن الحسن ﷺ، ومرة مثلت شبيه السيدة سكينة بنت الحسين ﷺ.

وبعدها كنت أقوم بتمثيل مسرحي سيار لدور شبيهه جون مولى الحسين ﷺ، وكنت أبكي لحظة يقف الحسين على رأسي - في التمثيل طبعاً - وهو يقول: (اللهم بيض وجهه وطيب ريحه واحشره مع محمد وآله الطيبين الطاهرين) فكانت تأخذني حالة من البكاء العميق. واتذكر ذات يوم وكان يوم عاشوراء حيث أقوم بأداء هذا الدور، كنت أتساءل كيف أقوم بدور جون الزنجي الأسود، ووجهي لا يميل إلى السواد، فقال لي الحاج عبد الستار الشكيري (رحمه الله) وكان هذا الرجل يقوم بتمثيل شبيهه أبي الفضل العباس ﷺ، حيث كان تجري وقائع وأحداث كربلاء في يوم عاشوراء في مدينة الرميثة الباسلة في شكل دائرة كان يجري فيها تمثيل واقعة الطف وكل ما جرى على الحسين ﷺ وأهل بيته بشكل دقيق وشامل وعميق، حتى أنني أجد الحسرة تصلي قلبي ناراً حين أتذكر تلك الأيام وأنا لم نقم بتصويرها



سينمائياً وتلفزيونياً، بل حتى لم يفكر أحد منا بتسجيلها على أشرطة التسجيل، وهذا مما يؤسف له أشد الأسف كما أنه كانت تجري دائرات مماثلة لدائرة كربلاء في الرميثة، في بقية المدن العراقية، أقول: فأنا أعتبر أن تلك المراحل هي الأولى في تدرجي في سلم الخطابة، وأعود لكلمة المرحوم الحاج عبد الستار الشكري حيث قال لي - وأنا أتساءل كيف أستطيع القيام بدور جون - قال لي:

(سوّد وجهك بسواد هذه القذور - التي كان يجري فيها طبخ الهريس - سوّد وجهك بهذا (السخام) حتى يبيض الله وجهك عند الإمام الحسين عليه السلام يوم تبيض فيه الوجوه)، وكانت تلك الكلمة بمثابة درس كبير وعميق في الأخلاق وفي أسلوب الخدمة لأبي عبد الله الحسين عليه السلام.

- نعم كان ذلكم الخطيب هو السيد حسن الشخص (رحمه الله) حيث كان يشجّني على صعود المنبر في مدينتي الرميثة المدينة الحلوة الولائية التي تجري دماء الولاء في عروقها، كما يجري الفرات في أرضها.

المعروف عنكم أنكم من تلامذة المرحوم الشيخ عبد الزهراء الكعبي (رحمه الله).

- أجل هذا صحيح.. فالشيخ الكعبي ترك أثراً في قلبي وفي نفسي وعلى مشاعري، أحسه واستشعره في كل لحظة من حياتي، إن المجال الذي فتحه أمامي في الخطابة لا يمكن التغافل عنه أو تجاهله بأي شكل من الأشكال، فقد كان الشيخ الكعبي - بتوجيهاته وإرشاداته -

يزرع في الحس الخطابي، ويسقي عطشي وظمأي في هذا المجال..
ومن هنا فقد كان له تأثير كبير وعميق في مسيرتي الخطابية.

ما هي رؤيتكم للمنبر الحسيني وكيف تقيمونه من خلال تجربتكم
الطويلة معه؟

- من خلال تجربتي الفنية في المنبر الحسيني، وعالم الخطابة
والإلقاء، تكونت لدي رؤية واضحة في هذا المجال، مفادها:

إن المنبر حالة وقضية، ومعاناة، وبغيرها لا يوجد منبر ناجح على
الإطلاق. فالخطيب الحسيني حالة يصفها القرآن الكريم بقوله: ﴿الَّذِينَ
يُتْلُونَ رَسُولَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾^(١) وفي قوله: ﴿إِنَّمَا
يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(٢).

وبقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً﴾^(٣) يصلح
لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم...^(٣) وآيات كثيرة في هذا المجال تصف
حالة صاحب الخطاب وصاحب الكلمة أن يكون له دين وعقل ورياسة
جأش حتى يستطيع أن يقول كلمة الحق ويتفاعل معها وليس فقط
يقول كلمة ويمشي، لا... وإنما لابد له أن يتفاعل مع ما يقول خصوصاً
وهو يرتقي أشرف منبر في الوجود وأقدس أعواد عرفها التاريخ،
فليس مثل منبر الحسين منبر، إنه منبر النبي ﷺ وهو منبر أهل
البيت الطاهرين وهو على ترعة من ترع الجنة أي إنه على نهر يجري في

(١) الأحزاب/٣٩.

(٢) فاطر/٢٨.

(٣) الأحزاب/٧٠-٧١.



الجن وبمقدار ما يرتفع إيمان الخطيب وإخلاصه وحبّه وصفاءه،
بمقدار ما يكون حجم العطاء ونوعه ومضمونه.

لقد عرفت رجالاً في هذا الميدان لا تستطيع الألسن أن تصفهم ولا
الأقلام أن تكتب عنهم لقد كانوا أبدالاً لا نظير لهم في هذا المضمار،
مع كثرة ما عرفت منهم، بما لهم منزلة في نفسي ومساحة من دعائي،
ولكن يظل الشيخ عبد الزهراء الكعبي، والشيخ هادي الكريلائي
والسيد كاظم القزويني يظل لهم وقع ومحبة في قلبي وطعم لذيذ على
لساني.

هذا بالنسبة للحالة الحسينية التي يفرق في أمواجها الخطيب والتي
يصفها الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: (لقد لبس للحكمة جنتها
وأخذها بجميع أدبها، من الإقبال عليها، والمعرفة بها، والتفرغ لها..)
وهذه الحالة التي يفتش عنها كل داعية إلى الله عز وجل يريد أن
يصعد المنبر فيقول الحق ولو كره المبتطلون، وقد وصف الإمام زين
العابدين علي بن الحسين عليه السلام وصف هذه الحالة المنبرية بقوله:
(أصعد هذه الأعواد فاتكلم بكلمات فيهنّ لله رضا ولهنّ ولاء الجائسين
أجروثواب).

أما موضوع القضية فهو أوضح من الشمس في رابعة النهار، إذ
المنبر بغير قضية يغدو باهتاً وضعيفاً، لا يؤثر بأحد من الناس بالمطلق.
على أن التجارب أثبتت أن الخطيب الذي لا قضية له يدافع عنها
ويسهر من أجلها، يصبح خطيباً فاشلاً لا يثير عقلاً ولا يحرك مشاعراً
أبداً، بخلاف الخطيب الحسيني صاحب القضية المقدسة والتي هي
أمانة كبرى يحملها.. وتفسيرها إحياء أمر آل محمد عليهم السلام والتي



يلخصها الإمام الرضا عليه السلام في كلامه مع أبي الصلت الهروي بقوله: (رَحِمَ اللهُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَنَا. فقال: سيدي كيف يحيي أمركم؟ قال عليه السلام: يتعلم علومنا ويعلمها الناس فإن الناس لو عرفوا محاسن كلامنا (لاتبعونا) يضاف إلى ذلك المعاناة التي لا يشفى الخطيب الهادف منها أبداً، فمن دون معاناة وجهاد، وسهر ومواصلة كفاح ونضال ودراسة وتفكر دائم بشؤون المنبر، لا يمكن للخطيب أي يؤدي رسالته في أي حال من الأحوال.

هل في إمكانكم أن تعطونا نبذة ولو قصيرة عن سيرة وحياة بعض الخطباء الذين تأثرتهم بهم وتفاعلت معهم ومع طريقتهم في الإلقاء والأسلوب أمثال الشيخ الكعبي والشيخ هادي الكريلائي كما ذكرتم آنفاً؟

- لاشك أن لهؤلاء الخطباء الذين ذكرتم أبعاداً مختلفة في حياتهم وتأثيرهم في الناس تربوياً وأخلاقياً، فقد كان لكل واحد من الخطباء الذين عرفتهم في الماضي ملفاً كبيراً في السيرة الذاتية والاجتماعية وأذكر على سبيل المثال أن الشيخ الكعبي كان لا يرد أحداً دون قضاء حاجته أو بعضها حتى ولو بكلمة طيبة ينعش بها قلب كل واحد من الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرف في وجوههم نور الصالحين وسيماء الناس الطيبين، وأحفظ من هذه القصص الشيء الكثير، ولعل الله عز وجل يوفقني لوضع كتاب عن أعمال هؤلاء الخطباء الحسينيين المخلصين، أكتب فيه كل ما رأيته وعشته معهم عن قرب وليس عن بعد.

طبعاً هذا يشد الناس إلى المنبر ويجعلهم أكثر قابلية وتفاعلاً في الإسلام.

- بكل تأكيد. إن التطابق بين القول والفعل لهو أكبر ركيزة وأقوى ركن يستند إليه الخطيب في زرع وإعادة الثقة في القلوب، لأن الناس إذا عرفوا الانسجام بين القول والفعل أحسوا، وشعروا بلذة الإيمان وطعم التقوى، وهذا يجعل الجماهير أكثر تفاعلاً مع أجواء المنبر وأجواء الإسلام في مدرسة أهل البيت عليه السلام.

بما أنكم ذكرتم مدرسة أهل البيت عليه السلام، كيف ترون المستقبل لهذه المدرسة التي ينطلق من خلالها المنبر الحسيني، أمام تحديات المرحلة الراهنة، من إعلام وافد مركز يضرب في الأعماق ليهز قواعد المجتمع الأخلاقية من ناحية، ومن ناحية أخرى يساهم الإعلام الوافد اليوم بتفكيك عرى الأسرة وأواصر العلاقات الاجتماعية العامة، فكيف تقيمون هذا الوضع؟

- هناك نقطة بالغة الأهمية يجب الالتفات إليها وأخذها بنظر الاعتبار، وهي أن مدرسة أهل البيت عليه السلام هي القلعة التي تمنع التفكك والانحيار، وهي الحصن الذي يصد الاختراق الثقافي بكل ألوانه ويهزم الإعلام الوافد بكل فلوله وشباكه، إن قراءة واعية لحديث الثقلين الذي ذكره المسلمون كافة يظهر هذه الحقيقة، والحديث يقول - كما جاء على لسان الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله: (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي وقد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض) وعلى هذا

الأساس، وانطلاقاً من مفهوم هذا الحديث الشريف، فإني أعتبر المنبر الحسيني أروع وأنصع تجسيد حي لحديث الثقلين هذا.

ألا تتفقون معي على أن المنبر في حاجة اليوم أكثر من أي يوم مضى إلى التطوير والتجديد والإبداع حتى يتمكن أن يواجه التحديات المعاصرة في مجال الإعلام بكل قنواته المرئية والمسموعة؟

- في الحقيقة أنا أتفق معكم على حاجة المنبر لعملية تجديد وإبداع وتطوير واسعة وشاملة، على أن هذا لا يعني أن هناك جموداً في منبر اليوم، بل على العكس تماماً، فهناك محاولات جادة ورائعة ومثمرة لتجديد وتطوير المنبر، ونلمس هذه المحاولات عند كثير من الخطباء المخلصين الذين يشعرون بالمسؤولية ويحملونها بصدق ويحسونها بالأعماق.. ولكن ذلك لا يكفي لسد الفراغ المنبري الذي تظهر آثاره هنا وهناك.

إذن فما هو الطريق في رأيكم لملء هذا الفراغ؟

- أفضل طريق في رأيي وعقيدتي هو فتح معاهد لتعليم وتخريج جيل جديد من الخطباء الحسينيين الذين يرفعون صوت الحق إلى ربوع العالم كله.. يرفعون صوت الحسين عليه السلام، ذلكم الصوت الذي يسقي عطش الفطرة، وترتوي منه الأرواح والقلوب.. على أن هذا يقتضي وجود ثلة كبيرة من التجار المؤمنين الواعين لدعم وإمداد هذا المشروع المنبري الخطابي العظيم.

هناك مشكلات تواجه الخطيب الحسيني، فهل في إمكانكم أن تذكروا لنا بعضاً منها وما هي الحلول التي ترونها مناسبة وملائمة وموفقة في هذا المجال؟

- مشكلات المنبر التي تواجه الخطيب كثيرة ومتعددة ومتشعبة، ولكن يمكن حصرها في ثلاثة أنماط من المشكلات: المشكلات النفسية، والمشكلات المنبرية، والمشكلات الاجتماعية، وهذه في عقيدتي يمكن حلها والتغلب عليها بشيء من التأمل والتفكير، فمثلاً مشكلات النفس تتضمن انعدام الثقة، والخوف من الإلقاء، وعدم التحضير، وبالدراسة والمطالعة والقراءة المركزة يتم إعادة الثقة والانطلاقة في الخطاب...

وبالتأمل والتدبر في أحوال الخطباء الماضين الناجحين منهم والمعاصرين يتم التغلب على الخوف ويحل محله الارتياح والانشرح، لأن الانقباض يسبب حبسة في اللسان، وانطفاء في البيان في حين أن انشرح الصدر يفتح الآفاق الواسعة أمام الخطيب، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في بعض الآيات الكريمة ففي الانشرح وانطلاقة اللسان يقول ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾^(١) فإنَّ للانشرح في الصدر والراحة النفسية أو النفسانية سبباً مباشراً في القدرة على البيان والفصاحة والإبانة... في حين أن الانقباض في الصدر وانعدام الراحة، وفقدان الرؤية تجعل من الخطيب عيياً لا يستطيع أن يقول كلمة واحدة من أربعة حروف، فيقول القرآن الكريم في هذا المجال: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾^(٢) وكلا الأمرين وردا على لسان موسى عليه السلام.

إذن فإن الشرط الأساسي للتغلب على عدم الثقة، والخوف إنما هو

(١) طه / ٢٥-٢٨.

(٢) الشعراء / ١٣.

بأنشراح الصدر، والراحة والاسترخاء الذي يسبق المنبر ويسبق الإلقاء، ومن دون هذا الشرط يغدو المنبر باهتاً لا روح فيه ولا جاذبية.

وأما عدم التحضير فيمكن أن يعالج بشيء من التركيز في القراءة الواعية، إضافة إلى التزود بالحفظ وتقوية الحافظ وتطعيمها بما لذ وطاب من الفكر والأدب والعلم والتفسير والأخلاق والمُلح والطرائف وكل ما من شأنه أن يقوي المنبر ويعمق البحث العلمي والخطاب الحسيني في هذا المضمار.

على أن هذا المنهج كفيل بخلق منبر قوي وفاعل ومؤثر وهادف، يستقطب الناس ويجتذب القلوب ويستهوئ الأفئدة إليه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ
الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ
زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ
الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ
يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ
الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾^(١).

الارتفاع نوعان، أما في البدن وأما في الروح، لكشف الأشياء
والحقائق، فإذا ارتفع الإنسان ببدنه اكتشف أشياء أكثر، وإذا ارتفع
بروحه اكتشف حقائق أكثر، مع ملاحظة أن كشف الأشياء للبصر لا يتم
إلا بنور الشمس والطبيعة، وكشف الحقائق للبصيرة لا يتم إلا بنور
الإيمان والتقوى. وبغيرها يغدو الإنسان أعمى يتردد في ظلمات الجهل
والشك والبر والبحر لا يكاد يرى حتى يده -وهي أقرب شيء إليه- إذا
أخرجها، ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾^(١).

ومن هذا المنطلق كان القرآن الكريم يصور الحياة الخالية عن الحق
بالظلمات التي تضرب البر والبحر والروح والعقل.. ولذلك يسلط
القرآن النور على الحق لإظهاره للناس بشكل لا يدع مجالاً للشك ولا
عذراً لمعتذر. على أن نور الحق هذا الذي يضربه القرآن مثلاً للبشرية
كافة له قدرة وقوة وفاعلية على كل شيء في الوجود، بحيث لا يمنع

(١) النور/ ٣٥- ٣٧.

(٢) النور/ ٤٠.

رؤيته شيء أبداً، ولا يتمكن أي عامل من إطفاءه وإخماد نوره، وأنه من
الوضوح بحيث صارَ في مشكاة والمشكاة مع كونها تجمع النور والضوء
وتركزه لشدة وضوحه، فإنها تحمل في داخلها مصباح ونحن نعرف أن
المصباح يعطي النور إشعاعاً وضياءً وانتشاراً أكثر من غيره، ثم نجد
المصباح في زجاج، ونعرف أيضاً أن الزجاج تضيي جواً من الرؤية
الواضحة للنور والمصباح بحيث حتى الأعمى يحس به ويشعر بوجوده
وضيائه، والمثال لا يتوقف ولا ينتهي وإنما يستمر مع الناس يوضح لهم،
ويهديهم إلى مكان هذا النور العظيم، والزجاجة كأنها كوكب دري وهذا
الكوكب فيه خصوصية الارتفاع والسمو، والنور والضياء بحيث لا
تستعصي رؤيته على أحد من العباد.. ثم انظروا إلى الوقود الذي جعل
الكوكب الدريّ هذا يتوقد متألقاً مشعاً منيراً يضيء دورب السماوات
والأرض وطرق الدنيا والآخرة، يقول عنه بأنه يوقد من شجرة مباركة
زيتونة، وهنا يواجهنا نوع آخر من النور والضياء ينطلق من شجرة
مباركة زيتونة زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نورٌ على نور يهدي الله
لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم.

وهنا لاحظوا النقلة الرائعة لهذا النور أين هو؟ يقول: في بيوتِ أذن
الله أن ترفع ويذكر الله فيها اسمه وهذه البيوت هي بيوت محمد وعلي
وفاطمة والحسن والحسين إلى الإمام القائم المنتظر صلوات الله
وسلامه عليهم أجمعين.

إذاً: فنور وارتفاع لمعرفة أهل البيت ومعرفة حقهم ويظهر من بينهم
الإمام الحسين عليه السلام وهو المصباح الذي أضاءت له وبه الآفاق والقلوب،
بل أن أظلت العرش التي اقشعرت لدم صاحب هذا النور مع أظلت

الخلائق هي الأخرى استتارت به واستعذبت به فكان نور الحسين ﷺ آية من الآيات الكبرى التي رآها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة الإسراء والمعراج كما قال الحق: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ (١) يقول ﷺ: رأيت مكتوباً عن يمين العرش (إن الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة).

ونقل لكم نص الحديث من عيون أخبار الرضا يقول فيه:
«إن الحسين مصباح هدى، وسفينة نجاة وإمام خير ويمن وعز وفخر ويحر علم وذخر».

وفي هذا الحديث ملاحظات وتأملات لا بد من ذكرها وتسجيلها للمعرفة والوضوح.

ومنها: إن الحسين ﷺ هو أكبر وأعظم من أن يعرفه أو يعرفه أحد من البشر، ولذلك نجد الله عز وجل هو بنفسه تولى تعريف الحسين ﷺ حين عرج بأعظم وأكبر وأقدس شخصية بالوجود وهو الرسول الأعظم محمد ﷺ ليريه من آيات ربه الكبرى، ورأى على يمين العرش: (إن الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة).

على أننا نعرف أن كل ما جاء به الأنبياء والرسل لا يعدوا هاتين المسألتين: هُدى وسفينة نجاة، والحسين ﷺ رمز الهداية والنجاة للعالمين جميعاً.

ومنها: إن الحياة المنقطعة عن مناهج الوحي والأنبياء إنما هي بحرٌ من الظلمات كما يصورها القرآن الكريم في سورة النور حيث يقول:

(١) النجم / ١٨.



﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ
بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن
نُّورٍ ۝ (١) ﴾

وظلام البحر غير ظلام البر، فظلام البر لا يحتاج إلى أكثر من النور
لكشف الطريق، في حين أن ظلام البحر يقتضي وجود النور والسفينة
للنجاة من الفرق والهلاك، والحسين عليه السلام: مصباح الهدى وسفينة
النجاة.

هذا بالإضافة إلى حديث السفينة المعروف عن الرسول الأعظم
محمد ﷺ والذي رواه الناس كافة وروته كتب الصحاح: «مثل أهل بيتي
فيكم كمثال سفينة نوح من ركبها نجي ومن تخلف عنها غرق وهوى».

أقول: أن هذا الحديث لا يشذ عنه الحسين عليه السلام لأنه من أهل البيت
الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

إذاً: فجاء التأكيد على أن الحسين سفينة النجاة مرتين، مرة في
الحديث الأول حديث المصباح، ومرة في حديث السفينة هذا، وكل ذلك
يدل على أننا إذا أردنا أن نعرف الحسين عليه السلام حق معرفته، يجب أن
نرتفع بأرواحنا وعقولنا لننظر ما نحن صانعون اتجاه هذا الواجب
الكبير والرسالة العظيمة، والهدى الذي اهتزت له أركان العرش وأظلته
ولأن الناس حالات ودرجات ومنازل في معرفتهم للحسين عليه السلام فإن كل
واحد منهم يأخذ بمقدار ما يعرف للحسين من شموخ وعظمة وعزة
وعلم وحلم وسماحة وفصاحة وشجاعة ومحبة في قلوب المؤمنين

مشتعلة لا تنطفئ أبداً، خصه الله بها دون البشر لما لاقاه من عظيم المصيبة وجليل الرزية التي مطرت لهولها السماء دماً وبكت لها الخلائق كلها، ومن هنا كانت أجوبة الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام متفاوتة على سؤال واحد في زيارة الحسين عليه السلام حسب تفاوت درجات الناس الزائرين ومنازلهم ومعرفتهم بالحسين سلام الله عليه فهذا زائر يصف الإمام الصادق عليه السلام زيارته بأنها تعدل حجة وعمرة مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم-، وآخر يؤكد الإمام بأن زيارته تعدل عشرة حجج وعشرة عمرات مع النبي روي فده، في حين يرتفع عدد الحجج والعمرة لكل زيارة بقدر ما يرتفع حب الزائر للحسين عليه السلام ومعرفته به، فتصل إلى أكثر من ألف حجة وعمرة وغزوة مع رسول الله ﷺ علماً أن الحجج والعمرة هنا هو المندوب المستحب، وليس الواجب ولا الفريضة، لأن الفريضة الواجبة في الحج هي مرة واحدة في العمر كله، وليس ألف ولا عشرة ولا مائة في حين يأتي العدد في ثواب زيارة الإمام المظلوم أبي عبدالله الحسين عليه السلام فإنه يشير إلى الحج المندوب لا الواجب هذا بالإضافة إلى أن الحسين عليه السلام بمقتله ومصرعه ويومه في كربلاء حفظ الحج ومناسكه، والإسلام وشرائعه من الضياع والتمزق والدمار وإلا فأن الشجرة الملعونة في القرآن قد خططت لضرب الإسلام ونسفه من الأساس كما أعلى ذلك زعمائها من أبي سفيان ومعاوية ويزيد إلى مروان وآل مروان وآل زياد عليهم اللعنة وسوء العذاب، فقد قال يزيد بن معاوية (لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل).

ويقول بولص سلامة:

أخفض الصوت في آذان الصباح	رافع الصوت داعياً للفلاح
عن الله بالقـيـان الملاح	وترفق بصاحب العرش مشغولاً
بين كـفي يزيد نهلة راح	ألف الله أكبر لا تساوي
مثل طي الهيب في المصباح	تتلظى في الكأس شعلة خمر
فلم تدنس بلثم ولا بماء قراح	عنست في الدنان بـكراً
وإن شئت فاعتصم بالبحاح	أيها المؤذن المبكر لا تهتف

ومن هنا كان الله عز وجل -كما ورد في الخبر- ينظر إلى زوار الحسين يوم عرفة قبل نظره إلى أهل عرفة يوم الحج الأكبر، وليس في هذا شيء من المبالغة أو الخروج من الحقيقة والواقع وذلك إن يوم الحسين ﷺ هو الذي ركز وأرسى دعائم الحج.

يضاف إلى ذلك أن الموقف في يوم عرفة لا ينعقد إلا بوجود حجة الله في الخلق وإمام الهدى صاحب العصر والزمان صلوات الله وسلامه عليه والإمام في يوم عرفة يكون عند الحسين ﷺ في الصباح، ثم ينتقل إلى جبل عرفة ليبدأ الموقف عند الزوال، وهذا أمر لا يحتمله إلا قلب إنسان امتحنه الله للتقوى كما قال الحديث المروي عنهم سلام الله عليهم: «إن حديثنا صعب مستصعب.. الخ».

هذا وقد جاء في التفسير والتأويل عن مدرسة أهل البيت -عليهم السلام- إن آية النور هذه تخص الصديقة فاطمة الزهراء سلام الله

عليها، فهي المشكاة التي ظهر فيها الحق جلياً وواضحاً، والمصباح الذي جاء في الآية مرتين يشير إلى الحسن والحسين سلام الله عليهما على أن حديث الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة رواه الأقربون والأبعدون، علماً بأن الحديث -أي حديث- حين يأتي وله أصل في القرآن فإنه يلزم المسلمين جميعاً بل الأمة كافة بالأخذ به وتطبيقه والمشي في هداه وحديث: إن الحسين مصباح الهدى، نجد له أصلاً في آية النور ﴿مِثْلُ نُوْرِهِ كَمِثْكَاةٍ فِيْهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ﴾ فجاءت كلمة المصباح مرتين في هذه الآية والمراد به الحسن والحسين عليهما السلام... على أن الرسول الأعظم محمداً ﷺ وجهنا هو وأهل بيته الطيبين إلى أن نعرض كل فكر وحديث وقول وفعل على القرآن الكريم لأنه هو الميزان الذي يبين الحق والباطل فيه وهذا هو الحق، فما وافق القرآن أخذناه وما خالف القرآن رفضناه وحديث المصباح يوافق القرآن الكريم كما أن حديث السفينة وحديث المنزلة وكل الأحاديث الشريفة التي تروي فضل أهل البيت الطيبين نجد لها جذوراً وأصولاً في القرآن الكريم، ولا غرابة في ذلك حين نقرأ حديث الثقلين الذي يقول فيه المصطفى ﷺ (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي وقد نبأني اللطيف الخبير إنهما لن يفترقا حتى يرذا عليّ الحوض).. فأهل البيت -وفقاً لهذا الحديث- هم عدل القرآن الكريم وليس في كلامهم ولا في مواقفهم ولا في أقوالهم ولا في أفعالهم ما يخالف القرآن بل إنهم تجسيد حي للقرآن الكريم.

ومن هنا جاءت كتب الحديث والتفسير تبين أن آية النور هي في



بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، وهذا معناه إن المشكاة والمصباح والشجرة المباركة والكوكب الدرّي كلها أسماء وإشارات لأشخاص هم في هذه البيوت التي هدى الله الناس إليها كما في القرآن الكريم.

ولكي تتضح هذه الصورة أكثر وتبدو معالم كربلاء ويوم عاشوراء متألفة في سماء الحق فإنه لا بد من ذكر النقاط التالية في إيجاز واقتضاب:

تفاوت حالات الناس ودرجاتهم في الفهم والاستيعاب في تلقي الأشياء والحقائق من واحد إلى آخر تفاوتاً كبيراً وعريضاً... وبالمثل: فالناس اجتماعياً لا يخرجون عن ستة حالات: العلم والجهل والغنى والفقر والصحة والمرض، هذا من الناحية الاجتماعية، أما من الناحية الروحية أو الروحانية والنفسية فلهم كذلك ست حالات: اليقين، والشك والصحة والمرض والعلم والجهل..

وبدنياً أي من ناحية الجسم لهم كذلك ست حالات: النوم واليقظة والصحة والمرض، والموت والحياة.. ونفس الشيء يقال في جنود العقل وجنود الجهل.. ولكي تستقيم الحياة لا بد من حصول معادلة وموازنة بين هذه الحالات وتلك الدرجات وذلك حتى يملأ السابق اللاحق ويقوم بملء الفراغ الذي ينشأ من ارتباك واضطراب الموازين الاجتماعية أحياناً.. فنحن نعرف أن العلم سابق الجهل فهو قبل الجهل والغنى قبل الفقر، والصحة قبل المرض، وجنود العقل قبل جنود الجهل وجبهة الحق تشكلت قبل جبهة الباطل، والأصل في الحياة العلم والحق والغنى والصحة لا الجهل والباطل والفقر والمرض، فما وجود السلبيات

إلا استثناء يؤكد القاعدة، واقروا هذا الحديث الذي يؤكد هذه المعادلة في الحياة والذي جاء على لسان أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام: «قوام الدين والدنيا بأربع: عالم مستعمل علمه وجاهل لا يستنكف أن يتعلم، وجواد لا يبخل بمعروفه، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه، فإذا ضيع العالم علمه، واستنكف الجاهل أن يتعلم، وإذا بخل الغني بمعروفه، باع الفقير آخرته بدنياه».

وكذلك الصحيح والسقيم بحيث قام هذا التكليف على هذا الأساس أساس الصحة في العقل والبدن وحين تسقط طاقة الصحة من البدن أو من العقل يسقط التكليف معها، وحين تسقط الصحة من أي عضو بالبدن يسقط التكليف الشرعي المختص بذلك العضو أو بتلك الجارحة والأمثلة كثيرة في هذا المجال، فالمعدة إذا كانت ضعيفة أو مصابة بداء يسقط الصيام عن الشخص الذي يعاني هذا الداء، والذي لا يملك مالاً يسقط عنه الخمس والزكاة، والذي لا يملك الاستطاعة في المال والبدن يسقط عنه الحج وهكذا في كل البواقي.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ... الخ﴾. (١)

على هذا التفاوت يصحب الناس ويرافقهم في كل منازل الآخرة إلى يوم القيامة.. ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾. (٢)

أي حتى في عالم البرزخ والقبر والنار والجنة، فهؤلاء أصحاب الجنة

(١) النور/ ٦١.

(٢) الإسراء/ ٢١.

يتزاورون فيما بينهم ولكن لكل درجات فالأعلى يزور الأدنى ولكن الأقل درجة لا يستطيع الارتفاع لزيارة من هو أرفع درجة منه وأكبر تفضيلاً، وهكذا في سائر المنازل والدرجات.

على أن هناك نقطة بالغة الأهمية وهي أنه في مدرسة أهل البيت عليه السلام يستطيع الداخل فيها أن يقطع مراحل كبيرة في السمو والارتفاع والصعود في الدرجات العلى والمنازل الكبرى.

يقول الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «اعرف يا بني- منازل شيعتنا على قدر معرفتهم لرواياتنا وأحاديثنا فمعرفة الرواية هي الدراية، وبالدرايات للروايات يعلو المؤمن إلى أقصى درجات الإيمان».

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «أنتم أفقه الناس إذا عرفتم معاني كلامنا».

ولكن مهما يرتفع الإنسان المؤمن في تلك المنازل فإنه يظل بينه وبين الأولياء مسافات كبيرة ودرجات عالية لا يمكن قطعها وتذليلها إلا بالرجوع إلى أهل البيت عليه السلام ومحبتهم ومودتهم، والطاعة الكاملة لهم، وتوطين النفس على التضحية من أجلهم لأنهم هم أهل الحق والعدل والرحمة والإيمان، وليس غيرهم، يقول الإمام الحسين عليه السلام مخاطباً الناس يوم خروجه من مكة إلى العراق بقوله: «ألا ومن كان منكم باذلاً فينا مهجته وموطناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا فإني راحل مصباحاً لإنشاء الله».

وهذا معنى الرحلة مع الحسين عليه السلام فإنها تعني توطين النفس على

بذل المهجة في سبيل الرشاد مع سيد شباب أهل الجنة الإمام المظلوم
أبي عبدالله الحسين عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

وقد سار مع الحسين في رحلته هذه خلق كثير على مدى التاريخ
ومنذ مصرع إمام الهدى في كربلاء صلوات الله وسلامه عليه وهذه
القافلة تجري تقطع طريقها إلى الحق والعدل والعزة والكرامة، بإحياء
ذكرى الحسين عليه السلام، وبإقامة مبادئ الحسين وأقامة مآتم الحزن
والعزاء والالطم والبكاء وتعظيم شعائر الحسين عليه السلام لأن شعائر
الحسين هي شعائر الله ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (١).

والإمام الحسين هو ثار الله وابن ثاره، وقتيل الله وابن قتيله، فإذا
كان هو ثار الله وقتيل الله فشعائره هي شعائر الله بلا شك ولا ريب،
ولا يعظم هذه الشعائر إلا أصحاب القلوب العظيمة والنفوس الكبيرة
التي حفظت عهد النبي بأهل بيته الكرام وخصوصاً بحب الحسين
 وإقامة العزاء عليه.. وإذا كانت السماء تمطر دماً على الحسين كما
روى ذلك الخاص والعام ولا يجهل هذه الحقيقة إلا كل من في قلبه
مرض وفي نفسه غرض، وإلا فالكُتّاب من السنة والشيعة ذكروا هذه
الحقائق إن السماء مطرت دماً يوم قتل الحسين عليه السلام، وقد ذكرت هذا
الأمر بطلة كربلاء العقيلة زينب ابنة علي بن أبي طالب أخت الحسن
والحسين وبنت الإمام وعمّة الإمام هذه الخالدة الطاهرة ذكرت في
خطبتها إن السماء مطرت دماً يوم عاشوراء وذلك حين وجهت خطابها
إلى أهل الكوفة قائلة:

(١) الحج/ ٣٢.

وهنا ملاحظة جديرة بالاهتمام هي أن الإمام الصادق عليه السلام يريد أن يُعرف الحسين عليه السلام للعالم من خلال دمه الطاهر، وإذا كان دمه له هذه المكانة والمنزلة فما بالكم بروحه ونفسه وعقله؟

وحديث القارورة يرويه المسلمون كافة، قارورة أم سلمة التي جعل فيها النبي قبضة من تراب كربلاء جاء بها جبرائيل ينعى الحسين ويكي لمقتله وكان الحسين يومها في سن الثالثة من العمر، وذات مرة نزل جبرائيل يقول للنبي هذا تراب يهرق فيه دم أحد ولديك، ولم يقل له من هو كما يروي هذه الرواية الخوارزمي في مقتل الحسين عليه السلام يقول: فأخذها النبي ﷺ وشمها ففاضت عيناه بالدموع وقال لجبرائيل: هذه رائحة ابني الحسين عليه السلام، فأخبره جبرائيل إنها من تراب كربلاء. وعلى ذكر تربة الحسين ومطر السماء دماً أنقل لكم هذه الملاحظة التي استفدتها من القرآن الكريم وهو يقص علينا من نبأ موسى وفرعون وبني إسرائيل، فقد ذكر القرآن إن الآيات التي نزلت على موسى أربع عشرة آية: فأولها تسع آيات وآخرها خمس آيات: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ... إلخ﴾ ^(١) ثم يقول: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ﴾ ^(٢) وكان لكل آية وقت وحين من الزمن قد تطول فترة الآية إلى أكثر من شهر كما جاءت بذلك الروايات فقد ذكرت إن آية الدم استمرت أياماً وليالي وأشهرًا كان النيل فيها يجري بالدم وكانت السماء ملبدة بسحاب أحمر وكان كل شيء مصبوغاً بالدم، وهنا لاحظوا دقة التعبير إن آية الدم هي آخر آية

(١) الإسراء/ ١٠١.

(٢) الأعراف/ ١٣٣.

ورقمها الرابعة عشرة وسمعت الله عز وجل يقول في هذه الآية إن كل آية أكبر من أختها ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾^(١) ووفقاً لهذا التسلسل الدقيق فإن آية الدم هي أكبر آية في هذه الآيات التي نزلت على نبي الله موسى بن عمران على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام..

وكما قال الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «إن يوم الحسين أقرح جفوننا» وأقرح جفوننا معناه إن البكاء على الحسين جرح جفوننا وإذا كان الجرح في عين الإمام المعصوم جائزاً وسائفاً من أجل الحسين عليه السلام والعين أرق جهاز في الرأس فإن جرح الأبدان والرؤوس أولى ثم أولى لشيعه الحسين الأحرار في ذكرى كربلاء وعاشوراء، وهذا بحث جميل وعميق وشيق ولكني أتركه إلى وقت آخر بإذن الله تعالى. على أن المرحوم العلامة الشيخ هادي الكربلائي وهو مدرسة مستقلة ذات أبعاد روحانية في المنبر الحسيني قد ترك لنا هذا الاختيار الموفق من أدب الطف وشعراء كربلاء المقدسة وكما قال الشاعر:

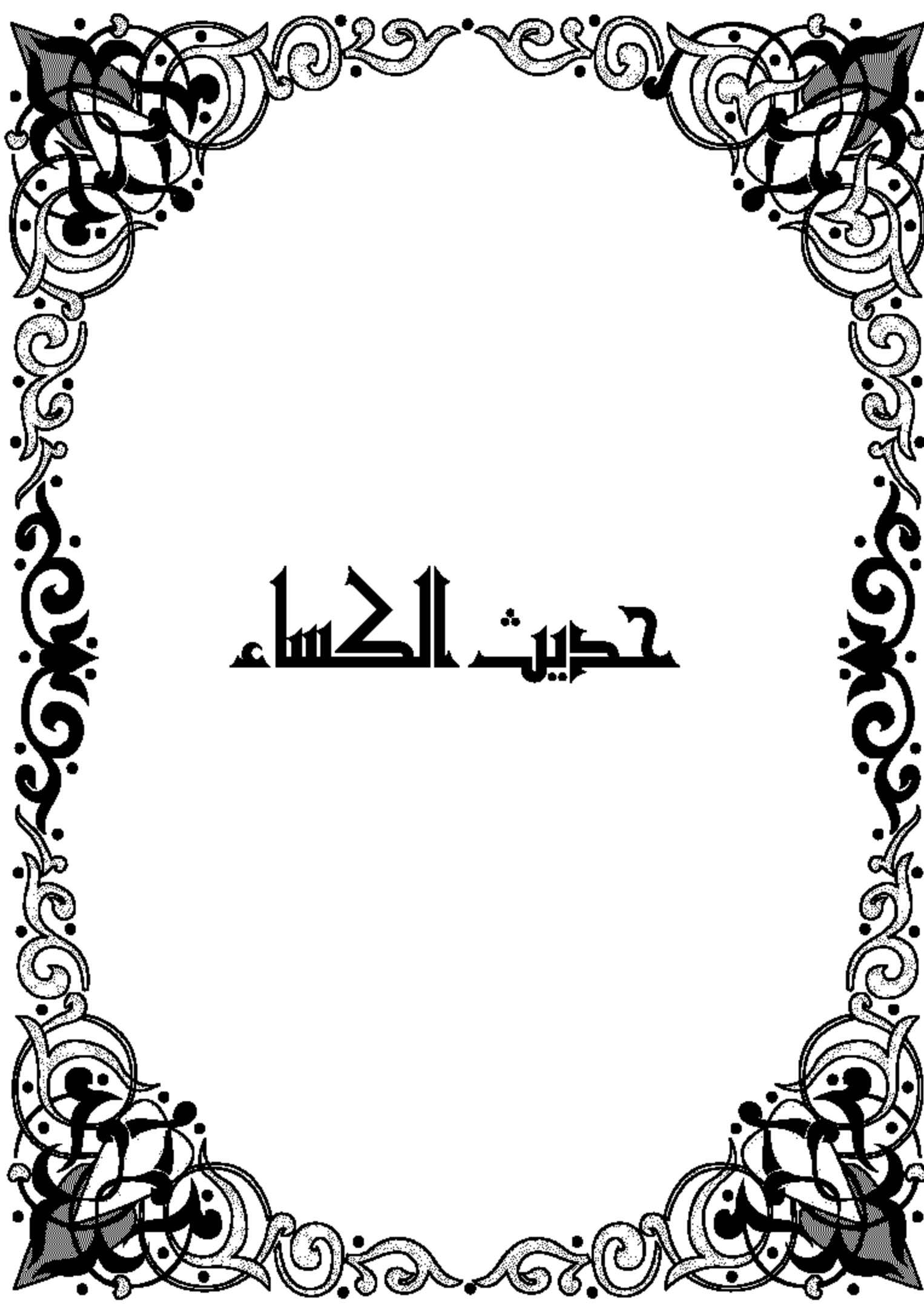
قد عرفناك باختيارك إذ كان دليلاً على اللبيب اختياره
ولا شك أنها خطوة رائدة في سبيل النهوض بالمنبر الحسيني وإعطاء الخطباء لونا حزيناً من الشعر والرثاء لأن الشيخ هادي الكربلائي رحمة الله عليه كان موفقاً ليس فقط في اختيار الشعر للقراءة وإنما في إعطاء حقه في الصوت الحزين المؤثر على أننا نشير إلى حقيقة لا بد من ذكرها هنا، وهي أنه وقع خطأ وسهو في مقدمة

(١) الزخرف/ ٤٨.



كتاب الشيخ هادي الكربلائي مدرسة المنبر الحسيني وذلك بالإشارة إلى أن الأفكار التي طبعت في مقدمة الكتاب تحت عنوان من وحي مجالس الشيخ هادي الكربلائي، في الحقيقة لم تكن من وحي منابره وإنما كانت من وحي منابر بعض تلامذته فلذلك لا بد من الإشارة إلى هذه المسألة علماً بأن هناك سجلاً حافلاً وملفاً كبيراً من وحي مجالس الشيخ هادي الكربلائي وهو في طريقه إلى المطبعة وسيرى النور قريباً إنشاء الله تعالى. وما يقال في الشيخ هادي الكربلائي يقال في الشيخ عبدالزهراء الكعبي صاحب الصوت الحزين الذي يعبر إلى الضفة الأخرى من القلوب، فإن مثل هؤلاء الخطباء يعدون بحق وصدق من الأبطال والأولياء الذين عرفوا حق المنبر الحسيني كما عرفوا حق الإمام الحسين عليه السلام فبذلوا مهجهم دونه.

وأسأل الله العلي القدير أن يوفقنا لخدمة أبي عبدالله الحسين عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.



تحیث الخطاء

حديث الكساء : رؤية حضارية

✽ فاطمة أم أبيها:

كانت فاطمة الزهراء - صلوات الله وسلامه عليها - ركناً وثيقاً لأبيها الرسول الأعظم محمد بن عبدالله ﷺ يأوي إليه عند الحاجة.

فمنذ أيام الطفولة، وفاطمة ملازمة لا تفارقه لحظة واحدة.. فحين يحثو السفهاء على رأسه التراب، كانت فاطمة تتفض التراب عن رأس النبي الأكرم، وحين يلقي السفهاء الفرث والدم على رأس أبيها محمد، وهو قائم يصلي في البيت الحرام تحت ظلال الكعبة، كانت تقوم فاطمة بغسل الدم والتراب عن وجه الرسول، وهي تبكي، فيقول لها النبي: لا بأس عليك يا بنيّة، ثم ينشف دموعها بيده الكريمة ويأخذها عائداً إلى دار خديجة.

وحين تضع حمالة الحطب، الأشواك والحجارة في طريق النبي، كانت فاطمة تتحني لتلتقط الشوك؛ وحسك السعدان من أقدام أبيها العظيم. وفي المعارك الضارية التي كان يشتد فيها القتال، كمعركة أحد مثلاً، كانت فاطمة الزهراء - سلام الله عليها - تقف وراء أبيها النبي، تشد جراحه، وتروي ظمأه، وتغسل الدماء عن وجهه، كما كانت تعالج جراح بعلاها عليّ، وتمسح عنه الهموم والأحزان. أجل.. إن نظرة واحدة نلقيها على التاريخ الصحيح، ترينا بوضوح أن فاطمة كانت ملجأ لأبيها بل أن تكون ملجأ لأمتها! حتى أصبح النبي لا يشكو جراحه إلا لفاطمة.. ولا يبث أحزانه إلا إليها، هي وحدها دون غيرها من النساء.. لأنه كان

يجد في ابنته الصديقة فاطمة الزهراء، الركن الوثيق الذي يأوي إليه..
والملاجئ الدافئ الذي يستريح تحت ظله، فما يكاد يصيبه أذى حتى
يسرع إلى بيت فاطمة..!

ولم لا؟ ألم تكن فاطمة أم أبيها؟... ألم تكن هي الواحة الخضراء
التي يشم منها عطر الجنة..؟ ألم تكن عزاء وسلوة للإمام عليّ أمير
المؤمنين، حين قال: كنت إذا نظرت إلى فاطمة انجلت عني الهموم
والأحزان؟ أجل. إن نظرة واحدة يلقيها النبي على ابنته فاطمة، تكفي
لإزالة الهموم والأحزان عن قلب الرسول.. فلا ألم ولا هم ولا حزن مع
فاطمة.. وإنما هناك في بيت فاطمة.. انطلاق وإيمان، وجهاد.

وهكذا اعتاد النبي أن يذهب إلى بيتها كلما وجد في بدنه شيئاً من
الضعف، أو قليلاً من الألم.. وما يكاد يدخل عليها حتى يتلأأ وجهه
نوراً ويزداد تألقاً في بيت فاطمة.

ومن أراد المزيد فليأت معي.. ننصت بخشوع إلى فاطمة وهي تتقل
إلينا حديث الكساء، وقصته المقدسة فتقول: «دخل عليّ أبي رسول الله
ﷺ في بعض الأيام فقال: السلام عليك يا فاطمة، فقلت: وعليك
السلام، فقال: إني أجد في بدني ضعفاً، فقلت له: أعيذك بالله يا أبتاه
من الضعف. فقال: يا فاطمة آتيني بالكساء اليماني وغطيني به، قالت
فاطمة ^{عليها السلام}: فأتيته بالكساء اليماني فغطيته به وصرت أنظر إليه، وإذا
وجهه يتلأأ كأنه البدر في ليلة تمامه وكمال^(١).

هذا هو المقطع الأول من حديث الكساء الشهير.. ولكي تبدو الصورة

(١) فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد ص ١٠٩.



أكثر وضوحاً فإنه لابد لنا من وقفة تأمل نستوعب فيها معاني الحديث هذا، ونفقه مغزاه وغايته السامية.

أولاً: وقبل كل شيء، يجب أن نعرف أن حديث الكساء هو الإطار الخارجي لآية التطهير التي يقول فيها الحق سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (١).

وهذا يعني أن الرسول لما طلب الكساء من فاطمة كان يتهيأ لاستقبال الوحي، وتلقي أمر عظيم.. وأي أمر أعظم من محمد وأهل بيته الطيبين الطاهرين؟

فتحن نعرف أن النبي كانت تعتريه حالة خاصة به، عند نزول الوحي، يجد معها ضعفاً في بدنه، فيطلب دثاراً، كما كان يقول لأهله: دثروني.. دثروني.. وقد سجل القرآن الكريم هذه الحالة التي كانت تعترى النبي عند نزول الوحي، في سورتين هما: سورة المزمل، وسورة المدثر، وذلك أن المدثر مأخوذة من التدثر وهو التغطي بالثياب.. وقد كان النبي ﷺ على هذه الحالة، فخطب بوصف مأخوذ من حالة تأنيساً وملاطفة، نظير قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ﴾ (٢).

وأصل المتزمل اسم فاعل من التزمل بمعنى التلفف والتفطي بالثوب (٣).

إذاً: فالنبي الأكرم، حين طلب من ابنته الصديقة فاطمة الزهراء، أن

(١) الأحزاب/٣٣.

(٢) المزمل/١.

(٣) راجع تفسير الميزان.

تأتيه بالكساء اليماني فإنه إنما كان في حالة تلقي الوحي، واستقبال أمر عظيم من الله عزوجل.. أجل.. فالرسول لم يكن مصاباً في بدنه. ولا فيه ألم من جراء مرض أحاط به.. وإنما هي حالة ضعف شديدة كانت تأخذه، بفعل نزول الوحي عليه!

ولا غرابة في ذلك ولا عجب، إذا عرفنا أن الرسالة التي يحملها الرسول، هي رسالة ثقيلة تتوء السماوات والأرض بحملها، بل إنها رسالة لو نزلت على الجبال لصدعتها وحولتها إلى رماد.. أقول إذا عرفنا ذلك أدركنا السر الكامن وراء هذا الضعف الذي وجده الرسول في بدنه.. ولاحظوا جيداً أنه ضعف في البدن وليس في الروح، ولا في الفكر، وإنما هو في البدن فقط.. لأن البدن شيء مادي، والرسول بشر مثل سائر البشر في بدنه، يتألم ويجوع ويعطش وينام.. كل هذا في بدنه الشريف، أما في عقله، وروحه، وفكره وقلبه.. فهو نبي معصوم يوحى إليه من دون بقية البشر ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ (١).

فهو بشر مثلنا، وليس بشراً مثلنا في بشريته، وبدنه.. ولكنه ليس مثلنا في مقامه وعصمته وقريه من الله سبحانه وتعالى.. فإذا وجد الرسول في بدنه ضعفاً، فمعنى ذلك أن البدن له حالة بشرية مادية تتأثر بنزول الوحي فتضعف وتمرض.

إذاً: فالنبي محمد ﷺ شأنه شأن كل الناس، في بدنه، وبشريته، وحاجاته الجسدية.. أما في الروح والقلب فيوحى إليه.. وكلمة: يوحى

(١) الكهف/١١٠.



إليّ، فصلت الرسول عن سائر الناس كمعصوم. ولهذا نجد الزهراء فاطمة - سلام الله عليها - تقول: «وصرت أنظر إليه وإذا وجهه يتلأل كأنه البدر في ليلة تمامه وكمال» ولكن لماذا صارت تنظر إليه؟.. لأنه في حالة تلقي الوحي.

على أن كلمة: «وصرت أنظر إليه» تدل على أن فاطمة كانت تراقب عملية نزول الوحي على أبيها في تلك اللحظة.. كما تدل على أنها كانت معه تحت الكساء، قبل أن يأتي علي والحسن والحسين.. ولكنها خرجت من تحت الكساء لتستقبل بعلمها وولديها، ثم تدخل معهم تحت الكساء كما هو معروف لدى حفاظ حديث الكساء، وإلا فكيف تقول فاطمة: وصرت أنظر إليه وإذا وجهه يتلأل كأنه البدر؟ بينما هي خارج الكساء! إن كلمتها هذه، وهي أقوى دليل على أنها دخلت مع أبيها في البداية، ثم خرجت لاستقبال علي والحسن والحسين، لتعود في النهاية تحت الكساء معهم جميعاً.

والذي يقرأ كتب التفسير، والحديث قراءة واعية متأنية - طبعاً بخصوص آية التطهير - يدرك أن هذه الآية الكريمة، كانت قد نزلت على الرسول الأعظم، أكثر من مرة.. لقد كررت السماء نزولها على النبي، لتؤكد منزلة أهل البيت، ومكانتهم في الإسلام، الأمر الذي جعل النبي يكررها على مسامع الناس، مراراً كثيرة.. وكان يقرأها على باب دار فاطمة أكثر من ستة أشهر، صبيحة كل يوم عند صلاة الفجر.

* صرخة الحق:

كلما مشينا مشية وعي في ظلال حديث الكساء هذا انفتحت أمامنا أبواب من العلم والإيمان.. فمثلاً حين نقرأ رواية تقول: جلل رسول الله أهل بيته بكساء كان مع فاطمة تطله علينا فكرة من نفس هذه الرواية تقول: إنما خصهم بالكساء دون سائر أهل بته، ليؤكد أن أهل البيت هم هؤلاء الخمسة أصحاب الكساء دون سواهم من نساء النبي وعشيرته.

إن وضع الكساء عليهم هو محاولة صادقة وجادة لتوضيح صورتهم في الأذهان والقلوب، دون أن يشترك معهم أحد، حتى من زوجات النبي. وبالفعل، فقد اقتصر العدد على هؤلاء الخمسة، وصاروا معروفين بالخمسة أصحاب الكساء، وهم محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين - عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام - فلولا الكساء الذي خصهم من عموم أهل البيت، لكانت آية التطهير منطبقة وجارية على جميع من في دور آل محمد.. وليس هناك دليل أقوى من حادثة أم سلمة، على أن أهل الكساء هم هؤلاء الخمسة دون غيرهم من الناس.

فأم سلمة زوجة النبي، التي كانت قمة في التقوى والعلم والفضل.. لما أرادت الدخول معهم وقالت: وأنا منهم يا رسول الله قال النبي ﷺ: لا.. وإنك على خير، ثم جذب طرف الكساء من يدها، ليعلمها صرخة مدوية: إن آية التطهير لم تنزل إلا فيّ وفي علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

خواطر كسائية

* أولاً - نص الحديث:

حديث الكساء، هو الحديث الذي رواه المسلمون كافة، ولكن بصورة مختلفة. أما جوهر الحديث فهو لدى المؤرخين، ومفاده: أن الرسول الأعظم - محمد ﷺ جمع أهل بيته وهم علي وفاطمة والحسن والحسين، ثم جلّهم بكساء كان مع فاطمة، ورفع يديه بالدعاء فقال:

«اللهم إن هؤلاء أهل بيتي وخاصتي وحامتي، لحمهم لحمي ودمهم دمي، يؤلمني ما يؤلمهم.. ويحزنني ما يحزنهم، أنا حرب لمن حاربهم وسلم لمن سالمهم، وعدو لمن عاداهم، ومحِب لمن أحبهم إنهم مني وأنا منهم فاجعل صلواتك وبركاتك ورحمتك وغفرانك ورضوانك عليّ وعليهم، واذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً» وبعد دعاء النبي نزل جبرائيل وهو يتلو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^(١).

* ثانياً - انسجامه مع حقائق القرآن:

مصادقية حديث الكساء، توافقه مع القرآن الكريم، وانطباقه على فكر الإسلام.. فأنت إذا أخذت الحديث، وحرفته كلمة.. كلمة.. أمام القرآن فإنك ستجد كل كلمة لها جذورها، وأصولها الثابتة في التسلسل الفكري في القرآن الكريم.

(١) الأحزاب/٣٣.



إنه ينطبق على القرآن شكلاً ومضموناً، بحيث حتى الحقائق العلمية التي وردت في هذا الحديث، تجدها مطابقة لحقائق القرآن بالكامل، خذ مثلاً على ذلك الأرض المدحية، والقمر المنير، والشمس المضيئة، تجد كل كلمة تشير إلى جانب علمي دقيق، فوصف الأرض بالدحو المأخوذ من الدحية وهي البيضة، فيه إشارة إلى كروية الأرض كما جاء في القرآن الكريم والأرض بعد ذلك دحاها أي جعلها على شكل كروي يشبه الدحية.. وهي البيضة، أي تدور في حركتين متتاليتين، واحدة مركزية تعطي الليل والنهار.. في حين أن الثانية انتقالية، تنشأ الفصول الأربعة من جرائها: الصيف والشتاء والخريف. وفي الحديث جاء النور مع القمر.. بينما جاء الضياء مع الشمس، وهي إشارة علمية رائعة. لأن النور خاص بالكواكب والضياء بالنجوم.. ونحن نعرف أن الشمس نجم.. والقمر كوكب، فيكون النور من القمر لأنه ليس له ضوء ذاتي.. بخلاف الشمس التي فيها ضوء ذاتي يصدر منها بشكل طبيعي.

وفي القرآن الكريم حيث يتحدث عن الكواكب يصفها بالانتثار، بينما النجوم يعطيها صفة الانكدار فيقول: ﴿وَإِذَا الْكُوَاكِبُ انشَرتْ﴾^(١).

ويقول في مكان ثان: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرتْ﴾^(٢).

وكلنا نعرف أن الانكدار هو انطفاء الضوء.

(١) الانقطار/٢.

(٢) التكوير/٢.



* ثالثاً - فاطمة ملجأ لأبيها:

فاطمة هي الملجأ لأبيها الرسول، فإذا شعر بضعف أو ألم، أسرع إلى بيت فاطمة.. حيث يجد عندها الراحة والهدوء.. فإن النظر إلى وجه فاطمة، كان يمسح الهموم والأحزان عن قلب النبي... كما كان عليٌّ يأنس برؤية فاطمة الزهراء.. وفاطمة إنما لقبت بالزهراء، لأنها كانت تزهر لأبيها رسول الله كما تزهر لبعلمها علي أمير المؤمنين، فقد كان لها جمال يفوق الوصف، يستعصي على الحصر.

من أجل هذا الدفء المقدس، جاء النبي إلى فاطمة، دون غيرها من النساء وإلا فلماذا لم يذهب النبي إلى إحدى زوجاته، علماً بأن الرجل يشعر بالسكن عندما يأوي إلى زوجته ﴿وَلَقَدْ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾^(١).

هذا صحيح، ولكن النبي لم يبحث عن السكن الزوجي في هذا الموطن.. وإنما كان يبحث عن سكن الوحي.. سكن الطهر.. والعصمة.. سكن الرسالة التي عجزت السماوات والأرض والجبال عن حملها.

إن فاطمة كانت أم أبيها.. وهذا يعني أن النبي يشعر بالدفء والحنان والطمأنينة عندما يزور فاطمة، إنه يتزود منها بالطاقة، فهي مصدر الطاقة لرسول الله، أليست هي الكوثر الذي أعطاه الله عز وجل لنبيه الكريم؟ وهل الكوثر إلا العطاء؟

من هنا فإن الرسول الأكرم محمد ﷺ كان يستمد راحته النفسية من فاطمة.. كان يقبلها ثم يشم نحرها فيقول: إني أشم منها رائحة الجنة.. ومعنى ذلك أن فاطمة كانت تتضوع بعطر الجنة.

(١) الروم/٢١.



ومن هذه الطلعة الفكرية الرائعة، نستطيع أن نجد تفسيراً مقبولاً ومعقولاً، يبين لنا السر الكامن وراء حرص النبي على جعل فاطمة آخر من يودعها إذا أراد السفر وأول من يزورها إذا عاد من السفر، حتى ليكاد يشعر المرء أن النبي كان يعبئ نفسه بطاقة فاطمية لكل رحلة يريد أن يقطعها، وهكذا جعل النبي فاطمة القاعدة التي ينطلق منها ويرجع إليها.

هذا إذا كانت فاطمة في المدينة، وأبوها خارج المدينة، أما إذا أراد التوجه لميدان القتال والجهاد، فإن فاطمة لا تفارقه، بل تكاد تكون معه أينما حل ونزل، ترويه من الظمأ، وتداويه من الجراح، وتفسل عنه الدماء والآلام.

* رابعاً - خوفها على أبيها:

لما أخبرها أبوها بأنه يجد في بدنه ضعفاً، قالت فاطمة: أعيذك بالله يا أبتاه من الضعف، أي أنها أعادت أباهاً بالله القوي العزيز، أن يصيبه ضعف في طاقته، لأن العالم كله في حاجة إلى هذه الطاقة المحمدية الخلاقة التي تتضح رحمة وتتفجر خيراً وعطاءً.

* خامساً - أهل الكساء عطرون نور:

نجد في حديث الكساء صوراً رائعة لجمال أهل البيت، وعطرتهم الفواح، فلكل واحد منهم جمال لا يدانيه جمال، فالنبي كان وجهه يتلألأ كأنه البدر في ليلة تمامه وكماله، وعلي أمير المؤمنين نوره من نور النبي، حيث يقول: «وأنا من أحمد كالضوء من الضوء، أو الذراع من العضد»، أما الزهراء فهي اسم على مسمى، وهي تزهر لأهل السماء



كما تزهر النجوم لأهل الأرض. والشيء نفسه بالنسبة للحسن والحسين.. حيث كان لكل واحد منهما نور يتلأأ في الليلة الظلماء.

وفوق هذا الجمال والنور، كان لهم عطر فواح، ورائحة طيبة.. بل أكثر من ذلك، فقد كانت حبات عرق النبي تتضوع عطراً، كما كان عطر فاطمة عطر الجنة، والرسول حين يشتاقي إلى عطر الجنة، كان يشم ابنته فاطمة ويقول: أشم منها رائحة الجنة.. أما الحسن والحسين فهما ريحانتاه من الدنيا.. والريحانة تشم منها العطر.

ولذلك عندما أخبروه بأن إحدى زوجاته وضعت أنثى.. ولمح تأثراً في وجوه بعض أصحابه، قال لهم: «مالكُم: ريحانة أشمها ورزقها على الله» والشاهد في الحديث هو أن الريحانة للشم لأنها تعبق عطراً، وتضوع رائحة طيبة أحلى من المسك. تلك كانت رائحة أهل البيت.. وهذا هو حسنهم وجمالهم ونورهم. ولا عجب في ذلك. فإله قد طهرهم من الرجز.. وقد بلغوا الذرى الشاهقة في الكمال لأنهم قدوة ومثل أعلى للأجيال. من هنا كان أصحاب الكساء قمماً مضيئة في دروب الأحرار في العالم.

✽ سادسا - آداب أهل الكساء:

النبي الأعظم، قمة في الأخلاق، بحيث خاطبه الله عزوجل بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١).

ولما سألوا إحدى زوجاته عن أخلاقه قالت: «خلقه القرآن» أي أنه قرآن يمشي بين الناس. وهذه هي نقطة الانطلاق في هذا البحث.

(١) القلم/٤.



إن سلوك الإنسان هو الذي يحكي شخصيته، ويعكس صورته الداخلية.. بل إن السلوك هو انعكاس حقيقي لواقع الإنسان القابع في هذا البدن.. ولذلك كان سلوك النبي هو المعجزة الكبرى، إنه سلوك رقيق في موضع الرقة، وجبار في موضع الكبرياء.

أما أهل البيت فهم قطعة من رسول الله ﷺ ففاطمة بضعة منه، وعلي من النبي كالضوء من الضوء، والحسن والحسين ريحانته من الدنيا. حتى قال: حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسيناً. إذا عرفنا ذلك، أدركنا حقيقة السلوك التربوي الرائع، الذي كان يتعاطاه أهل البيت عليهم السلام داخل الأسرة الفاطمية.

وللتوضيح أنقل لكم الصورة التالية: كان الحسن في سن السادسة، عندما كان ينقل حديث جده الرسول إلى أمه فاطمة. حيث كان يذهب إلى المسجد، يسمع كلام رسول الله ﷺ ثم يرجع إلى الدار، قبل عودة أبيه علي من المسجد.. وحين يرجع علي يجد الوحي في بيت فاطمة بمعنى أنه يجد كل الآيات التي نزلت على رسول الله، يجدها عند فاطمة، فيسألها: كيف وصلت هذه الآيات النازلة للتو، كيف وصلت إليك يا بنت رسول الله؟ فتجيبه فاطمة: إنه ولدك الحسن ينقل ما يسمعه من جده النبي..!

فأثارت هذه الكلمة رغبة أبيه علي في أن يسمعه كيف يحدث أمه. وفي اليوم التالي أسرع علي إلى الدار قبل وصول ولده الحسن لحظات ليختبئ وراء الستر، حتى يسمع كلام ولده الحسن فيزداد راحة وسعادة، وذلك أن الإمام الحسن كان لا يتكلم أمام أبيه علي إلا قليلاً.. فما كانت إلا دقائق، وإذا بالحسن قد أقبل ودخل على أمه الزهراء، وكانت



مشغولة بشؤون الأسرة، فوقف في صحن الدار، كعادته كل يوم حيث ينطلق في الحديث.. ولكنه هذه المرة توقف عن الحديث بالكامل.. فقالت له أمه فاطمة: بنيّ تكلم يا نور عيني.. ما لي أراك ساكناً هكذا؟.. انطلق على سجيتك وعاداتك في كل يوم..؟ والآن.. أتدرون ماذا قال الحسن لأمه فاطمة؟.. اسمعوا جيداً.. قال: أماء لقد كلّ لسانني، وعجز بياني لعل سيدي يرعاني! أي أماء لا أدري لماذا ماتت الكلمات على شفتي، وانطفأت جذوة البيان، لا أدري لماذا عجزت عن الخطاب.. ولكن أشعر بهيبة سيدي علي أمير المؤمنين، قد أحاطتني وغمرتني، فعله موجود في البيت اليوم على غير عادته.

أما الإمام علي عليه السلام فما كاد أن يسمع هذا المنطق الملائكي من ولده الحسن، حتى أسرع إليه مهرولاً ثم ضمه إلى صدره وهو يقول ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ (١).

بهذا الأسلوب يتعامل الولد مع أبيه والوالد مع ولده في دار فاطمة. وذات صباح أجلس عليّ ابنته زينب الصغيرة في حجره، وكان لها من العمر أربع سنوات فقط.. ثم راح يحدثها عما سوف يجري عليها في واقعة الطف مع أخيها الحسين.. وإذا بها تقول: أبه أنا أعلم بذلك!..

قال: بنيّة من أين علمت؟

قالت: أمي فاطمة علمتني كي تهيتني لغد.

(١) آل عمران / ٣٣-٣٤.



أجل، بهذه الكيفية، وعلى هذه الصورة، النورانية كانت الحياة تجري داخل بيت فاطمة الزهراء - صلوات الله وسلامه عليها - ... فلا مشادة. ولا غضب.. ولا مواقف متشنجة، ولا قرارات إرتجالية تهز كيان الأسرة.. وإنما الأسرة تعيش في جو من الإيمان والسعادة والسمو.

وبعد هذه الصورة، صار في إمكاننا استيعاب المنهج التربوي المجيد، الذي نلمسه من خلال حديث الكساء.. فهؤلاء أهل البيت، لا يدخل أحد منهم، حتى يسلم ويستأذن، علماً أن البيت بيتهم. وهنا يتعجب المرء، ويتساءل في حيرة: لماذا لا يدخل أحد البيت إلا بإذن فاطمة؟.. الأمر الذي يجعل النبي يقف بباب فاطمة مستأذناً بالدخول..! وتسمع فاطمة صوت أبيها رسول الله يناديها: يا أهل بيت النبوة وموضع الرسالة أتأذنون لمحمد بالدخول! فتجيبه أبتاه يا رسول الله.. إن البيت بيتك، والكريمة كريمتك، فلماذا الإذن يا رسول الله؟

فيقول النبي ﷺ: «بنية فاطمة إن ربي أمرني أن استأذن» الله أكبر.. يا لروعة الموقف.. الله عزوجل يأمر نبيه وحبيبه محمداً أن يستأذن للدخول، ومن أي بيت؟.. من بيت فاطمة، علماً أن القرآن يبيح للناس أن يدخلوا بيوت أرحامهم وأقربائهم من دون إذن، أي أنه يسمح لك أن تدخل بيت ولدك، أو بيت ابنتك أو أي واحد من عشيرتك الأقربين، بلا إذن، ولا رخصة.

ولكن مع بيت فاطمة.. تختلف القضية اختلافاً كبيراً.. فتصل الى درجة أن يكون النبي وهو أول قائد للمسلمين، وللعالم أجمع.. وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ولكن مع هذا كله إذا أراد أن يدخل على فاطمة لابد له من أخذ الإذن منها للدخول في بيتها..!



أقول: ليس لهذا التصرف تفسير، إلا التأكيد على حرمة هذا البيت.. بيت الزهراء.. وكأن النبي يقرأ ما في ثنايا الأيام، فيرى قوماً قد أضرموا النار في أعتاب بيت فاطمة وأحرقوا دارها في اقتحام حاقد أسود!

وأقولها بصراحة: إن هذا البيت الفاطمي الطاهر، الذي كان النبي لا يدخله إلا بعد الإذن من فاطمة، أقول: هذا البيت الذي يدخله النبي بالإذن.. اقتحمه عمر بن الخطاب بالخطاب بالحطب ثم أشعل فيه النار.. حتى صاحت فاطمة: يا أبتاه يا رسول الله ماذا لقينا بعدك من ابن الخطاب وابن أبي قحافة!

وبعد هذه الجولة أعود إلى أصل الموضوع.. وهو آداب الخطاب في حديث الكساء مع الرسول الأعظم محمد ﷺ بحيث لا يكاد يدخل واحد من أهل البيت على النبي حتى يسلم ويستأذن بالدخول.. وكلهم في نسق واحد وطريقة نورانية واحدة، الكل يسلم ثم يأخذ الإذن في الدخول تحت الكساء.. وإن المرء ليلمس عمق التريية، وأصالة الإيمان في طريقه سلام بعضهم على بعض:

قالت فاطمة: «فما كانت إلا ساعة وإذا بولدي الحسن عجلت قد أقبل وقال: السلام عليك يا أماه فقلت: وعليك السلام يا قرة عيني، وثمرة فؤادي، فقال لي: يا أماه إني أشم عندك رائحة طيبة كأنها رائحة جدي رسول الله ﷺ فقلت: نعم يا ولدي إن جدك نائم تحت الكساء فأقبل الحسن نحو الكساء، وقال: السلام عليك يا جداه السلام عليك يا رسول الله، أتأذن لي أن أدخل معك تحت الكساء؟ فقال: وعليك السلام يا ولدي وصاحب حوضي قد أذنت لك فدخل معه تحت الكساء..

قالت: فما كانت إلا ساعة وإذا بولدي الحسين عليه السلام قد أقبل وقال السلام عليك يا أماء فقلت: وعليك السلام يا قرّة عيني وثمرّة فؤادي فقال لي: يا أماء أني أشم عندك رائحة طيبة كأنها رائحة جدي رسول الله ﷺ فقلت: نعم إن جدك وأخاك تحت الكساء، فدنا الحسين عليه السلام نحو الكساء، وقال: السلام عليك يا جداه، السلام عليك يا من اختاره الله، أتأذن لي أن أكون معكما تحت هذا الكساء؟ قال: وعليك السلام يا ولدي وشافع أمتي قد أذنت لك. فدخل معهما تحت الكساء..^(١).

وتستمر الزهراء، في تصويرها الرائع لدخول ولديها الحسن والحسين، ويعلمها علي أمير المؤمنين، تحت الكساء، حيث كانت تستقبلهم بحرارة وحفاوة بالغة ثم ترشدهم إلى الكساء حيث ينام تحته أعظم إنسان في الكون.. وأعظم قائد عرفته الإنسانية، ألا وهو أبوها محمد بن عبدالله ﷺ النبي الأمي الذي حطم الأغلال، وكسر القيود، وأدخل السرور في القلوب.

وهكذا يظهر أدب الحديث مع النبي.. وأدب المعاملة - عند أهل البيت، من خلال هذه اللقطات السريعة التي سجلتها الصديقة فاطمة الزهراء في روايتها لحديث الكساء.

(١) فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد ص ١٠٩.



باقة من الأزهار الكسائية

هذه حزمة من الأفكار التي لمعت في الذهن أثناء قراءة هذا الحديث العظيم، أعني حديث الكساء.. فطفقت اقتطفها كلها ثم أقدمها في سلة واحدة للقارئ الفطن الذي يتعاطى الدارية قبل الرواية.. ويملك القدرة على استيعاب الموضوع الذي يراه مكتوباً على صفحات الورق هذه.

* الزهرة الأولى: خمسة فقط:

قالت فاطمة: «فلما اكتملنا جميعاً تحت الكساء، أخذ أبي رسول الله بطرفي الكساء، وأومأ بيده اليمنى إلى السماء وقال: اللهم إن هؤلاء أهل بيتي.. الخ»^(١).

حين تقول فاطمة: اكتملنا تحت الكساء... فإن هذا يعني أن عددهم، هو الخمسة من غير زيادة لا نقصان، أي أنهم هم الخمسة أصحاب الكساء. وحتى جبرائيل إنما صار لهم سادساً في العدد، وليس في المنزلة والمكانة والمرتبة.

فهذا هو عددهم، خمسة، أصحاب الكساء وهم: محمد، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين.. أجل إنهم خمسة، تراهم تحت الكساء، وتراهم في يوم المباهلة، وتراهم في كل موقف يؤكد عظمة الحق، وكرامة الإنسان.

(١) فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد ص ١١١.



* الزهرة الثانية: هم الرحمة والبركة:

أما دعاء النبي لهم، فمعناه نزول الرحمة عليهم من الله عزوجل.. لأن النبي ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (٤) (١).

هذا من جانب، ومن جانب آخر.. فقد حصلت الاستجابة، قد استجاب الله عزوجل لدعاء رسوله العظيم محمد.. فأنزل رحمته وبركاته عليه وعليهم فقال: ﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ (٢).

هذا بالإضافة الى آية التطهير التي ما إن أتم النبي دعاءه، حتى أوحى الله تعالى إلى ملائكته وسكان سماواته قائلاً لهم: «يا ملائكتي وسكان سماواتي إني ما خلقت سماءً مبنية، ولا أرضاً مدحية، ولا قمراً منيراً، ولا شمساً مضيئة، ولا فلماً يدور، ولا بحراً يجري، ولا فلماً تسري إلا في محبة هؤلاء الخمسة الذين هم تحت الكساء.. فقال الأمين جبرائيل: يارب ومن تحت الكساء؟ فقال الله عزوجل: هم أهل بيت النبوة وموضع الرسالة فاطمة وأبوها وبعلمها وبنوها. فقال جبرائيل: يا رب أتأذن لي أن أهبط إلى الأرض لأكون لهم سادساً؟ فقال الله عزوجل: قد أذنت لك. فهبط الأمين جبرائيل يتلو عليهم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (٣).

والملاحظة سرعة استجابة الدعاء لدى أهل البيت.. لأنهم مصدر الرحمة، والخير والبركة..

(١) النجم / ٣-٤.

(٢) هود / ٧٣.

(٣) الأحزاب / ٣٣.

صحيح أن دعاء النبي مستجاب، ولكن سرعة الاستجابة في هذا الموقف بالذات تدل على أن الدعاء الذي ينطلق الى السماء من قلوب غارقة في محبة أهل البيت ومودة آل الرسول ينطلق مخترقاً الحجب لا يصدّه شيء أبداً.

ومن هنا كان للتوسل بهم أثر بالغ في سرعة استجابة الدعاء.

* الزهرة الثالثة: الحكمة في خلق الكون:

ورب قائل يقول: كيف نعرف أن الله ما خلق هذا الكون إلا من أجلهم، وفي محبتهم كما مر في الحديث آنفاً؟

وهو سؤال وجيه، ظل فترة من الزمن يلح عليّ إلحاحاً موحجاً، وأحياناً كان يهجم عليّ في خلوتي، وفوق سريري فيأخذ النوم من عيني، ويسلمني إلى هواجس لا تتركني إلا وأنا خرقة بالية من الإعياء والتمزق والنزف! غير أنني رحت أبحث، وأتملى وجوه الصحة في الحديث، وسرعان ما انقشعت غيوم الحيرة، وطلعت الحقيقة تلمع في أشعة الشمس. وها هي الحقيقة أطرحها أمامكم، بيضاء ناصعة، ليس عليها ذرة من الغبار قط.

ونبدأ الموضوع بسؤال، ولكن نوجه السؤال هذه المرة، إلى القرآن الكريم، ليس إلي أحد سواه، نقول: أيها القرآن الكريم.. لدينا سؤال فارجنا بالجواب بآياتك التي لا يأتيها الباطل من بين يديها، ولا من خلفها والسؤال هو: لماذا خلق الله الكون؟

يجيب القرآن في محبة: إنما خلق الله الكون كله بنجومه وسمائه وأرضه وبحاره وجباله، وكل شيء فيه، إنما خلقه الله عزوجل من أجل الإنسان والإنسان وحده لقد جعل الله الإنسان سيد الكائنات.. بل



أعطاه سيادة مطلقة وسلطة كاملة على جميع ما في هذا الكون من كائنات، وموجودات، ومخلوقات.

والإجابة جاءت في أكثر من ثلاثين آية كريمة، كلها تؤكد أن الله سبحانه، إنما خلق هذا الكون من أجل الإنسان بمعنى سخره للإنسان. وجعله في خدمته.

يقول القرآن الكريم: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾^(١).

﴿وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ﴾^(٢).

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾^(٣).

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾^(٤).

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾^(٥).

إلى آخر الآيات الكريمة التي تركز على شيء واحد، وهو أن الله تبارك وتعالى إنما سخر الكون ليكون في خدمة الإنسان..!

وهنا يطالع علينا سؤال ثان من هذه الإجابة، والسؤال هو: ولماذا خلق الله الإنسان؟ ويأتي الجواب من القرآن الكريم حيث يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٦).

(١) إبراهيم/٢٣.

(٢) النحل/١٢.

(٣) النحل/١٤.

(٤) إبراهيم/٣٢.

(٥) إبراهيم/٣٣.

(٦) الذاريات/٥٦.



بمعنى أن الله عزوجل إنما خلق الإنسان، من أجل العبادة.. والعبادة لا تتحقق إلا بأربعة شروط:

أولاً: أن تعرف ما هي العبادة.

ثانياً: أن تعرف الطريق الذي يوصلك إليها.

ثالثاً: أن تعرف القائد الذي يرشدك إلى هذا الطريق.

رابعاً: أن تعرف الطرق الملتوية التي لا تصل بك الى رضوان الله، فتتركها.

وهذه الشروط لايمكن أن تتم إلا بالقائد المعصوم.. والقيادة المعصومة هي التي تتمثل بالنبي وأهل بيته الطاهرين - صلوات الله عليهم أجمعين -.

ونستطيع لتركيز الموضوع في أذهاننا أن نبدأ العد العكسي لتكون الصورة أكثر وضوحاً فنقول: عند فقدان القيادة المعصومة تنطفئ العبادة.. إذ لا أحد يستطيع أن يمنحنا الصورة الحقيقية للعبادة الصحيحة.. وعند انعدام العبادة تنتفي الحكمة من وجود الإنسان في الأرض.. لأن الإنسان إنما وجد ليعبد الله وحده، فإذا ضاعت العبادة، ضاع هدف الإنسان، وبالتالي يضيع الإنسان نفسه، ويتخبط في متاهات الظلم والكفر، والجهل.. وهنا تنتفي الحكمة بشكل كامل من وجود البشرية.. فتتعدم البشرية فإذا راحت البشرية، وهلك الناس، فإنه لم يعد هناك أي مبرر لوجود الكون، لأن الكون وجد أساساً ليكون في خدمة الإنسان السيد.. فإذا مات السيد فلا حاجة لوجود المملوك وهكذا ينفجر الكون، ويتلاشى ذرات في أعماق الفضاء.



يدل على صحة هذه الفكرة، أنه حين يموت الناس جميعاً في يوم القيامة، ولا يبقى أحد فوق سطح المعمورة، فإن الأمر يأتي من الله سبحانه وتعالى لتمزيق الكون كله: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾^(١). ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾^(٢).

﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾^(٣).

﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾^(٤).

﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾^(٥).

وبكلمة لم يعد هناك مبرر لوجود الكون بعد الإنسان فيموت الكون كله.. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الله سبحانه كان قد جعل الكون في خدمة الإنسان.

وهنا تعالوا معي قليلاً نتمشى في ظلال هذا البحث الفلسفي الدقي العميق رغم وضوحه الشديد، فنجد أن الكون كله وجد من أجل خدمة سيد اسمه الإنسان، والإنسان يعني الناس جميعاً، وقمة الإنسانية والبشرية هم الأنبياء وقمة الأنبياء هم أولو العزم وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد.. هؤلاء خمسة من الأنبياء نطلق عليهم صفة أولى العزم وهم يفترقون عن سائر الأنبياء بأن رسالتهم عالمية، أي أنها

(١) الحاقة/١٤.

(٢) القمر/١.

(٣) الانفطار/١.

(٤) التكوير/٢.

(٥) الانفطار/٢.

لكل الناس، وللشعوب كافة.. ووآلو العزم هؤلاء، إذا نظرنا إليهم بوعي وتأمل وتفكير.. نجد أن الحبيب المصطفى محمد ﷺ هو قمتهم وسيدهم وزعيمهم..

إذاً: فالرسول الأعظم محمد ﷺ هو قمة الوجود وهو سيد البشرية، وسيد الأنبياء والمرسلين.. ونفس الشيء بالنسبة لأهل بيته الطاهرين، فإنهم منه، وهو منهم، وما يجري عليه يجري عليهم من الأحكام والمقام، فتكون النتيجة التي نخرج بها من هذا البحث هي: أن الكون كله إنما أوجده الله عزوجل من أجل محمد وأهل بيته.. ولولاهم لما خلق الله هذا الكون.

على أن هذه الفكرة واضحة وصريحة في آيات القرآن الكريم التي ذكرناها، ليس فيها غلو ولا تجاوز لخطوط الإيمان، وإنما هي الإيمان بعينه.

فإذا عرفنا ذلك أدركنا السر العظيم الكامن في حديث الكساء عندما يقول الله سبحانه وتعالى للملائكة: «إني ما خلقت سماءً مبنية ولا أرضاً مدحية، ولا قمراً منيراً، ولا شمساً مضيئة إلا في محبة ولاء الخمسة الذين هم تحت الكساء».

أقول: إن إلقاء نظرة واعية متأنية على القرآن الكريم، تكفي لإعطائنا أقوى دليل على أن العالم إنما أوجده الله عزوجل، وخلقه من أجل محمد وأهل بيته، ولولاهم لساخت الأرض بأهلها، وهذا هو منطق القرآن الكريم يدعمه منطق الرسول الكريم، ليس فيه التواء ولا اعوجاج، فارجع البصر هل ترى من فطور؟

* الزهرة الرابعة: انسجام كامل مع القرآن:

حين نعرض هذا الحديث، على موازين الفكر الإسلامي فإننا نجد أن الحديث ينسجم مع القرآن الكريم مطلقاً، وليس فيه حتى ولا ذرة واحدة مخالفة لموازين السماء.

فهم أي أهل البيت، عدل للقرآن، وموازينهم هي نفس موازين القرآن الكريم، ولهذا جعلهم الرسول الأعظم مع القرآن في حديث الثقلين، إضافة إلى أن كلامهم يعادل كلام القرآن لأنه لا يخالفه أبداً، وإنما كلامهم وآيات القرآن، نور واحد، حتى قالوا لنا: إن رأيت حديثاً عنا فيه مخالفة للقرآن فاضربوا به عرض الحائط.. أي أنهم جعلوا القرآن ميزاناً لكلامهم، فلا ينطقون بكلمة تخالف القرآن أبداً، ولم يسجل عليهم التاريخ، ولا مرة واحدة أنهم خالفوا القرآن بكلمة أو حديث أو حتى بحرف واحد من حروف القرآن الكريم.. فكلامهم سلسلة واحدة مترابطة الحلقات.. يتحدث الواحد منهم فيقول حدثني أبي، عن أبيه، عن جدنا رسول الله ﷺ عن جبرائيل عن الله عز وجل. هكذا سلسلة فكرية متصلة الحلقات مترابطة الفكر.. مضيئة الصور يقول شاعرهم:

قل لمن حجنا بقول سوانا	حيث فيه لم يأتنا بدليل
نحن قوم إذا رويناه حديثاً	بعد آيات محكم التنزيل
عن أبينا عن جدنا ذي المعالي	سيد المرسلين عن جبرائيل
وكذا قال جبرائيل عن الله	بلا شبهة ولا تأويل

يقول الإمام علي بن موسى الرضا - عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام: «وإن لكلامنا نوراً وإن عليه لحلاوة» بمعنى أن كلامهم فيه فكر



عميق، وأدب جميل، فالنور هو الفكر، بينما الحلاوة تشير إلى جمال التعبير وحلاوة الأدب الهاشمي.

* الزهرة الخامسة: النطفة الفردوسية:

والملفت للنظر، هو أن فاطمة الزهراء - سلام الله عليها - تقول في حديث الكساء: «فلما اكتملنا جميعاً تحت الكساء - وبعد أن تذكر دعاء أبيها رسول الله - تقول: أوحى الله إلى ملائكته وسكان سماواته إلى آخر كلامها..»، وهذا بالإضافة إلى أنه يجعل فاطمة في أعلى قمة في الوجود، فهو يكشف لنا عن حقيقة فاطمة وعن مكانتها في الإسلام.. إنها تعرف ما يجري حول العرش من الوحي، ولا غرابة في ذلك فهي بضعة من أبيها النبي، وهي حوراء إنسية يتضوع بدنها بعطر الجنة.. فما بالكم بروحها العملاقة ونفسها العظيمة؟

إن نطفة فاطمة جاءت من السموات العلي، حيث تم تكوين نطفتها عند سدرة المنتهى في ليلة الإسراء والمعراج، كما أكد ذلك الرسول الأعظم في حديث معروف لدى المسلمين كافة.

ومادامت نطفتها تكونت في السماوات العلي، فاتصالها في تلكم الآفاق لم ينقطع بعد، بل ظل جارياً وسارياً ومتواصلاً. وهذا ليس كثيراً على فاطمة، فهي انعكاس لغضب السماء، وانعكاس لرضا السماء، وانعكاس لما يجري في الآفاق الفارقة في الأبد، بحيث إذا غضبت فاطمة، غضبت الملائكة، وغضب الله لغضبها، وإذا رضيت فاطمة، فإن الله يرضى لرضاها.

على أن هذه الصورة التي أنقلها لكم ليست هي ضرباً من الخيال..



ولا نوعاً من أدب الرواية وفن القصة، وإنما هي صورة حقيقية جاءت في كتب الحديث وصحيح المسلمين جميعاً وعلى رأسهم صحيح البخاري وصحيح مسلم.. هذا بالإضافة إلى علمائنا الأعلام، أمثال الشيخ المفيد، والعلامة المجلسي ولاشيخ الطوسي، ونظرائهم من إخوانهم الذين تعاقدوا على نشر فكر أهل البيت، وأذاعوا حديثهم في الآفاق وأحيوا أمرهم في البلاد.. ومن أراد المزيد فما عليه إلا العودة إلى هذه المنابة الفكرية التي ذكرتها هنا على سبيل العجلة والسرعة أي بما يسمح به الوقت ليس أكثر.

* الزهرة السادسة: زهو جبرائيل:

في جواب الله سبحانه لجبرائيل، تكون فاطمة هي المحور، وهي قطب الرحي.. حيث يقول الحق: «هم فاطمة وأبوها ويعلمها وبنوها...». ثم نزول جبرائيل في خدمتهم.. كما كان قد نزل ليلة مولد الإمام أبي عبدالله الحسين عليه السلام وصار جبرائيل يهزم مهد الحسين، وعندما عرج إلى السماء كانت جموع الملائكة تستقبله، وهو يقول: من مثلي وأنا خادم الحسين...!.. من مثلي وأنا هزئت مهد الحسين بيدي! الله.. الله، ما أروع الحسين وما أحلى كلمات جبرائيل في الحسين.

* الزهرة السابعة: باب الرحمة وقضاء الحوائج:

عندما يسأل الإمام علي عليه السلام النبي ويقول: «يا رسول الله أخبرني ما لجلوسنا تحت هذا الكساء من الفضل عند الله؟»^(١) أقول: عندما يوجه

(١) فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد ص ١١٣.

الإمام علي هذا السؤال إلى النبي، فإنه إنما يريد أن يلفت الأنظار ويشد القلوب إلى هذا الحدث التاريخي العظيم.

بالإضافة إلى أن أمير المؤمنين، إنما أراد أن يعطي الناس قضية ملموسة يحسونها بقوة في حياتهم.. وهل هناك أقوى من إحساس الإنسان ومشاعره نحو قضاء حوائجه في الدنيا، ونزول الرحمة عليه، والبركة وهي إشارة إلى كثرة الرزق وتدفق المال؟

أجل لقد كان هدف عليّ، هو أن يشد الناس بحبل النور إلى رسول الله وأهل بيته. هذا من جانب ومن جانب آخر، أراد عليّ عليه السلام، أن يلخص الفائدة التي نريدها من قراءة حديث الكساء هذا، وهي فائدة غالية، ومغرية، وقريبة من القلوب.. أأ وهي شيئان: نزول الرحمة.. وقضاء الحوائج.. وهما من أهم الأشياء التي يطلبها الناس في الحياة، وتجري البشرية وراءها لاهثة متعبة.

* الزهرة الثامنة: فضل تلاوة الحديث:

في جوابه لعلي، قال النبي: «يا علي والذي بعثني بالحق نبياً، واصطفاني بالرسالة نجياً، ما ذكر خبرنا هذا في محفل من محافل أهل الأرض، وفيه جمع من شيعتنا ومحبينا إلا ونزلت عليهم الرحمة، وحفت بهم الملائكة، وستغفرت لهم إلى أن يتفرقوا»^(١).

والشيء الملفت للنظر هنا، هو قول النبي: «في محفل من محافل أهل الأرض». ولم يقل على فرد واحد من الناس، وإنما قال «في محفل».. والمحفل هو الذي يضم جمعاً من الناس.. وهذه إشارة رائعة إلى حرص

(١) فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد ص ١١٣.



الإسلام على جمع الناس، وأهمية المجالس، والمحافل في نشر الدين، وإحياء أمر النبي وأهل بيته.

يقول الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام واحد من أصحابه اسمه الفضيل بن يسار، قال له: يا فضيل تجلسون وتتحدثون؟ قال: نعم يا مولاي - قال الإمام الصادق عليه السلام: «أما إني لأحب تلك المجالس، فاحيوا أمرنا، رحم الله من أحيا أمرنا...».

وقراءة حديث الكساء، هي إحياء لأمر أهل البيت بشكل قاطع.. ولذلك قال الرسول الأعظم: «في محفل» وذلك أن الهدف دائماً هو إحياء معالم الإيمان، وإضاءة قناديل الوعي والرشد في النفوس. وهذا لا يتم إلا عن طريق التعاون، تعاون الناس على البر والتقوى وتعاونهم أن يكونوا يداً واحدة على من سواهم.. لا أن يتفرقوا ويتمزقوا شيعاً وأحزاباً.. ولذلك قال الرسول: «وحفت بهم الملائكة إلى أن يتفرقوا» أي ما داموا جالسين في محفل واحد يذكرون الله سبحانه وتعالى، ويتجاذبون أطراف الحديث في إحياء أمر آل محمد، فإن الملائكة تظل ترفرف بأجنحتها عليهم تستغفر لهم إلى أن يقوموا من المجلس وينفضوا..

إن محفلاً يتلى فيه حديث الكساء، فهو مجلس من مجالس العلماء.. وليس من مجالس اللهو والبطالة، إن مجالس العلماء هي التي تحيي القلوب، وتغذي العقول، والبعد عن مجالس العلم تؤدي إلى موت الفكر وانطفاء الإيمان، فلا فكر في العقول، ولا إيمان في القلوب بعيداً عن مجالس العلماء.

يقول الإمام السجاد عليه السلام: «أو لعلك رأيتني آلف مجالس البطالين فبينني وبينهم خليتني، أو لعلك فقدتني من مجالس العلماء فخذلتني..» وتلك حقيقة لا غبار عليها.. وهي أن الابتعاد عن مجالس العلماء، ومحافل العلم، يؤدي إلى الانكسار والخذلان في الحياة الدنيا، ويقوم يقوم الأشهاد لرب العالمين.. إن الحياة لا تقوم بغير محافل العلم، ومجالس العلماء.. الحياة من دون محافل النور تتحول إلى سباح من الوحل، وجحيم لا يطاق.

يقول الإمام علي عليه السلام: «من ترك الإستماع من ذوي العقول مات عقله». وذلك أن العقل يتغذى بالعلم، والذي يترك الاستماع من العقلاء يصاب عقله بسوء التغذية، وشيئاً فشيئاً يموت العقل، ويدفن تحت حطام الجهل، وظلام الشيطان والأهواء.

بقيت نقطة أخيرة دعني أذكرك بها، قبل أن نغادر هذا المحفل الرياني العظيم، محفل الخير.. محفل حديث الكساء وقصة آية التطهير، أقول قبل أن نتفرق دعني أذكرك، بأن آدم إنما استحق السجود من الملائكة لأنه يحمل في صلبه أنوار هؤلاء الخمسة، أصحاب الكساء..

واقروا معي الآيات التالية إذا شئتم لتتعرفوا على معالم هذه الفكرة، وملامح هذه الحقيقة الناصعة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا

سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) ﴿^(١)﴾.

ولاحظوا بدقة وإمعان قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾.

فلو كان المقصود من الأسماء، هو مجرد الأسماء هذه، مثل ورقة، شجرة، ماء، قلم، وما شابه ذلك كما يقول البعض، أقول: لو كان المراد من الأسماء هي الأسماء المجردة، لكان الأجدر أن يقول: ثم عرضها على الملائكة. ولكنه قال «ثم عرضهم» وحين يقول: «عرضهم» فإن ذلك معناه أنه أشار إلى المسميات وليس إلى الأسماء. ولهذا قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. وهنا قالوا: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾.

فتقدم آدم وعلم الملائكة بأسماء محمد وأهل بيته. فقال لهم إن هذه الأسماء المقدسة هم: محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين.

ولهذا بعد أن أعلن آدم أسماء أهل البيت، وعرض صورهم وأنوارهم على الملائكة وأفهمهم أي أفهم الملائكة أن هؤلاء هم أهل البيت بيت النبوة ومعدن الرسالة هم فاطمة وأبوها وبعلاها وبنوها، طلب من الملائكة السجود لآدم، فسجدت الملائكة باستثناء الشيطان

(١) البقرة/٣٠-٣٤.



الذي أعلن الحرب ضد محمد وأهل بيته «رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت»^(١).

وينفض محفل الخير والعطاء، محفل حديث الكساء، وأشد على يدك على أن نلتقي في مشوار آخر مع آية التطهير التي كان محفل الكساء إطاراً لها، أما هي فإنها الجوهر، والمحتوى وسنلتقي معها في المشوار القادم فإلى هناك، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وهذه صور من حديث الكساء أوردها إكمالاً للفائدة: «عن زيد بن أرقم عن النبي ﷺ أنه قال لعلي وفاطمة والحسن والحسين: «أنا حرب لمن حاربتهم وسلم لمن سالمهم». ويلفظ آخر: «أنا حرب من حاربتكم وسلم لمن سالمكم».

وأخرج محب الدين الطبري عن أبي بكر أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ خيم خيمة، وهو متكئ على قوس عربية، وفي الخيمة علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام فقال معشر المسلمين: «أنا سلم لمن سالم أهل الخيمة، حرب لمن حاربتهم، ولي لمن والاهم، لا يحبهم إلا سعيد الجد طيب المولد، ولا يبغضهم إلا شقي الجد رديء الولادة»^(٢).

وفاطمة هي واحدة من أهل الخيمة التي خيمها رسول الله، فقال: «معشر المسلمين: أنا سلم لمن سالم أهل الخيمة.. حرب لمن حاربتهم، ولي لمن والاهم، لا يحبهم إلا سعيد الجد طيب المولد، ولا يبغضهم إلا شقي الجد رديء المولد».

(١) راجع الفدير ١/٣٣٦، والفدير ٤/٣٢٣.

(٢) الفدير ٢/٣٠٠.



وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لما خلق الله تعالى آدم أبا البشر، ونفخ فيه من روحه التفت آدم يمينه العرش فإذا في النور خمسة أشباح سجداً وركعاً قال آدم: «هل خلقت أحداً من طين قبلي؟ قال: لا يا آدم.. قال: فمن هؤلاء الخمسة الأشباح (الأنوار) الذين أراهم في هيئتي وصورتي، قال هؤلاء خمسة من ولدك لولاهم ما خلقتك هؤلاء خمسة شققت لهم خمسة أسماء من أسمائي، لولاهم ما خلقت الجنة ولا النار، ولا العرش، ولا الكرسي، ولا السماء ولا الأرض.. ولا الملائكة، ولا الإنس ولا الجن».

«فأنا المحمود، وهذا محمد.. وأنا العالي وهذا علي.. وأنا الفاطر وهذه فاطمة، وأنا الإحسان وهذا الحسن.. وأنا المحسن وهذا الحسين، آليت بعزتي ألا يأتيني أحد بمثقال ذرة من خردل من بغض أحدهم إلا أدخله ناري، ولا أبالي، يا آدم هؤلاء صفوتي فإذا كان لك إلي حاجة فبهؤلاء توسل».

ويقول النبي: «نحن سفينة النجاة من تعلق بنا نجا.. ومن حاد عنا هلك، فمن كان له إلى الله حاجة فليسأل بنا أهل البيت»^(١).

وقد أخرج هذا الحديث، جمهرة كبيرة من علماء المسلمين على اختلاف مذاهبهم، ومنهم الإمام الشافعي الذي أشار إلى هذا الحديث بأبياته المشهور:

(١) الغدير ٣٠٠/٧ وكتاب ينابيع المودة ص ٢٣٩ والدر المنثور ٦٠/١.



ولما رأيت الناس قد ذهب بهم مذاهبهم في أبحر الغي والجهل
ركبت على اسم الله سفن النجا وهم أهل بيت المصطفى خاتم الرسل
وأمسكت حبل الله وهو ولاؤهم كما قد أمرنا بالتمسك بالحبل

وعن ابن عباس، قال سألت رسول الله ﷺ: عن الكلمات التي تلقاها
آدم من ربه فتاب عليه؟ قال: سأل بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن
والحسين إلا تبت علي فتاب عليه.

وأخيراً وليس آخرأ إليكم هذه المقابلة بين دعاء الرسول ودعاء
إبراهيم..

فالرسول حين دعا إلى أهل بيته في حديث الكساء قال: «فاجعل
صلواتك وبركاتك ورحمتك وغفرانك ورضوانك عليّ وعليهم.. واذهب
عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.. بمعنى أنه طلب من الله أن يجعل
الصلاة والبركة والرحمة والمغفرة والرضوان عليهم جميعاً.. ثم يطهرهم
تطهيراً.. في حين أن إبراهيم الخليل طلب من الله أن يجعل أفئدة من
الناس تهوي إليهم.. وذلك قوله: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي
زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ
وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾^(١).

ولاشك أن هذا الدعاء ترك أثراً بالغاً إلى يومنا هذا حيث ذهب
الأسود يتدفق في جنون إلى العالم أجمع.

(١) إبراهيم/٣٧.

وهنا لاحظوا المقارنة بين دعاء إبراهيم ودعاء النبي، فإذا كان مجرد أفئدة الناس والثمرات تحول الأرض إلى نبع عطاء وبركة إلى ما شاء الله، فما بالكم بأهل البيت الذين هم مصدر الرحمة والبركة.. وإن مجرد ذكرهم ونقل حديث الكساء يعجل بنزول الخير والرحمة والبركة. على أن آل إبراهيم هم آل محمد -صلى الله عليهم أجمعين.



في حديث الخساء
وبعض الركائز
التي يقوم عليها الإسلام

آية التطهير وحديث الكساء في أعيان الشيعة

قال الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾^(١).

نزلت في علي وفاطمة وابنيها. روى الواحدي في أسباب النزول بسنده عن أبي سعيد قال: نزلت في خمسة في النبي ﷺ علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وفي الإصابة قالت أم سلمة: في بيتي نزلت إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً قالت فأرسل رسول الله ﷺ إلى فاطمة وعلي والحسن والحسين فقال هؤلاء أهل بيتي «الحديث» أخرجه الترمذي والحاكم في المستدرک وقال صحيح على شرط مسلم «اه».

أقول: الذي في المستدرک وتلخيصه صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. وفي الدر المنثور: أخرج الترمذي وصححه وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه من طرق عن أم سلمة قالت في بيتي نزلت: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾. وفي البيت فاطمة وعلي والحسن والحسين فجللهم ﷺ بكساء كان عليه ثم قال هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

(١) الأحزاب/٣٣.



وأخرج ابن مردويه عن أم سلمة قالت نزلت هذه الآية في بيتي إنما يريد الله الآية وفي البيت سبعة جبريل ومكائيل وعلي وفاطمة والحسن والحسين وأنا على باب البيت قلت يا رسول الله أأنت من أهل البيت قال إنك إلى خير أنك من أزواج النبي ﷺ.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يبيتها على منامة له عليه كساء خيبري فجاءت فاطمة ببرمة فيها خزيرة فقال رسول الله ﷺ ادعي زوجك وابنيك حسناً وحسيناً فدعتهم فبينما هم يأكلون إذ نزلت على رسول الله ﷺ «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً» فأخذ النبي ﷺ بفضلة أزاره ففشاها إياه ثم أخرج يده من الكساء وأومأ إلى السماء ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً قالها ثلاث مرات قالت أم سلمة فأدخلت رأسي في الستر فقلت: يا رسول الله وأنا معكم؟ فقال إنك إلى الخير مرتين.

ورواه في أسد الغابة بسنده عن أم سلمة نحوه.

وروى الحاكم في المستدرک بسنده عن واثلة بن الاسقع: أتيت علياً عليه السلام فلم أجده، فقالت لي فاطمة انطلق إلى رسول الله ﷺ يدعوه فجاء مع رسول الله ﷺ فدخلنا ودخلت معهما فدعا رسول الله ﷺ الحسن والحسين فاقعد كل واحد منهما على فخذه وأدنى فاطمة من حجره وزوجها ثم لفّ عليهم ثوباً وقال: إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً، ثم قال هؤلاء أهل بيتي اللهم أهل بيتي أحق. هذا حديث صحيح على شرط الشيخين (وروى الحاكم في

المستدرك بسنده عن عامر بن سعد عن سعد: نزل على رسول الله ﷺ الوحي فادخل علياً وفاطمة وابنيهما تحت ثوبه قم قال اللهم هؤلاء أهل بيتي (وبسنده) عن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب: لما نظر رسول الله ﷺ إلى الرحمة هابطة قال ادعوا لي فقالت صفية من يا رسول الله قال أهل بيتي علي وفاطمة والحسن والحسين فجاء بهم فألقى عليهم النبي ﷺ كساءه ثم رفع يديه ثم قال: اللهم هؤلاء آلي فصل على محمد وعلى آل محمد.

وأنزل الله عزوجل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

قال: هذا حديث صحيح الإسناد وقد صحت الرواية على شرط الشيخين أنه علمهم الصلاة على أهل بيته كما علمهم الصلاة على آله. وفي الدر المنثور: أخرج الطبراني عن أم سلمة قالت: جاءت فاطمة إلى أبيها بثريدة لها تحملها في طبق لها حتى وضعتها بين يديه قال لها أين ابن عمك قالت هو في البيت قال اذهبي فادعيه وابنيك فجاءت تقود ابنيها كل واحد منهما في يد وعلي يمشي في أثرهما حتى دخلوا على رسول الله ﷺ فأجلسهما في حجره وجلس علي عن يمينه وجلست فاطمة عن يساره قالت أم سلمة فأخذت من تحتي كساء كان بساطنا على المنامة في البيت.

(أقول) هكذا في النسخة ولعل الصواب فأخذ ولم تذكر ما صنع بالكساء والظاهر أنه جللهم به وقال ما تقدم وترك ذكر ذلك إحالة على ما مر.

قال وأخرج الطبراني عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال لفاطمة ائتيني بزوجه وابنيك فجاءت بهم فألقى رسول الله ﷺ كساء فدكياً ثم وضع يده عليهم ثم قال اللهم ان هؤلاء أهل محمد وفي لفظ آل محمد فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد كما جعلها على إبراهيم انك حميد مجيد قالت أم سلمة فرفعت الكساء لأدخل معهم فجذبه من يدي وقال إنك على خير.

وأخرج ابن مردويه والخطيب عن أبي سعيد الخدري كان يوم أم سلمة أم المؤمنين فنزل جبريل على رسول الله ﷺ بهذه الآية إنما يريد الله الآية فدعا رسول الله ﷺ بحسن وحسين وفاطمة فضمهم إليه ونشر عليهم الثوب، والحجاب على أم سلمة مضروب ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي اللهم اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً قالت أم سلمة فأنا معهم يا نبي الله فقال أنت على مكانك وإنك على خير.

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم «وقال صحيح على شرط الشيخين».

عن عائشة قالت خرج رسول الله ﷺ غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود فجاء الحسن والحسين فأدخلهما معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها معها ثم جاء علي فأدخله معهم ثم قال: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً».

وأخرج ابن جرير والحاكم وابن مردويه عن سعد قال نزل على رسول الله ﷺ الوحي فأدخل علياً وفاطمة وابنيهما تحت ثوبه ثم قال اللهم هؤلاء أهلي وأهل بيتي.



وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه البيهقي في سننه عن واثلة بن الأسقع قال جاء رسول الله ﷺ إلى فاطمة ومعه حسن وحسين وعلي حتى دخل فادنى علياً وفاطمة فأجلسهما بين يديه وأجلس حسناً وحسيناً كل واحد على فخذه ثم لف عليهم ثوبه وأنا مستدبر ثم تلا هذه الآية: **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ .. الآية.**

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه عن أنس أن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة إذا خرج إلى صلاة الفجر ويقول الصلاة يا أهل البيت الصلاة **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ .. الآية.**

وروى الحاكم في المستدرک وقال صحيح على شرط مسلم بسنده عن أنس أن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج لصلاة الفجر يقول الصلاة يا أهل البيت **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً.**

وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري: لما دخل علي بفاطمة جاء النبي ﷺ أربعين صباحاً إلى بابها يقول السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته الصلاة رحمكم الله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس «الآية» أنا حرب لمن حاربكم أنا سلم لمن سالمكم وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن أبي الحمراء: حفظت من رسول الله ﷺ ثمانية أشهر بالمدينة ليس من مرة يخرج إلى صلاة الغداة إلا أتى إلى باب علي فوضع يده على جنبتي الباب ثم قال الصلاة الصلاة إنما يريد الله... «الآية».



وأورده ابن خالوية في كتاب الآل عن نافع بن أبي الحمراء نحوه.

وفي الدر المنثور: أخرج ابن مردويه عن ابن عباس: شهدنا رسول الله ﷺ تسعة أشهر يأتي كل يوم باب علي بن أبي طالب عند وقت كل صلاة فيقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أهل البيت إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً الصلاة رحمكم الله كل يوم خمس مرات.

وأخرج الطبراني عن أبي الحمراء رأيت رسول الله ﷺ يأتي باب علي وفاطمة ستة أشهر فيقول إنما يريد «الآية».

وفي كتاب وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى للسهمودي: اسند يحيى عن أبي الحمراء شهدت رسول الله ﷺ أربعين صباحاً يجيء إلى باب علي وفاطمة وحسن وحسين حتى يأخذ بعضادتي الباب ويقول السلام عليكم أهل البيت إنما يريد الله «الآية» قال وفي رواية له رابطت بالمدينة سبعة أشهر كيوم واحد وكان رسول الله ﷺ يأتي باب علي كل يوم وفي رواية عند صلاة الصبح فيقول الصلاة الصلاة ثلاث مرات إنما يريد الله «الآية».

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» قال هم أهل البيت طهرهم الله من سوء واختصهم برحمته.

قال وحدث الضحاک بن مزاحم أن نبي الله كان يقول نحن أهل بيت طهرهم الله من شجرة النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة وبيت الرحمة ومعدن العلم «اه» الدر المنثور. قال علي القاري في شرح



الشفاء للقاضي عياض بعد ذكر الآية: أراد بأهل البيت نساء النبي ﷺ لأنهن في بيته وروى ذلك عن ابن عباس، قال وعن أبي سعيد الخدري وجماعة من التابعين أنهم علي وفاطمة والحسن والحسين وقال ولا منع من الجمع وأما تخصيص الشيعة أهل البيت بفاطمة وعلي وابنيهما لما ورد أنه ﷺ خرج غداة يوم وعليه مرط مرجل من شعر أسود فجاء الحسن فأدخله فيه ثم الحسين فأدخله ثم فاطمة فأدخلها ثم علي فأدخله ثم قال إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً واحتجاجهم على عصمتهم وكون إجماعهم حجة فمردود بأن تخصيصهم بكونهم أهل البيت يكذبه ما قبل الآية وما بعدها والحديث إنما هو مؤذن بأنهم من أهله لا أن غيرهم ليس بأهله «ا هـ».

أقول: الجمع الذي أشار إليه بقوله ولا منع من الجمع يردده صريح ما حكاه عكرمة عن ابن عباس من أنها في نساء النبي خاصة وقوله إنما هو نساء النبي بصيغة الحصر فالجمع بما ذكر غير ممكن على أن قوله هؤلاء أهل بيتي كالنص في انحصار أهل البيت فيهم بمنزلة الجمع المضاف المفيد للعموم كقولنا هؤلاء علماء البلد ولو أراد ما ذكر لقال هؤلاء من أهل بيتي وإرادة البعض بهذا اللفظ سمج مستهجن فهو بمنزلة التفسير للآية وكذا ما في رواية الخدري من أنها نزلت في خمسة فإن مفهوم العدد الوارد في مقام البيان يمنع من إرادة الأزيد ولو لم نقل به في غيره على أن قول أم سلمة ألسنت من أهل البيت أو أنا معكم أو معهم وقوله ﷺ لها إنك إلى خير إنك من أزواج النبي ﷺ أو أنت على مكانك وإنك إلى خير ورفعها الكساء لتدخل معهم وجذبه

من يدها وقوله إنك على خير نص صريح في خروج النساء من أهل البيت فبطل قول القاري إن الحديث إنما هو مؤذن بأنهم من أهله لا أن غيرهم ليس بأهله وحيث ظهر أنه لا يمكن الجمع فأما أن نقول أن المراد النساء خاصة كما قاله عكرمة وعروة أو الخمسة خاصة كما في باقي الروايات والأول باطل لانفرادهما به فلا يعارض الروايات الكثيرة المستفيضة التي رواها مشاهير علماء الإسلام ورواتهم وأودعوها كتبهم المشهورة المعتمدة كما سمعت على أن عكرمة حكي عنه أنه كان يرى رأي الخوارج وعروة منحرف عن علي عليه السلام وأهل بيته مع أن الظاهر إن ذلك رأي رأياه ولعلهما أخذاً من كون الآيات قبلها وبعدها في نساء النبي فلا يعارض الروايات المروية عن النبي صلى الله عليه وآله مع أن اختصاصها بالأزواج كما يقولان ينافيه تذكير الضمير وأما كون ما قبل الآية وبعدها في الأزواج فلا يضر لوجوب رفع اليد عن هذا الظهور لو فرض بتذكير الضمير وما دل من الروايات على خروج النساء كما عرفت إذ النص مقدم على الظاهر ومراعاة السوق في القرآن الكريم غير لازمة وكون ترتيبه على ترتيب نزوله غير معلوم لو لم يكن معلوم العدل ويدل على خروج الأزواج من أهل البيت مضافاً إلى ذلك أحاديث الثقلين الآتية في الجزء الثالث في أدلة إمامة أمير المؤمنين عليه السلام فإن فيها أنه سئل زيد بن أرقم فقل له أليس نساؤه من أهل بيته فأجاب منكرًا ذلك: نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده. وفي رواية أخرى فقلنا من أهل بيته نساؤه؟ قال لا لأن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها، أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده وقد بينا ذلك مفصلاً في كتاب إقناع اللائم على إقامة المآثم.



اللفتة الحضارية عند أهل الكساء

في حديث الكساء، تستوقفنا اللفتة الحضارية التي صدرت عن أمير المؤمنين، حيث سأل النبي ﷺ: ما لجلوسنا هذا تحت الكساء من الفضل عند الله؟ وحين أجاب النبي، فإنه كشف عن سرّ السؤال، وهو ربط الناس بالجانب الحضاري من حديث الكساء، وهو أن أهل البيت يهتمون بشؤون الناس بتفريج كربهم، وكشف همومهم، وقضاء حوائجهم، وإنزال الرحمة عليهم.. فليس فيهم مهموم إلا وفرّج الله همه، ولا مغموم إلا وكشف الله غمه، ولا طالب حاجة، إلا وقضى الله حاجته.. هذا جانب، وجانب آخر، هو أنهم حتى وهم تحت الكساء وليس معهم سوى جبرائيل، فإنهم يهتمون بقضاء حوائج الناس ورفع الأغلال عنهم - أليس هدف النبي ﷺ: أنه يضع عنهم أصرهم والأغلال التي كانت عليهم؟.. هذا من جانب، ومن جانب آخر نجد التركيز على الاجتماع: جمع من شيعتنا ومحبينا.. الخ. ثم لاحظوا إن هاجس أهل البيت هو رفع الأذى والظلم عن الناس فهم يجوعون ليشبع الآخرون إنهم يطعمون الطعام ليهدئوا مسكيناً أو يتيماً أو أسيراً، وهؤلاء يشكلون الطبقات الفقيرة في المجتمع.. ثم لاحظوا.. ولايتهم جاءت في العطاء.. في تصدّق الإمام بالخاتم.. وإعطاء خاتم لسائل فقير، معناه الاهتمام بشؤون الفقراء، وقضاء حوائجهم.. وهنا في هذا الموقف، عملية عبادية جامعة.. جمعت الصلاة والزكاة في حركة واحدة.. وهذه صفة خاصة لعلي أمير المؤمنين عليه السلام أن تجمع عند



الصلاة، والزكاة في عبادة واحدة.. فهو يعطي الزكاة، ويؤديها في ركوع الصلاة، فيكشف عن الترابط الوثيق بين الصلاة والزكاة، ثم يكشف عن أهمية إغاثة الملهوف، ومساعدة الفقير.. ثم بعد ذلك يكشف عن النية الصادقة لأن الله عزوجل كان قد أخبر عن هذه النية. ثم نجد الولاية، والإمامة تأتي في هذا المكان بالذات في انسجام الصلاة والزكاة، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة في آن واحد.



الإنسان مسؤول خلاف غيره من الكائنات

نحن نعرف إن الإنسان يشترك مع بقية الكائنات في أشياء ويفتقر عنها في أشياء، فهو مثلاً يشترك مع الجماد في الوزن والطول والعرض فكما أن للجماد طولاً وعرضاً ووزناً كذلك الإنسان له هذه الصفات.. وكما يشترك مع الجماد في مواصفات، كذلك يشترك مع النبات في النمو والتفاعل مع النور والتراب والهواء في صنع الغذاء.. ويشترك الإنسان مع الحيوان في النمو والإحساس والحركة.. والحاجة إلى الطعام والشراب والنوم والمضاجعة ولو اقتصرت حياة الإنسان على هذه الأشياء فقط، لما كان هناك فاصل حضاري بين الإنسان والحيوان وإنما تكون حياة البشر مماثلة لحياة البهائم في الغابات والفلوات.. ولكن الله سبحانه وتعالى قد زود الإنسان بأدوات وآلات وأجهزة حضارية لا وجود لها في الكائنات الحية الأخرى فقد زوده بالعقل والوعي، والبيان والقلم.. بالإضافة إلى مئات الميزات التي توجد في الإنسان ولا توجد في الحيوان ومن أبرزها قدرة الإنسان المدهشة على أخذ العلم ونقله إلى الآخرين وهذه عطية من الله خاصة بالإنسان دون غيره.. وكل ذلك لأن الإنسان حامل حضارة، وعنده أمانة مقدسة يرعاها ما دام في الوجود أميناً. أما إذا خانها فالويل له ثم الويل.. وهكذا يكون الإنسان مسؤولاً دون سائر المخلوقات إنه يمشي والنداء من ورائه يلهب ظهره ويصليه ناراً: ﴿وَقِفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾^(١).

(١) الصافات/٢٤.



لذلك يأتي الإنسان إلى الحياة مزوداً بقوة عقلية أكثر من القوة البدنية لأنه يحيا بعقله وروحه، قبل أن يحيا ببدنه وشهوته.. في حين أن وليد الحيوان يأتي مزوداً بقوة بدنية أكثر من القوة العقلية.. بل لعل القوة العقلية، تكون مفقودة ومعدومة لدى الحيوان.. وإنما قلنا أكثر من قوته العقلية لنوضح أن الحيوان يمتلك حساً وشعوراً يجري مجرى الغرائز في كيانه فهو يحب ويكره، ويحزن ويفرح ولكن من دون أن يكون للعقل دخل أو وجود في بنائه الجسدي والنفسي.

ومشكلة الإنسان في الحضارة المعاصرة هي أنه: يوزن بميزان المادة ليس بميزان الإنسانية.. فالحضارة المادية جعلت محور النجاح في الحياة المادة وليس الإنسان وهذه حقيقة لا يرقى إليها الشم وهي من الواضح بحيث يستطيع كل واحد منا أن يلمسها بيده وذلك بقليل من التأمل في حياة الشعوب اليوم وعند الذين ينادون بحقوق الإنسان وهم أعداء الإنسانية وخصوم البشرية.

*** لا ضرر ولا ضرار في الإسلام:**

إن الحضارة الإسلامية لشدة تكريمها للإنسان جعلته هو المحور في الحياة فكل شيء يضر بالإنسان فهو حرام بحيث أصبحت قاعدة إسلامية معروفة هي قاعدة لا ضرر ولا ضرار في الإسلام.

وقد ركز الإسلام على هذا الجانب بالذات بعمق وقوة بحيث جعل حق الإنسان فوق كل شيء حتى فوق العبادات بحيث إذا أضرت به العبادة سقطت عنه.. فمثلاً إذا أضرب به الحج فإنه يسقط عنه التكليف ولم يعد واجباً عليه أن يذهب إلى الحج لأن الذهاب إلى الحج يشترط فيه عدم الضرر فإذا وجد الضرر سقطت هذه الفريضة، وذلك أن السلامة هي الشرط الأساسي في أداء الواجب.



ونفس الشيء يقال في الصيام فإنه يسقط عنه التكليف بمجرد أن يضر الصوم بصحته.. وكذلك الصلاة لو أن الواحد لا يستطيع أن يقيم الصلاة واقفاً فإنه يسقط عنه هذا الشرط فيستطيع أن يصلي وهو جالس. وإذا كان الجلوس يضر به فإنه يصلي وهو نائم وهكذا إلا أن الصلاة هي العبادة الوحيدة، التي لا يسقط وجوبها عن الإنسان المسلم بحال من الأحوال. وإنما تؤدي على كل وجه وبكل صورة ويؤخذ بعين الاعتبار موضع الضرر وعدمه.

إذن: ففي الحضارة الإسلامية نجد أن كل شيء يضر بالإنسان فهو حرام.. وكل شيء يزعج حرية الإنسان أو يصادر حرите كأن يضع القيود والأغلال عليه فإنه حرام حرام حرام، لأن أعظم شيء في مسيرة الأنبياء هو تحطيم القيود والأغلال عن الإنسان.. وهذا الحبيب المصطفى محمد ﷺ وهو سيد الأنبياء وأشرف المرسلين نراه كيف يتحدث عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (١).

كل ذلك لأنه يحمل قلباً رقيقاً يفيض محبة ومودة ورحمة: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (٢).

وهو بهدف القلب الرحيم استطاع أن يجتذب الناس الى الدين فدخلوا في دين الله أفواجاً أفواجاً وهذه هي عظمة السيرة النبوية الشريفة التي جسدها ابنته الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام حيث كانت

(١) الأعراف/١٥٧.

(٢) آل عمران/١٥٩.



شبيهة بأبيها رسول الله ليس بسيرته فقط بل وأيضاً في ممشاه ومنطقه.. فد كانت إذا مشت حكت كريم قوائمه وإذا نطقت فكأنها تفرغ عن لسان أبيها رسول الله.. كما كانت ابنتها تشبه أباهما علياً أمير المؤمنين هي الأخرى في منطقته وجرأته وبسالته.

على أن هذا لا يعني بالضرورة أن يكون في صوتها خشونة الرجل.. أبداً وإنما كان في صوتها رقة صوت نبي ودفع كلامه هذا بالاضافة إلى أنها في مشيتها كانت تصور مشية أبيها رسول الله بالكامل.. حتى أن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه يقول : ما رأيت فاطمة تمشي إلا وتذكرت مشية أبيها النبي ﷺ.

المهم أن قلب النبي كان رحيماً ودوداً وعطوفاً يفيض بالرحمة والرافة لأنه رحمة للعالمين ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١).

* المادة محور الحضارة الغربية:

ونرجع الى الحضارة الغربية التي تجعل المادة هي المحور في الحياة وفي كل شيء وليس الإنسان على العكس تماماً من الفكر الحضاري في الإسلام الذي يجعل الإنسان ليس فقط المحور في الحياة وإنما يجعله محوراً في كل ما يدور في هذا العالم. وحتى التشريع الإسلامي ينطلق من قاعدة: لا ضرر ولا ضرار في الإسلام وقد مرت بنا قبل لحظات.. وعلى هذا الأساس فالإسلام جاء لرفع الأغلال عن البشر حتى يعيش الناس أحراراً في الحياة لا يعبدون إلا الله لأن الشرك وصمة عار في

(١) التوبة/١٢٨.



جبين الإنسانية، كما أن العبودية للآخرين هي نكسة لا تقل عن نكسة الشرك. إن الإنسان لكي يبدع وينطلق في العمل الحضاري لابد له من أن يكون حراً مسيطراً على قراره وعلى نفسه.. وليس موزعاً بين هذا وذاك.. فقد ضرب القرآن الكريم مثلاً بالإنسان الحر المستقل والإنسان غير الحر بقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾^(١).

وعندما يكون الإنسان هو المحور في الحياة فإن منزلته تكبر، ويرتفع قدره لأن الأشياء لا قيمة لها إلا بمقدار خدمتها لهذا الإنسان.. على أن الإنسان تعرف قيمته بحجم علاقته بالله عزوجل.

جاء في الحديث القدسي: «يا ابن آدم خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي» وتفسير الحديث واضح وهو: أن الأشياء بمقدار خدمتها للإنسان تكون قيمتها، فكلما كانت تخدم الإنسان أكثر كانت قيمتها أكبر وأعظم.. في حين أن الإنسان لا قيمة له إلا بالله أي بإيمانه بالله سبحانه وتعالى.. إذن فالحديث واضح وهو: خلقت الأشياء لأجلك أي أن قيمة الأشياء على قدر خدمتها للإنسان.. بينما وخلقتك لأجلي أي أن قيمة الإنسان على قدر إيمانه ومعرفته بالله سبحانه وتعالى... وهذا هو ما جاء في القرآن بالضبط. فالقرآن الكريم يقول: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۝٣﴾^(٢).

إذن: فالإنسان لا يساوي شيئاً إلا بالإيمان والعمل الصالح، حتى كان الإنسان في القرآن يساوي: الإيمان والعمل الصالح.

(١) الزمر/٢٩.

(٢) العصر/ ١-٣.

وعلى ذكر هذا الموضوع نجد وسائل الإعلام حين تريد أن نتحدث عن الخسائر التي تحدث نتيجة حرب أو زلزال، أو إعصار يضرب البلاد والعباد، أقول: نجد وسائل الإعلام هذه تصب اهتمامها على إحصاء ومعرفة الخسائر المادية أما الخسائر في الأرواح فلا نسمع عنها إلا القليل القليل.. وبهذا يصبح الدينار حاكماً والإنسان محكوماً.. وهذه هي الحضارة المادية، حيث لا تزن الإنسان إلا بما يملك وليس أكثر من ذلك.. وعندئذ يصبح الناس ويمسون وهم يتحدثون عن المادة وليس عن الأخلاق. فلو أن إنساناً يحمل أخلاق الأنبياء، وعلوم الأوصياء وهو فقير، لما رأيت أحداً يسأل عنه.

وما أروع ما قال هذا الشاعر يصف في قوله هذا حالة المجتمع الذي يغطس في أوحال المادة وينسى الله وينسى نفسه بقوله:

فصاحه حسّان وخط ابن مقلّة	وحكمة لقمان وخط ابن أدهم
لو اجتمعت في المرء والمرء مفلس	ونادوا عليه لا يباع بدرهم
ويقول آخر:	

رأيت الناس قد مألوا	إلى من عنده مـ
ومن لا عنده مـ	فعنه الناس قد مألوا
رأيت الناس قد ذهبوا	إلى من عنده ذهب
ومن لا عنده ذهب	عنه الناس قد ذهبوا
رأيت الناس منفضة	إلى من عند فضة
ومن لا عنده فضة	فعنه الناس منفضة



ولكن هل الأموال هي التي تجلب السعادة للإنسان؟ أبداً.. إن السعادة لا يأتي بها المال. إن المال يشتري لك سريراً، ولكنه لا يجعلك تنام قرير العين.. فكم من ثري وغني ومليونير لا ينام إلا بحبوب الفاليوم.. وكم من فقير لا يملك ثمن العشاء ومع ذلك تراه ينام ملء جفونه وهو قرير العين مرتاح البال لأنه مؤمن بالله قانع بما قسم الله له من الرزق الحلال وإن كان قليلاً، لكنه خير وبركة، لأن القليل من الله كثير.

قليلٌ منك يكفيّني ولكن قليلٌ لا يقـال له قليلٌ

*** الحضارة الخاوية من الإيمان:**

وهكذا بات الإنسان في ضنك من العيش والحياة لأنه يعيش في حضارة بيت العنكبوت.. تلك الحضارة الفارغة من المحتوى، الخاوية من الإيمان التي لا تربطها بالله أية علاقة.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه مثلاً للذي يعبد الآخرين من دون الله. ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١).

ووجه الشبه بين حضارة اليوم وبيت العنكبوت هو أن بيت العنكبوت ليس بيتاً بالمعنى المعروف لهذه الكلمة وإنما هو ملحمة دموية، فالعنكبوت الأنثى هي التي تبني البيت ثم تقتل زوجها.. وبعد ذلك كل حشرة أو نملة تقترب من بيت العنكبوت تسحب إلى الداخل وتمزق على

(١) العنكبوت/٤١.



الفور وكأنها دخلت مثلث برمودا وليس عشاً صغيراً لإيواء كائن صغير لا قيمة له مثل العنكبوت.

على أن القرآن الكريم كان دقيقاً في تعبيره عن بيت العنكبوت بأنه أوهن البيوت فهو لم يقل: خيط العنكبوت أوهن الخيوط، وإنما قال بيت العنكبوت، والفرق كبير بين الخيط والبيت، فخيط العنكبوت أقوى من خيط الحرير، ولذلك لم يذكر الخيط وإنما ذكر البيت لأن الوهن يعني الضيق والمشقة والضنك والقلق والجوع والحرمان والاضطهاد.. وهذا هو بالضبط ما يجري داخل الحضارة اليوم لأن الناس أعرضوا عن ذكر الله، أعرضوا عن حضارة الحق والعدل والحرية.. أعرضوا عن حضارة الإيمان والنور والصلاة.. فكانت هذه هي النتيجة: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ (١).

إذن: فلا راحة لنا إلا بالرجوع إلى الإسلام الصحيح، إسلام محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين - عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام -، وهذا موجود في حديث الثقلين الذي يضمن التمسك به سعادتنا في الدنيا والآخرة.

(١) طه / ١٢٤.





ملاحظات حول حديث الخطاء

ملاحظة أولى

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (١).

لكل شيء ظاهر وباطن، ولكل آية تفسير وتأويل، بل إن حياة الأنبياء والرسل، والأوصياء والأئمة قائمة على هذا الأساس، وتعتمد بالكامل على هذا الواقع، وهذه الحقيقة، فكل شيء خلقه الله بقدر وجعله قائما على هذا الميزان المؤلف من الظاهر والباطن في كفتيه، فما طاب ظاهره طاب باطنه، وما خبث باطنه خبث ظاهره، ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ (٢).

على أن الناس -في العادة- يكتفون برؤية الظاهر دون أن يفكروا في بواطن الأمور، وتلك - لعمري- نازلة موجعة، تضرب إنسانية الإنسان في الصميم، محدثة في وجوده خلا، ليس من السهل سده، ولا رتقه.

إن فرعون كان ينظر إلى موسى بن عمران وأخيه هارون عليهما السلام نظرة سطحية عادية، إذ كان تقييمه لهما على أساس الذهب والفضة والمال لذلك راح فرعون يقول: أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين - يقصد موسى عليه السلام - ثم يضيف: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ﴾ (٣) انظروا إلى فرعون كيف كان يقيم نبيا من أولى

(١) الروم/٧.

(٢) الأعراف/٥٨.

(٣) الزخرف/٥٣.



العزم بالمال والذهب اذ جعل ميزان العزة والكرامة، إنما هو الذهب وليس بعده شيء في نظر فرعون.. ونفس الشيء جرى للحبيب المصطفى محمد ﷺ عندما راح قومه يضعونه في ميزان المال والثروة والغني، ليعرفوا هل يصلح أن يكون نبيا مرسلًا أم لا؟ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٣١) أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (١).

أي أنهم رأوا أن ينزل القرآن على أحد رجلين بالطائف وفي مكة لأن هذين الرجلين من الأغنياء وأصحاب المال والثروة والذهب والفضة، والنبى يجب أن يكون ذا مال وثروة ليستطيع أن يتلقى وحي السماء لأن وحي السماء لا ينزل على رجل ليس له مال ولا ذهب.. هكذا كانوا يفكرون وهكذا كانوا يعيشون في حياة ملئها المادة والطمع وحب المال والدنيا بعيدا عن رؤية الحق، ورؤية النور الذي أنزل مع المصطفى ليخرج الناس به من الظلمات إلى النور، ولذلك وقع هؤلاء في اليوم العسير من الشدة والبلاء حيث اصطلمتهم الفتن وداستهم بأخفافها وطحنتهم بقسوتها ووحشيتها بعد أن ضربتهم بسياط الجوع والخوف، والذل والهوان.

من هنا فإننا لكي نفهم الأمور على حقيقتها، فانه لابد لنا من كشف الحجب ورفع الموانع وتحطيم الأغلال التي وضعها الطفافة في أعناقنا، ولا يتحقق ذلك إلا بمعرفة الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام، ولا غرابة في ذلك ولا عجب، فهي أم المعرفة في الإسلام، وأم الأئمة

(١) الزخرف/ ٣١- ٣٢.

الأطهار وهي أم أبيها الذي كان يقوم إجلالا لها إذا أقبلت إليه ويأخذ يدها فيقبلها.

ومن هنا - أيضا - ورد في حديث أبي عبدالله الصادق عليه السلام: (أنه من عرف فاطمة حق معرفتها فقد أدرك ليلة القدر)، وتأملوا كلمة - حق معرفتها - لأن هناك مستويات ودرجات للمعرفة، فإذا وصلت المعرفة إلى مستوى الحق فقد تمت وكملت وهذا من أعظم الأمور في الباب يا أحبتي.

تقول فاطمة الزهراء عليها السلام: (أيها الناس اعلموا أني فاطمة عليها السلام وأبي محمد عليه السلام أقول حقا عودا وبدوا ولا أقول ما أقول غلطا، ولا أفعل ما أفعل شططا، لقد جاءكم رسول من أنفسكم، عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فان تعزوه وتعرفوه، تجدوه أبي دون نسائكم وأخا ابن عمي دون رجالكم فلنعم المعزي إليه فبلغ الرسالة، صادعا بالندارة، مائلا عن مدرجة المشركين، ضاريا ثبجهم، داعيا الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، يكسر الأصنام وينكث الهام، حتى انهزم الجمع وولوا الدبر، وحتى تفرى الليل عن صبحه، وأسفر الحق عن محضه، فنطق زعيم الدين، وخرست شقاشق الشياطين، وطاح وشيظ النفاق وانحلت عقد الكفر والشقاق، وفوهم بكلمة الاخلاص في نحر من البيض الخماص، وكنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب ونهزة الطامع وقبسة العجلان وموطأ الأقدام، وكنتم تشربون الطرق وتقتاتون القد والورق أذلة خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فأنقذكم الله بأبي محمد عليه السلام بعد اللتيا واللتى ويعد إن مني بيبهم الرجال وذويان العرب ومردة أهل الكتاب أهل الكتاب

كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله، أو نجم قرن للشيطان أو فخر فاعرة من المشركين، قذف أخاه في لهواتها فلا ينكفأ حتى يطا صماخها بأخمصه، ويخمد لهبها بسيفه، مكدودا في ذات الله قريبا من رسول الله مجتهدا في أمر الله سيدا في أولياء الله، مشمرا ناصحا مجدا كادحا، وأنتم في رفاهية من العيش وادعون آمنون فاكهون، تتربصون بنا الدوائر، وتتوكفون الأخبار، وتنكصون عند النزال وتفرون من القتال، فلما اختار الله لنبه دار أنبياءه وماوى أصفياه ظهرت فيكم حسيكة النفاق، وسمل جلاباب الدين ونطق كاظم الغاوين، ونبغ خامل الأقلين وهدر فنيق المبطلين، فخر على عرصاتكم واطلع الشيطان رأسه من مغرزه، هاتفا بكم فألفاكم لدعوته مستجيبين، وللغرة فيه ملاحظين، فاستنهضكم فوجدكم خفافا، وأحمشكم فألفاكم غضابا فوسمتم غير إيلكم، ووردتم غير موردكم، هذا والعهد قريب والكلم رحيب، والجرح لما يندمل، والرسول لما يقبر، ابتدارا زعمتم خوف الفتنة ألا في الفتنة سقطوا وأن جهنم لمحيطة بالكافرين، فهيئات منكن وكيف بكم وأنى تؤفكون، وكتاب الله بين أظهركم أموره ظاهرة.. الخ).

ومن خلال هذا النص الذي استعرضناه الآن وهو مقطع واحد من خطاب فاطمة الزهراء عليها السلام الذي ألقته في حشد من المهاجرين والأنصار بعد رحيل أبيها المصطفى صلى الله عليه وآله نستطيع أن نلمس الحقائق التالية التي أرادت الزهراء كشفها للعالم كله، لمعرفة الحق وأهله، ومن ثم لنصرة الحق وأهله، لأن المعرفة بلا عمل تموت وتطفأ، في أنها تحيا في العمل وتتألق في الممارسة الفعلية.

والحقائق هذه ليست كلها وإنما بعضها على الشكل التالي:

١- قبل أن تقول: (اعلموا أني فاطمة، قالت فاتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، فإنه إنما يخشى الله من عباده العلماء).

وهذا أعظم دليل على عظمة الخطاب، وكبر القضية التي تحتاج معرفتها الى التقوى والعلم لأنه لا يمكن لمن يريد المعرفة أن يتقدم بغير تقوى، بل إن القرآن الكريم ليرينا إن التقوى إنما هي منظار للنفس ترى من خلاله الحقائق التي نحن في صددنا ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلِتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾^(١) فالتقوى هنا جاءت منظارا للنفس ترى به الحق والحقيقة.. ومن هنا قالت: اعلموا أني فاطمة عليها السلام على أننا نجد ذلك في كتاب الله في قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾^(٢) كما في آيات أخرى مماثلة جاءت في سورة البقرة، وكذلك جاء قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ﴾^(٣)، لأن التقوى هي الأساس القوي الذي تقوم عليه جامعات العلم ومدارس المعرفة، بل إن التفقه الذي أمرنا الله به، لا يتم بغير التقوى بأي شكل من الأشكال وبأي حال من الأحوال وهذه حقيقة لا غبار عليها، ولا قتام.

٢ - عندما تقول الزهراء عليها السلام (اعلموا أني فاطمة) فإنها تريد أن تقول أن معرفتي تحتاج الى علم وفقه وإيمان ويقين، إذ ليس في إمكان كل الناس أن يعرفوني من دون علم ولا هدى ولا كتاب منير، بل لابد لمن يريد أن يعرفني، أن يتسلح بالعلم والإيمان ليرتفع إلى مستوى يستطيع

(١) الحشر/١٨.

(٢) البقرة/٢٠٣.

(٣) البقرة/٢٨٢.

من خلاله أن يعرفني، فأنا أعيش في بيوت أذن الله أن ترتفع ويذكر فيها اسمه، وعلى الذين يريدون المعرفة لأهل هذا البيت أن يرتفعوا بأرواحهم وعقولهم لينالوا قسطاً من المعرفة، فإله عز وول يقول في إشارة واضحة لهذا المعنى ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾^(١) والمراد أن العلم والإيمان يرفعان المؤمن درجات يستطيع من خلالها أن ينظر إلى هذا البيت الشامخ العملاق الذي يعيش في العرش العظيم، كما يعيش في قلوب الأنبياء والمرسلين، وقلوب الأئمة الطاهرين، وقلوب شيعتهم ومحبيهم من الأحرار في العالم.

إذا: فان قولها: اعلّموا إني فاطمة، يشير إلى هذه الحقيقة وهي أن ليس في الإمكان معرفتها إلا بالعلم والإيمان والتقوى، وهذا كله لا يوجد إلا في مدرسة أهل البيت عليهم الصلاة وأزكى السلام.

٣ - الارتفاع مرة بالبدن، وتارة بالروح، فالارتفاع بالبدن يرينا أشياء أكثر، في حين أن الارتفاع بالروح يرينا حقائق أكثر، ولأن الإنسان مزود بالبصر لرؤية الأشياء، وبالبصيرة لرؤية الحقائق، فانه يحتاج دائماً الى نور العلم والإيمان واليقين لرؤية الحق وأهل الحق، وذلك لا يتم إلا بحبهم ومودتهم - ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(٢) وتأملوا جيداً أن المودة هنا مطلوبة للقري وليس للنبي ﷺ لأن مودة النبي هي الأصل ولأن الناس كلهم يتفقون على مودته ومحبته، غير أن الحقيقة انما تظهر في مودة قرياء وهم أهل بيته الذين أذهب الله عنهم

(١) المجادلة/١١.

(٢) الشورى/٢٣.



الرجس وطهرهم تطهيرا يقول الحق: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾^(١) إذا: فمن زعم أنه يحب النبي، عليه أن يتوجه لحب أهل بيته ويظهر حبهم على يده وفي قلبه وعلى لسانه لأن الحب مكانه في القلب ومن هنا جعل الله القلب منطقة حرة ليس في إمكان أحد أن يمارس عليها ضغوطا من أي نوع كانت تلك الضغوط، فالقلب أساسا لا يتفاعل مع القوة ولا مع السلطة، وإنما يتعامل مع الكلمة والمحبة والمودة ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾^(٢) فهذا إكراه يقع على البدن، ولكنه لا ينال القلب مطلقا لأن القلب يسبح في سماء حرة لم يجعل الله عليها لأحد من سبيل، حتى الشيطان لم يكن ليبلغ هذه الساحة المقدسة التي اسمها القلب، والإرادة والضمير والوجدان، فقد قال له الله عزوجل: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾^(٣) وهذا هو الحق الذي لا أحيد عنه ولا أزول بحول الله وقوته وتوفيقه وتسديده.

فالكل يزعم أنه محب للنبي ﷺ ولكن لا يصدق هذا الزعم إلا بمودة القربى وحفظ النبي في أهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا - فكل يدعي وصلا بليلي وليلى لا تقر لهم بذالها.

وبكلمة: فأين الذين حزوا رأس الحسين عليه السلام من محبة النبي وطاعته وحفظ العهد معه والميثاق؟ وأين الذين زعموا أنهم السائرون على خطى النبي كذبا منهم وزورا وبهتانا، إذ أنهم بدل أن يحفظوا عهد

(١) آل عمران/٣١.

(٢) النحل/١٠٦.

(٣) الحجر/٤٢.



النبي بآله الأمجاد، نراهم قد شتتوهم بين مأسور ومقهور ومنحور
بسيف عناد، كما قال الشاعر: هذا بسامرا وذاك بكريلا وبطوس ذاك
وذاك في بغداد.

تبا لهم من أمة لم يحفظوا عهد النبي في أهل بيته وخصوصا في
بضعته الصديقة الكبرى الطاهرة فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه
عليها.

إذا: فالارتفاع نوعان: ارتفاع بالبدن لرؤية الأشياء، وارتفاع بالروح
لرؤية الحقائق ومن هنا كانت الصلاة معراج المؤمن، لماذا؟ لأنها تنهى
عن الفحشاء والمنكر، وحين تنهى عن ذلك فإنها تغسل الإنسان من
الأردان وتطهره من الأنجاس، وإذا فعلت ذلك عرجت بروحه إلى أعلى
عليين حيث رؤية الحقائق واضحة ليس عليها غبار، ولا فيها غموض،
ولهذا كانت الصلاة معراج المؤمن، على أن إثبات الشيء لا ينفي ما
عداه، فكل شعائر الله تصنع مثل صنيع الصلاة، وكل فرائض الإسلام
تفعل مثل هذا الفعل، وكل شرائع الدين تؤدي إلى ذات الهدف وعين
الغاية.

من كل ذلك نخرج بحصيلة مفادها: أن الارتفاع بالروح والعقل لرؤية
الحقائق بشكل أكثر وضوحا إنما يتم عند التوجه إلى بيت علي وفاطمة
عليهما السلام، لأن قمة البيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها
اسمه، يسبح له فيها بالغدو - أي عند الفجر وعند الصباح - والأصيل
أي عند الأصيل في غروب الشمس وعند هبوط الظلام ﴿وَرَجَالٌ لَا
تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ

فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿١﴾ على أن هذه الصفة إنما هي خاصة ببيت فاطمة - يخافون يوماً - ففي سورة الإنسان جاء على لسان أهل البيت وهم: علي وفاطمة والحسن والحسين عليه السلام في قصة إطعام المسكين واليتيم والأسير - جاء على لسانهم ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا غَیْبًا قَمَطًا لَّغَايَةً﴾ ﴿١٠﴾ فَوَقَّاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴿٢﴾ وأنت هداك الله الى الحق، لو أخذت آية ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ والتي وردت في سورة النور في صفة البيوت التي أذن الله أن ترفع، وضممتها الى هذه الآية في سورة الإنسان ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا غَیْبًا قَمَطًا لَّغَايَةً﴾ لظهر لك الحق جليا في وضوح ليس فيه لبس ولا غموض، أن أصحاب البيوت التي أذن الله أن ترفع هم أصحاب سورة الدهر، وهم الذين أطعموا المسكين واليتيم والأسير قوتهم وطعامهم وهم في غاية الجوع والسغب، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عصمة أصحاب الكساء وعلو درجتهم، وسمو منزلتهم التي لا يرقى إليها الطير، وينحدر عنها السيل، كل ذلك لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

٤ - على أن في خطبتها بحر من المعرفة والنور لا ساحل له ولا حدود، ويمكن في شيء من الجدية والإصرار على المضي في هذا الطريق الواضح، نستطيع أن نكتشف كنوزا من العلم والمعرفة، سيأتي الكلام عنها وحولها في موضعه من هذا الكتاب إنشاء الله تعالى، على

(١) النور/٣٧.

(٢) الإنسان/١٠

- أنها سلام الله عليها - أرادت أن تحدث العالم عن الانقلاب الذي وقع بعد رحيل المصطفى محمد ﷺ - وقد أظهره القرآن الكريم في صراحة ووضوح رغم تعتيم المخالفين عليه، ومحاولاتهم المستميتة لاختفائه وكتمانهم وضع روايته وحجب حكايته، حتى عاد الأمر رغم وضوحه، خافيا على الناس غير معروف عندهم ولا مسموع لديهم، وقد أشارت الزهراء فاطمة عليها السلام إلى هذه الحقيقة بقولها: (وكتاب الله بين أظهركم أموره ظاهرة واضحة، وزواجه لائحة، رغبة عنه يريدون أم بغيره تحكمون بئس للظالمين بدلا، ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين) فقد بينت - صلوات الله وسلامه عليها - الردة التي حدثت بعد وفاة النبي، والانقلاب الذي حدث بعد رحيل المصطفى مباشرة، اذ ذكره القرآن الكريم، وأثبتته الوحي الجليل في آيات محكمات ليس هي من المتشابهات ولا من المحجوبات عن الأفهام والعقول أبدا، فهذا قوله تعالى واضح في ذلك ليس فيه ذرة من الالتباس ولا غبرة من الشبهة أبدا، أبدا، أبدا ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ على أن هنا بعض النقاط التي أود الإشارة إليها لتعميم الفائدة وهي كالتالي:

أ- ان الانقلاب الذي ذكره القرآن إنما هو صنفان، انقلاب على الوجه، وانقلاب على الاعقاب، على أننا نعلم أن الذي ينقلب على وجهه يستطيع أن يتلقى الأرض بيديه، بخلاف الذي ينقلب على قفاه حيث يفقد التوازن بالكامل ويفقد القدرة على ضبط حركة الجسد، والنفس،

لذلك يكون الانقلاب على الأعقاب أكثر خطرا، وأوجع ضربا من الانقلاب على الوجوه يقول القرآن في آية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾^(١) فهذا الانقلاب على الوجه في مجال الإيمان وتركه الى الكفر والضلال، في حين أن القرآن يصف الانقلاب الذي يحصل في مجال الولاية بأنه انقلاب على الأعقاب أي أنه أكثر دهشة وعجبا، ووجعا في الانقلاب الأول، وما ذلك الا لأن الولاية هي الأصل في كل شيء في الوجود، فلا رسوخ للإيمان بغير الولاية، ولا قبول للأعمال من دونها، وهذا ما تؤكد الأحداث ويدعمه الواقع الذي رأيناه بعد وفاة النبي محمد ﷺ حيث لم يترك المسلمون الصلاة ولا الحج ولا الصيام ولا الزكاة وإنما تركوا ولاية أمير المؤمنين علي عليه السلام.

إن كونهم لم يتركوا العبادات، بل تركوا الولاية، لأعظم دليل وأكبر برهان على أن الإسلام هو الولاية، لأنها هي علامة الإيمان ودلالة القبول عند الله عزوجل.. فقد ورد في الكافي عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام - ما مفاده ومعناه: (لو أن عبدا عبد الله بين الركن والمقام ألف سنة حتى تنخلع رقبتة وعنقه من السجود والركوع والقيام، ولم يأت الله يوم القيامة بولاية أهل البيت، لأكبه الله على منخريه في نار جهنم) يدل على ذلك بوضوح أثر في قوله تعالى في خطابه للحبيب المصطفى يوم الغدير وهو اليوم الذي أعلن فيه المصطفى ولاية الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام وأخذ البيعة من الناس كلهم جميعا في حجة

(١) الحج/١١.

الوداع حيث بايعه أكثر من مئة ألف في ذلك الجمع، على أن من أراد المزيد من المعلومات والمعرفة في هذا المضمار، فعليه مراجعة كتاب الغدير للشيخ الأمين وهو كتاب جمع فيه هذا الشيخ الجليل كل مصادر السنة والعامّة حول نص بيعة الغدير، وعيد الغدير وولاية أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.. وأقول يدل على هذا بوضوح أكثر الخطاب الرباني الذي وجهته السماء للحبيب المصطفى ﷺ في شأن يوم الغدير: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^(١) وأنت ترى هنا أيها القارئ أن الله عزوجل قبول الإيمان والإسلام بالولاية لأمر المؤمنين علي عليه السلام لأنه قال: (وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) أي أن تبليغ الرسالة لم يؤد إلى غاية ولم يعط نتائجها بغير إعلان الولاية، وإلا ففي السنة الأخيرة من حياة الرسول أي شيء لم يبلغه النبي، وأي فريضة لم يعلنها، ثم يضاف إلى ذلك الضمان الذي تكفل الله به للدفاع عن نبيه بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ وهو دليل قوي وواضح وعميق على أن المطلوب من التبليغ هنا، إنما هو الولاية لا الفرائض المعروفة، لأن الرسول كان يبلغ الفرائض من صلاة وصيام وحج زكاة وآداب من دون أن يكون هناك خطر على حياته يقتضي الدفاع عنه والذب عن نفسه كما في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ إن هذا ليدل دلالة واضحة على أن التبليغ محصور - هنا - في قضية الولاية والإمامة، والخلافة لأنها هي المسألة الوحيدة التي تثير غضب

(١) المائدة/٦٧.



الحاقدين، وكيد الفجار، وخديعة المنافقين، وأن وضعهم بعد رحيل
المصطفى لأكبر دليل على هذه الحقيقة، أي الانقلاب الذي حدث بعد
وفاة النبي ﷺ ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ
انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ
الشَّاكِرِينَ﴾^(١).

(١) آل عمران/١٤٤.



ملاحظة ثانية (أ)

الحرية، العدل، حقوق الإنسان، الرحمة، الإنسانية، العزة، الكرامة تساوي كلمات فقدت مضمونها - وهنا الملاحظة العظيمة التي تستحق الاهتمام والتركيز عليها وهي:

ان الكلمة التي يضعها الله لا يمكن أن تفقد معناها، لأنها لو فقدت معناها لما عادت الكلمة ذاتها التي وضعها الله عزوجل، إذا فالكلمات يجب أن تكون أشخاصا معصومين لا يمكن سلبهم ذلك المعنى الكبير، لا يمكن أن تفرغ أحدهم من محتواه، انظر الى هذه اللحظة والعظمة - انظر - يجب أن يكون في الحياة، حرية، مساواة، إثارة، عدل، إخوة.. الخ - وفيها: يحرفون الكلم عن مواضعه.. يبدلون كلمة الله ﴿وَمَا يُدْلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾^(١) كلمات الله - لا مبدل لكلماته - وفي القرآن أنهم بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار - يحرفون الكلم عن مواضعه - نسو حظا مما ذكروا به ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾^(٢) «لا مبدل لكلمات الله» المعنى غير اللفظ، فأنت حين تكتب كلمة البحر أو اسم البحر، فهل تحصل على نفس الشعور وذات الإحساس الذي يخالجك وأنت تقف على ساحل البحر؟.. أو بتعبير آخر: نحن حينما

(١) ق/٢٩.

(٢) الكهف/١٠٩.

نقف على البحر نشعر بعظمة البحر، وبإحساس لذيذ يجري في أعماقنا، حتى أنه يبعد عنا الهم والغم - فهل نحصل على نفس هذا الإحساس حين نكتب كلمة البحر، أو اسم البحر ثلاثة أحرف؟ كلا...

- اذا: هنا نفس الشيء بالنسبة لآيات الله فأنت تقرأ الآية وتكتبها ولكنك لا تحس بها كما تحس بها إذا قابلتها إذا طبقتها - أنت تكتب الصلاة ثم تصلي - فيداخلك إحساس بالطمأنينة حين تصلي - ولكن هذا الإحساس لا تحصل عليه إذا اكتفيت بكتابة اسم الصلاة - ونفس الشيء بالنسبة للصيام - تكتبه وتصومه - فهل الإحساس واحد؟ - عندما تكتب الصيام وعندما تصوم؟

- وكذلك الحج - تكتب الحج وتقرأ سورة الحج، وتقرأ مناسك الحج وتقرأ المسائل الفقهية المتعلقة بالحج هذا كله صحيح، وتحصل على شعور معين وإحساس معين، ولكن حينما تذهب الى الحج، وتباشر مناسك الحج بنفسك، انظر الفرق بين هذا وذاك، فهل تحصل على نفس الإحساس وذات الشعور الذي حصلت عليه عند الإكتفاء بالقراءة فقط؟

أو يمكن أن يقال هذا الموضوع بالعكس هكذا على الشكل التالي:

أنت حين تذهب إلى الحج وتباشر المناسك بنفسك وتطبق كل المقررات والسنن في الحج، تحصل على إحساس وشعور، وتشترك معك الملائكة.. الخ ولكن عندما تكتفي بقراءة سورة الحج والمسائل الفقهية.. الخ فهل تحصل على ذات الشعور ونفس الإحساس الذي وجدته في الحج؟ هل إذا قرأت سورة الحج تحصل على ذات الإحساس وتجد ذات الشعور في نفسك وقلبك حين تمارس الحج مباشرة بنفسك؟



لا شك أن للقراءة أثرا كبيرا في الثواب ولكن للمباشرة أثر أكبر في الثواب وفي إسقاط الذنوب وإطفاء نار الحطب التي أشعلتها فوق ظهرك.

ونفس الشيء يقال في الجهاد: كتابة وقولا وفكرا وعملا - ففي الفكر، وفي الكتابة وفي القول، هذا كله جيد ولكن الثمرة التي يعطيها الجهاد وهي ثمرة تظهر في النفس وفي الأسرة وفي المجتمع، هذه الثمرة لا يمكن لأحد أن يحصل عليها إلا بالجهاد بمباشرة الجهاد بنفسه - ولذلك يقول أمير المؤمنين سلام الله عليه: (أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة، كتبه الله لخاصة أوليائه وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة وجنته الوثيقة فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل، وشمله البلاء، وديث بالصغار والقماء).

إذا: فالعزة من الجهاد، والجهاد هو جهاد النفس، وجهاد الشيطان وجهاد العدو، وجهاد ضد المعاصي وجهاد على تحمل الطاعات.

ففي الطاعة جهاد، لأنك تصبر على الطاعة أو تصبر عليها، وفي المعاصي وتركها جهاد، لأنك تصبر عنها، فالصبر على الطاعة جهاد والصبر عن المعصية جهاد، ومجاهدة النفس وتربيتها جهاد، وتربية العائلة والحفاظ عليها جهاد، وإدارة الدولة بالحرية والعدل والإحسان جهاد، وإدارة الأسرة بالرحمة والمودة والحب والإخلاص جهاد، وإدارة المؤسسة وفقا لما يتطلبه الحق وما تتطلبه المرحلة جهاد أيضا، وهكذا دواليك.

فإذا قرأت الآيات واكتفيت بالقراءة فإنها تعطيك إحساسا لذيذا،



وطمأنينة مهدئة ولكن إذا طبقت تلك الآيات زاد إحساسك بالطمأنينة، وزاد شعورك بالراحة والعظمة وكبر النفس الى درجة الاطمئنان، ومن هنا كانت الأسماء الحسنى مترجمة في أهل البيت عليهم الصلاة والسلام.

فاطمة هي الكلمة... ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ (١).

الكلمة كلمتان: واحدة طيبة وأخرى خبيثة ولكل واحدة منها صفات خاصة بها.. فالكلمة الطيبة تجد لها جذورا وأصولها ثابتة ضاربة في أعماق الأرض، وأغصانها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.. في حين أن الكلمة الخبيثة ليس لها جذور ولا أصول ولا ثمر لأنها اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار.

على أن الشيء اللافت للانتباه إنما هو ضرب الشجرة مثلا للكلمة الطيبة وذلك للنقاط التالية:

أ - الشجرة لغذاء الأبدان، والكلمة لغذاء العقول لأن العقل يتغذى بالعلم والعلم بالكلمة وليس بغيرها.

ب - عندما ننظر الى الكون الفسيح هذا نجد الحكمة ظاهرة في كل شيء في الوجود من الشجرة الى المجرة، ومن النطفة الى الإنسان، ومن الحبة الى أكبر دوحة في العالم وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على

(١) إبراهيم/٢٤-٢٥.

أن الخالق حكيم وعليم لا يصنع العبث أبدا وإنما حكمته تتجلى في كل شيء خلقه: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (١).

وكما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: (ما رأيت شيئا إلا رأيت الله قبله ومعه وبعده) وقالت سيدتنا الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء: (أنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها، كونها بقدرته وذراها بمشيئته من غير حاجة منه إلى تكوينها إلا تثبيتا لحكمته وإعزازا لدعوته).

(١) طه/٥٠.



﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠)﴾ (١).

ورد في كتاب معاني الأخبار عن جابر الجعفي، قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي الباقر - عليهما السلام - عن قول الله عز وجل: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ قال: أما الشجرة فرسول الله ﷺ وفرعها علي عليه السلام، وغصن الشجرة فاطمة بنت رسول الله ﷺ وثمرها أولادها عليهم السلام، ورقها شيعتنا، ان المؤمن من شيعتنا ليموت فتسقط من الشجرة ورقة، وان المولود من شيعتنا يولد فتورق ورقة (٢).

وفي حديث آخر يرويه ابن عباس عن النبي ﷺ (ان جبرئيل قال للنبي: أنت الشجرة وعلي غصنها وفاطمة ورقها والحسن والحسين ثمارها).

وفي حديث ثالث عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام: في

(١) إبراهيم/٢٤-٢٥.

(٢) تفسير نور الثقلين للحويزري - معاني الأخبار للصدوق ص ٤٠٠.

قول الله: (ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، قال: يعني النبي ﷺ وآله الأصل الثابت والفرع الولاية لمن دخل فيها) .

ورابع ينقله الحسن بن محبوب يتصل بأسناده الى سلام بين المستير عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: سألته عن قول الله تعالى ﴿مثل كلمة طيبة﴾ الآية قال: الشجرة رسول الله ﷺ ونسبه ثابت في بني هاشم وفرع الشجرة علي بن أبي طالب عليهما السلام وغصن الشجرة فاطمة عليها السلام وثمرتها الأئمة من ولد علي وفاطمة عليهما السلام والأئمة من أولادها أغصانها، وشيعتها ورقها، وان المؤمن من شيعتنا ليموت فتسقط من الشجرة ورقة، وان المؤمن ليولد فتورق الشجرة، قلت: رأيت قوله: ﴿تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها﴾؟ قال: يعني بذلك ما يفتون به الأئمة شيعتهم في كل حج وعمرة من حلال والحرام، ثم ضرب الله لأعداء آل محمد ﷺ مثلا فقال: ﴿ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار﴾ .

وفي بصائر الدرجات روى عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى ﴿تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها﴾ قال: هو ما يخرج من الامام من الحلال والحرام في كل سنة الى شيعته^(١).

(١) تفسير نور الثقلين للحويزري - معاني الخبر للصدوق ص ٤٠٠.



ملاحظة ثالثة

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ..﴾.

وجه الشبه بين الكلمة والشجرة، هي الأمور التالية:

١ - كما أن الطعام الجيد يتحول الى طاقة جيدة في البدن، كذلك الكلام الجيد يتحول الى طاقة جيدة في الروح لأن الروح تتغذى بالكلام والكلمات، هذا من جانب، ومن جانب آخر فان أبعاد الروح تشبه أبعاد البدن، فالبدن أبعاده الصحة والمرض، والحياة والموت، والنوم واليقظة، ولا يكون البدن إلا ضمن هذه الأبعاد، فكذلك الروح نومها في غفلتها، ويقظتها في وعيها، ومرضاها في شكلها وصحتها في يقينها، وحياتها في عملها وإيمانها، وموتها في كفرها وجهلها.. فالكفر والجهل يشكلان موت الروح، وكذلك اليقظة تمثل الوعي للروح، في حين أن النوم يشبه الغفلة أو قل: الغفلة للروح تشبه النوم للبدن، ونفس الشيء يقال في الصحة والمرض، وقد مرت الإشارة إلى ذلك فالشك الذي هو مرض الروح والقلوب، يقابله اليقين الذي هو صحة الأرواح، من هنا كان التشابه بين الروح والبدن قائما في المثال الذي ضربه الله عز وجل للكلمة في القرآن الكريم.

٢ - إنما ضرب الله هذا المثل ليبين أن الكلمة وقعها في الروح يشبه

وقع الشجرة في البدن، فالشجرة فيها غذاء البدن، والكلمة فيها غذاء الروح، لأن العقل يتغذى بالكلمة، أو قل: إن العقل يتغذى بالعلم فلولا الكلمة لماتت العقول والأرواح، ولولا الشجرة لماتت الأبدان ولما عاش الناس الحياة الطبيعية التي يعيشونها.

وبالمثل لو رأينا رجلين على مائدة واحدة، يأكل أحدهما طعاما، بينما يقرأ الآخر كتابا، فان كليهما يتغذيان، غير أن الأول يغذي بدنه، في حين أن الثاني الذي يقرأ الكتاب يغذي عقله وروحه، وهذا وجه آخر لتقارب المعاني بين الكلمة الطيبة والشجرة الطيبة.

٣ - أن الشجرة مصدر غذاء لا يخطأ أبدا، أي أن الشجرة معصومة عن الخطأ مجازا لأنها لو أخطأت لما أعطت هذا العطاء لكل البشر، على أن هناك إشارة يجدر الالتفات إليها، وهي أن الروح أعظم عند الله من البدن، فإذا كان البدن جعله الله يتغذى من منابع معصومة ليست فيها خطأ، فكيف يمكن للروح أن تتغذى من مصادر كلها خطأ وذنوب وخطايا؟

انه لعجب يثير الغرابة ويوجع الفؤاد، أن يكون البدن يتلقى غذاءه وطعامه من أشجار لا تخطأ في حين أننا نوافق ونرضى بأن تتلقى الروح غذائها من منابع مليئة بالأخطاء وأشخاص كلهم ذنوب ومعاصي، فهل هذا يجوز في شرع الله تعالى؟ لا أظن أحدا من العقلاء والمفكرين يرضى بهذه المعادلة غير العادلة، والقسمة الضيزي.. إن الإمام الحسن المجتبي سيد شباب أهل الجنة عليه السلام يقول: (عجبت لمن يتفكر في مأكوله، ولا يتفكر في معقوله، فيجنب بطنه ما يؤذيه، ويودع عقله ما يرديه) وهذا هو الواقع الذي يعيشه الناس في عالم اليوم وفي كل زمان

ومكان، فتجدهم يضيئون القناديل لمعرفة الطعام فلا يأكلون غير الجيد من الطعام، ولا يشربون غير العذب من الماء - إلا عند الضرورة - ولكنهم يتساهلون في غذاء العقول والأرواح فتراهم يأخذون علمهم من أي مصدر يصادفونه في الطريق، دون بحث ولا تفتيش ولا سؤال، وهذا لعمرى يشكل - في حد ذاته - طاقة كبرى تؤدي بالناس في أودية سحيقة من الجهل.. فقد ورد في تأويل قوله تعالى: ﴿فلينظر الإنسان الى طعامه﴾ أي فلينظر الى عمله الذي يأخذه عمن يأخذه وهذه المعلومة وردت عن الإمامين الصادقين عليهما السلام: أبي جعفر الباقر وأبي عبدالله الصادق - صلوات الله وسلامه عليهما.

والآن وبعد هذه الملاحظة، انظروا أحبتي إلى خطورة الموقف هنا حيث ينهمك الناس في غذاء أبدانهم وتغذية أجسامهم على موائد لم تكن محفوفة من الخطأ، ولا مصونة من الذنب، ولا في معزل عن الخطايا والشياطين.. على أن هذا كله يثير سؤالاً ملحا يقول: إذا كان البدن يستمد غذاءه من منبع لا يخطأ، فكيف نرضى لعقولنا وأرواحنا أن تتلقى غذاءها من مراكز ليس فيها مكان للفضيلة ولا مبلغ من العلم، ولا ذرة من النور، بل هي ظلمات بعضها فوق بعض بحيث إذا أخرج الواحد منا يده فيها لم يكدرها، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور.

وخلاصة البحث في هذه النقطة بالذات: أن تتغذى عقولنا وأرواحنا، بالوحي في مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وذلك من خلال حديث الثقلين الذي يجعل الهداية مستحيلة بغير التمسك بالكتاب والعترة، لأن الرسول ﷺ قال وقوله حق، ووعد، ووعد صدق: إن الأمة لا يكتب لها

النجاح ولا الظفر، ولا ترى الفلاح في حياتها بغير التمسك بالقرآن والعترة الطاهرة، فإنهما بحران متعانقان لا يلتقيان إلا بالخير والرحمة والهداية والنور والمغفرة، ومن دونهما فلا كرامة ولا هداية ولا نور، بل ظلام وذل وضلال وهوان.

٤ - إن تكوين الإنسان مؤلف من روح وبدن ونفس تتجاذبها الأهواء مرة، والعقول تارة، وطورا تتقاذفها أمواج الشهوات والغرائز وحب المال والدنيا، فهي - أي النفس في حالة اجتذاب واستقطاب - بين عالم الروح العلوي، ودنيا البدن إلى أسفل سافلين.. فلقد خلق الله عزوجل، هذا الإنسان من قبضة من الطين ونفخة من الروح، فأعطاه من الطين، البدن والغرائز، وأنشأ له من نفخة الروح العقل والفطرة والقلب والروح، فإذا هو إنسان ذو أفكار يجيلها، وتجربة يستفيدا، وأدوات يقلبها، وآلات يتصرف فيها وعقل يضيء له الطريق، كل ذلك نعمة من الله تقدست أسماؤه، يزيدا الحمدا، والشكر ويطفئها الكفر والجهل، بل إن الكفر يحولها نقمة بدل النعم، ويحل القوم دار البوار جهنم يصلونها فبئس القرار، على أن هناك ارتباطا وثيقا بين هذا التكوين للإنسان، وبين كون الشجرة مثلا للكلمة الطيبة فهي مؤلفة من أصل ثابت في الأرض وفرع ضارب في السماء، ومن التراب جاء البدن، ومن السماء جاءت الروح، وهنا نجد كل حاجات البدن من الأرض، في حين أن حاجات الروح من السماء، فالطعام والشراب والملبس والمسكن كل ذلك من الأرض لأنه يسد حاجات البدن الأرضي، في حين أن غذاء الروح يتمثل في عطاء السماء من الرحمة والعلم والنور، والأخلاق، والخصال الحميدة، والصفات الطيبة، كل ذلك من السماء ينزل كما ينزل المطر من السحاب وقد مرت الإشارة الى ذلك.



هذا كله تفسير للمثل الذي ضربه الله للكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة.. غير أن التأويل هو المقصود هنا، وهو المراد من ضرب هذا المثل، ففي التأويل أن الشجرة الطيبة هي محمد وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين لأنهم مصدر الخير والعطاء والنور والهداية، ولولاهم لما خلق الله هذا الكون، ولا أنشأ العالم أبداً، لأن الله عزوجل قد ذكر في القرآن الكريم أن السبب الأول في هذا الخلق إنما هو العبادة، والعبادة لا يمكن أن تتحقق، ولا يمكن أن تتم بغير محمد وهي روح النبي وقلبه ومهجته، بل هي شجنته في قلب النبي ﷺ كما مر ذلك في الأحاديث والأخبار والروايات الصحيحة المسندة الموثقة، التي لا يخالف ظاهرها ظاهر القرآن، ولا يخالف تأويلها باطن القرآن وتأويله، بل هي تستمد نورها من القرآن المجيد، كما تستد الأقمار المشرقة نورها من الشمس المضيئة.. على أن في حديث الكساء غذاء للروح والجسم والنفس كما سيأتي ذلك من خلال الطرح القادم لأنوار حديث الكساء وتبيان منهجية هذا الحديث العظيم، حيث يقول: (ألا ونزلت عليهم الرحمة وحفت بهم الملائكة واستغفرت لهم أن يتفرقوا) - في موضوع المحفل الذي يجتمع فيه الأحبة من شيعة آل محمد ليتذكروا هذا الحديث العظيم ببركته ونوره ورحمته، وهذه كلها تختص بغذاء الروح والعقل والقلب، في حين أن الذي يأتي بعدها يختص بغذاء البدن والنفس لأنه قال: وفيهم مهموم إلا وفرج الله همه ولا مغموم إلا وكشف الله غمه، ولا طالب حاجة إلا وقضى الله حاجته. وهذا هو الفوز العظيم الذي أشار إليه أمير المؤمنين علي عليه السلام بقوله: (إذا والله فرزنا وسعدنا، وكذلك شيعتنا فازوا وسعدوا في الدنيا والآخرة ورب الكعبة)، على أن الملاحظة هنا تؤكد تقديم غذاء الروح قبل غذاء البدن، وتقديم عالم الغيب على



عالم الشهادة، وتقديم التأويل على التفسير، لأن التفسير لا يفتح قلبه للحقائق إلا إذا رافقه التأويل، وعالم الشهادة لا يفصح عن نفسه، إلا بحضور عالم الغيب والملكوت، ولذلك نقرأ في أول القرآن بعد الفاتحة آيات أولى في سورة البقرة يقول الحق فيها: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (١).

إذا: فتأملوا قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾، لأن إقامة الصلاة لا تتحقق إلا بعد الإيمان بالغيب تبقى الصلاة على السطح لا تغوص لاصطياد اللؤلؤ والمرجان.

وإذا عرفنا أن هذا الحدث العظيم إنما وقع في أعظم بيت في الوجود، وهو بيت فاطمة وعلي عليهما السلام وهو بيت النبي ﷺ الذي يقول القرآن في وصفه: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ أقول: إذا عرفنا ذلك أدركنا أن فاطمة عليها السلام هي العلة التامة والآية الكبرى في خلق هذا الوجود العظيم، ولا تستغرب ذلك فالبحث العلمي متصل ومتواصل معك أيها القارئ الحبيب، وبمقدار ما تعطي من عقلك وفكرك للتدبر والتأمل والتفكير، تأخذ من الجواهر والدرر التي لا يحيط بها أحد من سائر البشر، إلا ملك مقرب أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان، لأن فاطمة عليها السلام، إنما سميت فاطمة لأن الخلق فطموا عن معرفتها.

(١) البقرة/١-٣.

(٢) النور/٣٦.



ملاحظة رابعة

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا... الخ ﴾^(١)

السماء ترسل المطر على الأرض فتتلقاه الأرض الطيبة دون الخبيثة، لأن الأرض الطيبة هي وحدها التي تتفاعل مع ماء السماء فتتهتز وتعطي من كل زوج بهيج رزقا للعباد، في حين أن الأرض الخبيثة لا تتفاعل مع المطر ولا تتلقاه للانتفاع لأنها لا تعطي غير الشوك والحنظل، وما يقال في المطر يقال في الشمس وتأثيرها على الشجر، إذ أن الشجرة الحية هي التي تتفاعل مع أشعة الشمس وحرارتها، في حين أن الأشجار الميتة تنثرها الشمس وتذروها الرياح فهي لا تستطيع أن تتفع بالشمس لأن الحياة شرط أساسي في الانتفاع من الشمس ومن غير الشمس من الطاقات التي تملأ هذا العالم بأرضه وسماءه.

على أن هذا القرآن الكريم يضرب الأمثال لتقريب الحقائق إلى العقول وخصوصا في ضرب المعقول بالمحسوس، ففي السماء مطر ينزل الى الأرض، وفي السماء نور ورحمة وهدى تنزل كلها الى القلوب، وكما أن الأرض الطيبة تستفيد من هذا العطاء، فكذلك القلوب الطيبة هي التي تستفيد وتتفع من هذا النور النازل من السماء قرآنا ورحمة وهداية وعلم وإيمانا و يقينا وكل ما من شأنه أن يخرج الناس من الظلمات الى النور.

(١) الرعد/١٧.

إن شرط التلقي أن يكون المتلقي سليماً وصحيحاً، لأن القلب المريض الأعمى لا ينتفع بنور الحق فضلاً عن معرفته، يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام لكميل بن زياد - وهو أحد أصحابه: (يا كميل إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها، فاسمع مني ما أقول لك: الناس ثلاثة فعالم رباني ومتعلم على سبيل نجا، وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور علم، ولم يهتدوا إلى ركن وثيق).

على أن الرحمة تنزل من السماء على كل شيء، وتسع كل شيء ولكن من يستفيد منها؟ لاشك أن صاحب القلب السليم المليء بالتقوى هو وحده القادر على التفاعل مع هذه الرحمة ومن ثم الاستفادة منها، فنحن نقرأ في دعاء كميل: (اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء).

ولكن السؤال هو : من يستفيد من هذه الرحمة؟ لاشك أن المتلقي الوحيد الذي ينتفع بهذه الرحمة إنما هو المتقي.. ﴿... وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ...﴾ (١)

إذا فالمتقي هو الشخص الوحيد الذي ينتفع من رحمة الله عزوجل صاحب المعروف الذي لا ينقطع أبداً، كما نقرأ ذلك في دعاء عرفة للإمام الشهيد أبي عبد الله الحسين عليه السلام حيث يقول: (يا ذا المعروف الذي لا ينقطع أبداً، يا مقيض الركب ليوسف في البلد القفر ومخرجه من الجب وجاعله بعد العبودية ملكاً، يا راده على يعقوب بعد أن ابيضت عيناه من الحزن وهو كظيم، يا كاشف الضر والبلوى عن أيوب، وممسك

(١) الأعراف/١٥٦.

يدي ابراهيم عن ذبح ابنه بعد كبر سنه وفناء عمره..) وهذا يدل على أن الرحمة لا تنقطع عن العباد أبداً، ولكن العباد ينتفعون منها أولاً ينتفعون حسب درجاتهم في الإيمان والمعرفة.. على أن للعمل الذي يقوم به الفرد أثر قويا على القدرة على التلقي والانتفاع من الرحمة والنور والهداية، أو عدم القدرة على الانتفاع، فالناس درجات ومنازل وحالات وطبقات وسيأتي الكلام حول هذا الجانب بالذات في موضعه من هذا الكتاب إنشاء الله تعالى.

ان فاطمة الزهراء عليها السلام نور الله في السموات والأرض، كما ورد ذلك في صريح الآيات والأحاديث خصوصا في آية النور التي يقول فيها الحق سبحانه: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ...﴾^(١)، وقد دلت الروايات الواردة عن أهل البيت في هذا الخصوص على أن المشكاة إنما هي فاطمة الزهراء عليها السلام، هكذا تحدثت الأخبار الواردة في مدرسة أهل البيت عليهم السلام فقها ولغة وتفسيرا وآدابا، على أن فاطمة هي المشكاة التي احتوت وتضمنت هذا النور العظيم وذلك أن الله ليس هو النور وإنما هو يخلق النور، كما أن الآية إنما هي مثل ضربه الله لأهل البيت عليهم السلام حيث قال: ﴿مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ...﴾، على أن الآخر فسر المشكاة بالكوة الغير النافذة في جدار، ويا له من تفسير لا يسمن ولا يغني من جوع لأنه قائم على الجهل بالقواعد الفكرية والأسس العلمية التي أرسى دعائمها الإسلام وحث الناس على معرفتها والتفاعل معها والانتفاع بها، أما

(١) النور/٣٥.



الكوة غير النافذة في الجدار فإنها مهزلة المهازل إذ كيف يرضى المفسرون أولئك بأن تكون الكوة في الجدار مثلاً لنور الله العظيم الذي أضاءت له السموات والأرض في الوقت الذي يرفضون فيه أن تكون الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام والتي دارت على معرفتها القرون الأولى، هي المشكاة التي أنارت الوجود كله بنورها الذي هو نور الله العظيم؟ وأنه لعجب عجاب، بل أنه عجب يثير الهم ويجلب الغم من أفكار أولئك الذين تركوا نور آل محمد وراحوا يتخبطون في الظلمات وراء الطاغوت والطواغيت الذين أخرجوهم من نور الإيمان والإسلام إلى ظلمات الكفر والفسق والفجور، فهؤلاء قوم كفروا بعد إيمانهم فبعداً للقوم الظالمين، وإلا فأى نور للكافر حتى يخرج منه إلى الظلمات؟ إن الكافر في الأساس غاطس في الظلمات وغارق في أحوال الجهل، وهذا هو الحق الذي لا غبار عليه ولا غموض، وإنما هو واضح يلمع في أشعة الشمس في وضوح النهار.

إذن: ففاطمة هي النور لأنها مشكاة نور الله العظيم، وهي الرحمة لأنها قلب النبي ومهجته وروحه التي بين جنبيه، وأبوها هو الرحمة الكبرى التي أرسلها الله للعالمين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١) هذا وفاطمة الزهراء عليها السلام هي رحمة ليس في الإمكان الإحاطة بها ومعرفتها، إذ ليس أمامنا سوى الاستعداد للانتفاع من هذه الرحمة، والتفاعل معها في كل أبعاد الحياة التي نعيشها فوق سطح هذا الكوكب الذي تحدثت الزهراء عن مستقبله في مواطن كثيرة ويوم ألقت خطابها

(١) الأنبياء/١٠٧.

العظيم أشارت الى شيء من ذلك بقولها: (فابشروا بسيف صارم وسطوة معتد غاشم واستبداد من الظالمين، يدع فيثكم زهيدا، وجمعكم حصيدا، فيا حسرة لكم واني بكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون).

على أننا يمكن أن نستفيض في الشرح والتفسير والتأويل في خصوص حديث الكساء أكثر فأكثر في الملاحظات اللاحقة إنشاء الله تعالى، وإنما في هذه الملاحظة أردنا أن نبين أن القلوب التي تتلقى معرفة الزهراء تشبه الأرض التي تتلقى المطر، فإذا كانت طيبة تفاعلت واهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، بخلاف القلوب الخبيثة والتي تشبه الأرض الخبيثة التي لا قرار لها ولا تفاعل مع الحق.

إذن: فلكي نستطيع أن نتفاعل مع هذا الحدث العظيم الذي وقع في بيت فاطمة عليها السلام ألا وهو حديث الكساء: حدث الكساء فانه لا بد أن نهى أنفسنا ونعدها للانتفاع والأخذ من هذا الاسم العظيم: حديث الكساء في بيت فاطمة عليها السلام.

تابع للملاحظة الرابعة لتأكيد المعنى الذي ورد فيها:

القلوب في تلقي الهدى والرحمة من السماء، تشبه الأرض حين تتلقى المطر وكذلك الأشجار حين تأخذ من حرارة الشمس وتستمد وجودها من نور الشمس وضياؤها.

الشمس ترسل أشعتها ونورها وحرارتها إلى الأرض فتستفيد الكائنات كلها، وتتفتح الأحياء برمتها وحتى كل الأشجار تتفتح من حرارة الشمس وأشعتها ماعدا الأشجار الميتة فإنها لاتقدر على الانتفاع ولاتستطيع الاستفادة من الشمس، لأن الشرط الأساسي للانتفاع بالشمس هو أن تكون الأشياء حية لاميتة، فالشجرة الحية هي وحدها التي تتفتح من أشعة الشمس وتحولها إلى غذاء، وعطاء عبر عملية التمثيل الضوئي في الشجر، أما الأشجار الميتة فأبعد ماتكون عن الانتفاع بالشمس، على أن هذا الأمر واضح وضوح الشمس لكل من له عقل وقلب ودين.. ونفس الشيء يقال في الأرض التي تستقبل المطر فتهتز معلنة عطائها من الفاكهة والزيتون والغذاء والأعشاب ومن كل الثمرات، من كل زوج بهيج، هذا هو الواقع الملموس في الأرض الطيبة حين ينزل عليها المطر، بخلاف الأرض الخبيثة التي لايزيدها المطر إلا مزيداً من الشوك، والحنظل والبوار. ﴿تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لُمُحْيِي الْمَوْتِ﴾ (١).

وبالمثل فإن المتلقي هو الذي يتفاعل مع هذا العطاء النازل من السماء

سلباً وإيجاباً، هبوطاً أو عروجاً، تكاملاً، أو تسافلاً، لافرق فالمخلوق حيث وضع نفسه أو وضع في موضع تارة يقدر على الانتفاع من طاقات الكون، ومرة يعجز فينزوي في رمال النسيان، فهذه قطرة ماء نزلت من السماء فصادفت الهدف البحري فدخلت في بطنها فتحولت الى درة غالية وثمانية، وتلك قطرة أخرى نزلت من السماء فصادفت فم أفعى فوقعت في بطنها فصارت سماً قاتلاً وزعافاً مريراً.

يقول أحدهم:

أرى الإحسان عند الحرديناً وعند العبد منقصة وذما
كقطر صار في الأصداف دراً وفي بطن الأفاعي صار سماً

ويقول : موجهاً إلى التربية والأدب في تلقي العطاء:

جاز الإساءة بالإحسان إن صدرت من امرء زلة تدعو إلى الغضب.
سجية النخل من يرميه في حجر كافاه عن ضربه بالبسر والرطب
والآن تعالوا معي أيها الأحبة لنصفي خاشعين لهذه الحكمة التي
تقول: إن رحمة الله وسعت كل شيء حتى إننا نقرأ هذا النص في دعاء
كميل في أوله:

اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء، ورسول الله ﷺ هو
وأهل بيته رحمة واسعة لا حدود لها جعلها الله لإنقاذ البشر، وخلص
العالمين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١). ويقول: ﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَاتُهُ
عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾^(٢).

(١) الأنبياء/١٠٧.

(٢) هود/٧٣.



وفي هذا إشارة إلى أن الرحمة العريضة الواسعة التي وسعت كل شيء وانضوى تحت لوائها كل موجود، هي ذاتها موجودة عند أهل البيت ولم ترفع بوفاة النبي ورحيله إلى الآخرة، لماذا؟ لأن البشرية لازالت في حاجة إلى هذه الرحمة، ومادامت في حاجة إلى هذه الرحمة المحمدية فإنه لابد لهذه الرحمة من البقاء في أهل بيت النبي حتى تستطيع الأمم وشعوب الأرض وكل العالمين أن تتفتح بها، يدل على ذلك أنه حتى علم النبي وخلقه وصفاته من شجاعة وسماحة وفصاحة ومحبة في القلوب هي الأخرى موجودة عند أهل البيت كما قال الإمام علي بن الحسين عليه السلام في خطابه الذي ألقاه في الجامع الأموي في قضية السبايات سبايا آل الرسول الذين حملوا مقيدتين مأسورين في الأصفاد والأغلال من كربلاء إلى الكوفة ومنها إلى بلاد الشام حيث يقام السبي هناك - قال الإمام السجاد عليه السلام من على المنبر المسجد الجامع: أيها الناس: أعطينا ستاً وفضلنا بسبع، أعطينا العلم والحلم والسماحة والشجاعة والفصاحة والمحبة في قلوب المؤمنين... «أي أن قلوب الأحرار في العالم تحبنا لأن القلب السليم هو قلب الإنسان المؤمن ولا يكون القلب سليماً إلا بمودتهم ومحبتهم، لأن حب أعداء الله علامة تدل على مرض القلوب وسقم الأفئدة، في حين أن القلوب السليمة هي التي تفيض بحب أهل البيت فتفيض الدموع معها عند ذكرهم، وتذكر مصائبهم وحياتهم، ومن هنا كان الحديث الذي نحفظه عن الإمام الحسين عليه السلام والذي قاله جده رسول الله ﷺ: «إن للحسين عليه السلام حرارة في قلوب المؤمنين لا تبرد أبداً» وهذا هو الحق، لأن حب الحسين من الدين والدين يكمل العقول كما ورد في حديث العقل في أول الكافي الوارد عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، أن يقول فيه: لما خلق



الله العقل قال له: أقبل فأقبل ثم قال له: أدبر فأدبر، فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إليّ منك ولا أكملتك إلا فيمن أحب، بك أثيب وبك أعاقب) ومعنى ذلك أن كل شيء يصنعه الإنسان فيه حب الله أي أن الله يحب ذلك الشيء، والعمل فإنه لا محالة يؤدي إلى إكمال العقل، لأن الله قال: مخاطباً العقل- ولا أكملتك إلا فيمن أحب، والحديث الذي يقول: حسين مني وأنا من حسين أحب الله من أحب حسيناً) تأملوا هذا المعنى الكبير فإذا أحبك الله أكمل عقلك، وكذلك في الفقه والفكر، والحديث أن إذا أحب الله عبداً أكمل له عقله، والله لا يحب إلا الذين يحبون محمداً وأهل بيته، ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(١) تأملوا هذا المعنى العميق جيداً، إذ يقول الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام مشيراً إلى هذه الحقيقة: أنتم أفقه الناس إذا عرفتم معاني كلامنا.

إذن : فمن هنا ننطلق معكم إلى معرفة هذه القضية التي مر ذكرها، وجرت الإشارة إليها، وهي أن الشرط الأساسي في الانتفاع من الأشياء والحقائق، إنما هو صحة وسلامة المتلقي، فالأرض تتفاعل مع السماء في تلقي المطر، غير أن الأرض التي تتفع بالمطر، هي الأرض الطيبة لا الأرض الخبيثة التي لا تتفاعل مع المطر، ولا حتى مع الشمس أبداً، مثلها في ذلك مثل الشجرة الخبيثة التي أجتثت من فوق الأرض مالها من قرار) وهنا ندرك وجه الشبه بين المطر النازل من السماء للأرض وبين الهدى والنور والإيمان النازلة من السماء للقلوب ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ

(١) الشورى/٢٣.

مَاءٌ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا»^(١) فكما أن الأودية تأخذ من المطر في حدود أحجامها، كذلك القلوب تستقبل الهدى من السماء بحسب ضيقها وسعتها بحسب صحتها وسقمها.. يقول: الإمام علي أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام لكميل بن زياد النخعي وهو من أصحابه: ياكميل إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها، فاحتفظ مني ما أقول لك:

الناس ثلاثة: فعالم رباني ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعا، اتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، لم يهتدوا بنور علم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق.

على أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يبين في مكان آخر أن هذه المعادلة الفكرية والحقيقة العلمية لا تتحقق إلا بوجود الإمام واتباع نوره وهديه فنسمعه يقول مشيراً إلى هذه الحقيقة:

«ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه، ألا وإنكم لاتقدرون على ذلك، ولكن اعينوني بورع واجتهاد وعفة وسداد» وأعود بكم إلى أصل الموضوع وهو أنه إذا كانت رحمة الله وسعت كل شيء فهل ينتفع بها كل شيء أم أن هناك من الأشياء من لا يستطيع الانتفاع بهذه الرحمة؟

لا شك أن الرحمة تعم الأشياء كلها ولكن الأشياء تتفاعل مع الانتفاع بالرحمة على قدر صلاحها وسلامتها، فإذا كانت بعض الأشياء غير صالحة ولا سليمة فإنها بالقطع والجزم ليس في إمكانها أن تستفيد من الرحمة شيئاً، وانظروا إلى قوله تعالى في صريح الآية ومحكم الذكر:

(١) الرعد/١٧.



﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ
بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١).

وانظروا إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢) أي أن
الإحسان هو الذي يقرب الرحمة منك، كما أن التقوى هي التي تجعلك
قريباً من شاطئ الرحمة هذه على أن هنا ملاحظة لا بد من ابدائها
وهي أن التقوى تعد منظاراً لرؤية الحقائق، أي أن الإنسان جاء إلى
الحياة مزوداً ببصر لرؤية الأشياء في العين، وببصيرة لرؤية الحقائق
بالقلب، وكما أن البصر لا يرى الأشياء إلا بنور الطبيعة والشمس،
كذلك البصيرة لا ترى الحقائق إلا بنور الإيمان والعلم ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ
آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾^(٣). وهذا هو الحق لأن ميزان
السمو والارتفاع إنما هو معقود بنواصي العلم والإيمان، إذ لولاهما لظل
الإنسان يرتع كالبهيمة المربوطة، همها علفها وشغلها لقمها، تلهوا عما
يراد بها.

وفذلكة القول: أن حديث الكساء الذي نريد أن نقدمه بين الحق
وأهل الحق، بل بين يدي الأحرار في العالم إنما هو يحتاج إلى قلوب
طاهرة ونيات صادقة لتستطيع تلك القلوب من التفاعل مع هذا
الحديث العظيم، حديث الكساء الذي جاء ليؤكد عصمة أهل البيت
وطهرهم وطهارتهم وامامتهم وقيادتهم للبشرية، وجاء حديث الكساء
بآية التطهير ليبين للعالم كله أن الطريق الواضح الذي يوصلك إلى الله

(١) الأعراف/١٥٦.

(٢) الأعراف/٥٦.

(٣) المجادلة/١١.



عز وجل إنما هو طريق أصحاب الكساء، لأن حديث الكساء قد تضمن أسراراً عميقة، واشتمل على آفاق جديدة في الفكر، والمعرفة، كما أنه أحتوى على قمم مضيئة في العلم والمعرفة لاتخفى على ذوي العقول والألباب والإيمان. وحتى تأتي الأفكار في سلسلة متصلة يأخذ بعضها بعنق البعض الآخر، رأينا أن نقدم موضوعات الحديث على شكل مجالس خاصة بهذا الحديث، لأنه في الواقع كان قد جرت أنواره في مجلس ضم أهل البيت عليهم السلام وجاءت الإشارة منهم إلى تفضيل تلاوته في محفل ومحافل من الشيعة وأهل المودة والحب في الأرض ليكون أكثر وقعاً في القلوب، وانصع كلمة وأكثر جمعاً في التفاعل والاستفادة معه ومنه، وهذا هو الذي نريده في هذه المقالات التي ستأتي في نظام وحكمة وذوق رفيع لأنها مأخوذة من فكر أصحاب الكساء، ومستتبطة من هديهم، لتكون نوراً لمن يريد الخلاص من الظلام، ومعبراً لمن يريد الابحار إلى ساحل الرحمة والبركة والخير والسلام.

إذن : فكما أن الانتفاع بالشمس تقيض أن تكون الأشجار حية والكائنات كذلك فيها حياة، وكما أن الاستفادة من المطر تستدعي أن تكون الأرض طيبة لأن الأشجار الميتة لاتتفعها الشمس والأرض الخبيثة لاتستفيد من المطر، كذلك القلوب التي تتلقى الكلمات من السماء، وتعانق نور السماء والخير والبركة، لابد لها أن تكون قلوباً سليمة صادقة ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^(١). وهذه هي البضاعة التي لن تبور ولاتضيع ولاتفسد أبداً، قلب سليم، فمن أتى الله بقلب سليم، نال النجاح والفلاح والظفر في الدنيا والآخرة، على أن القرآن يظل يؤكد مرة بعد أخرى على أن القلب

(١) الشعراء/٨٨-٨٩.



السليم لا يصنع إلا التشيع لأهل البيت، والمودة لهم، لأن الولاية لمحمد وأهل بيته، هي التي تصنع القلب السليم، ولذلك وردت الذكرى في هذا المضمار والمضمون: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^(١) فانظروا اجتبى إلى قوله تعالى: وإن من شيعته أي من شيعة نوح، وهذا في التفسير لظاهر القرآن، أما في التأويل لباطن القرآن، فإن من شيعته أي من شيعة علي أمير المؤمنين عليه السلام وهذا هو الحق لأن الله عز وجل كان قد عرض نبوة النبي المصطفى وولاية علي المرتضى وأهل البيت جميعاً على كل الأنبياء والرسل كما يشهد الذكر الحكيم بذلك في آيات واضحة، ولعل أكثرها وضوحاً الآية رقم واحد وثمانون (٨١) في سورة آل عمران فاقروها، تجدوا أن فيها هذا العهد والميثاق الذي أخذ به الله لنبيه ووصيه وأهل بيته على الأنبياء كلهم جميعاً.

إذن : فالتأويل للآية يدل على أن إبراهيم كان من شيعة علي بن أبي طالب عليه السلام وعلي هو نفس النبي بنص القرآن في آية الابتهاال والمباهلة، وهو نفس النبي كما في حديث المنزلة الذي يقول فيه النبي ﷺ : (يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لاني بعدي).

إذن : فالقلب السليم ينتفع من الرحمة والعلم والهداية والإيمان، كما ينتفع الأشجار الحية من أشعة الشمس، وكما تنتفع الأرض الطيبة من المطر عند نزوله عليها فتتهتز وتعطي من كل زوج بهيج، وكذلك القلوب حين تهتز بالعلم والإيمان والتقوى فإنها تعطي عطاء ليس له حدود، وهذا ما سنعرفه من خلال طرح هذه المقالات التي جرت كتابتها في أجواء حديث الكساء لتعميم الفائدة على الجميع.



المقالة الثانية:

الكلمات لها معاني، والمعاني لها مستويات تتراوح بين النقص والكمال، فإذا تمت الكلمة أعطت معناها للأذهان والقلوب والعقول، ومن هنا جاء تشبيه الكلمة التامة بالشجرة الطيبة، لأن الشجرة تغذي الأبدان، والكلمة تغذي العقول والأرواح، وهنا أود أن أشير إلى حقيقة ذات أهمية بالغة وهي أن الكلمات إنما تتم معانيها بشرطين أساسين هما: صدق الفكرة، وعدالة التطبيق، لأن المشكلات التي تواجه العالم اليوم وتتعداه لاتخرج عن هذين الشرطين، فهي: أي المشكلات في أي حقل كانت، في الاقتصاد، والسياسة، أو الاجتماع، أو المشكلات الثقافية والتربوية، أما أن تكون بسبب خلل في الفكر، أو بسبب خلل في التطبيق، أو في المجالين كليهما، على أننا في الإسلام وفي مدرسة أهل البيت بالذات لانواجه مثل هذه المشكلات لأن الفكر من الله عز وجل محفوظ في القرآن وفي سنة المصطفى ﷺ والتطبيق عند النبي وأهل بيته، فلا يوجد خلل في الفكر، ولا خلل في العمل، وقد أشارت الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام إلى هذه الحقيقة في خطابها العظيم الذي تقول فيه: أيها الناس اعلموا أني فاطمة وأبي محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - أقول حقاً عوداً وبدواً، ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾^(١) فإن تعزوه وتعرفوه

(١) التوبة/١٢٨.



وتجدوه إلى دون نساءكم وأخا ابن عمي دون رجالكم، فلنهم المعزى اليه، فبلغ الرسالة، صادعاً بالندارة مائلاً عن مدرجة المشركين، ضارباً ثبجهم أخذاً بأكظامهم، داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، يكسر الأصنام وينكت الهام، حتى انهزم الجمع وولوا الدبر، وحتى تغرى الليل صبحه، وأسفر الحق عن محصنه، فنطق زعيم الدين وخرست شقاشق الشياطين وطاح وشيظ النفاق، وانحلت عقد الكفر والشقاق، وفوهم بكلمة الإخلاص في نفر من البعض الخماص، وكنتم على شفا حفرة من النار مذقة الشارب ونهزة الطاع وقبسة العجلان، وموطأ الأقدام - إلى آخر خطابها - على أن موضع الشاهد هنا هو قولها: اعلموا أني فاطمة وأبي محمد، أقول حقاً عوداً وبدواً ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً) فهي إذاً: لاتقول غلطاً في الفكر، ولاتفعل شططاً في الفعل، والتطبيق لأنها معصومة ولأنها كلمة الله التامة ولذلك فقد تمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً، صدقاً في العلم والفكر والمعرفة عند فاطمة وعدلاً في التطبيق والعدالة الاجتماعية في الفعل والحركة والعمل.

على أننا نضرب لكم أيها الأحبة بعض الأمثلة لتزدادوا علماً وفهماً ومعرفة في هذا المجال في هذه الحقول، ولنأخذ على سبيل المثال ذلك أربع كلمات نجعلها أمثلة واضحة لمن يريد الخلاص من الظلم والظلام، والحيرة والجهل والضلال، لنأخذ كلمة العطش، والجوع، والدعاء، والبحر... فنقول وبالله التوفيق: إن لكلمة العطش معاني متعددة، تظهر في مستويات مختلفة تتبع حالات الناس ودرجاتهم في المعرفة لهذه الكلمة، فنحن -على سبيل المثال- نعطش ونظمأ ولكن احساسنا



بالعطش يختلف من شخص إلى آخر، فالعطش في خلال النهار هو غير العطش في يوم الصيام، لأن العطشان في النهار يستطيع أن يشرب الماء قبل غروب الشمس بخلاف الصائم الذي يتعامل مع معنى العطش إلى وقت الإفطار، فيكون أكثر معرفة بمعنى العطش من الذي عطش وشرب من الماء، ونفس الشيء يقال بالنسبة لمن ينهل الصحراء حيث يضره العطش فإنه سرعان مايقع على الماء فيشرب، ولكن هذا تتكون لديه معرفة بمعنى العطش أكثر من النوعين الذين سبقاه، في حين أن منظرًا رابعاً يطلع فيه القرآن علينا فترى من خلاله قائد جيش ينذر جيش العطشان الذي قد ضربه الظمأ في قلب الصحراء، وهو طالوت وجنوده، إذ ينذر جنوده بأن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني، ومن لم يطعمه فإنه مني، تأملوا معي هذه الواقعة بشكل جيد وركزوا عليها أكثر لأن فيها كنوزاً من المعرفة، فهذا قائد مستواه الفكري في عداد الأنبياء وفي مصاف الرسل، وهو يقود جيشاً كبيراً عرمرماً في الصحراء، لمواجهة جالوت القائد الشرير الذي يقود هو الآخر جيشاً كله شر، وفتك وتك ودمار، على أن يكون اللقاء بين الجيشين: جيش الحق بقيادة طالوت الملك، وجيش الباطل بقيادة جالوت الأسر، بعد هذا النهر الذي اعترض طريقهم في الصحراء، وهو نهر بارد تجري أمواجه في رقة وعدوية، وصفاء حتى تكاد العين ترى تموجات الحصى من بين ثايا الماء، وهنا تكمن الحكمة، فالنهر بارد وعذب، ومفري، خصوصاً لجنود قد صرعهم العطش، وهم في قلب الصحراء، حيث ترتفع قيمة كل قطرة من الماء، والقائد هنا يحذر الجنود من الاسترسال في التفاعل والتعامل مع هذا النهر، فليس لكم حق في هذا الماء سوى غرفة واحدة يغترفها الواحد منكم فيشرب منها،



ويضع بعضها على وجهه لكسر الحرارة والتخفيف من العطش، وها هو يكرر القول عليهم: إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني أي أن النهر هذا أصبح رمزاً للطاعة والمعصية، فالذي يشرب منه أكثر من غرفة واحدة، فإنه خارج على الحدود، ومن العصاة وأهل الضلال، في حين أن الذي يكتفي بالغرفة الواحدة فقط ليس أكثر فإنه من المطيعين لهذا القائد ومن المقربين من الله عز وجل، فلما وصل الجنود إلى النهر ووقعت ابصارهم على الماء البارد العذب، رموا بأنفسهم في النهر وراحوا يسبحون ويمرحون ويشربون، بينما اكتفى عدد منهم بقدر بعدد أصحاب بدر، وبعدد أصحاب الإمام الحجة صلوات الله وسلامه أي عدد ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً فقط (٣١٣) وهذا العدد فيه أسرار عميقة لا بد للباحث في استكشافها أن كان عنده شيء من السمو والصفاء، والإيمان والتقوى واليقين، فكل هذه تشمل الشرط الأساسي لمعرفة سر هذا العدد بالذات، وسيأتي الكلام حوله فيما بعد إن شاء الله تعالى.

إذاً: فقد القى الجنود بأنفسهم في الماء وعصوا أمر القائد الحكيم، ولذلك لما حانت ساعة المواجهة مع جنود العدو جالوت، قال هؤلاء الذين سباحوا بالماء ولم يكتفوا بالشرب فقط: (لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) لأنهم لم يعرفوا قيمة كلمة العطش، ولم يعرفوا معنى هذه الكلمة، على أن القضية هنا مجرد رمز يشير إلى قضية أكبر وأعظم وانظروا أيها الأحبة لهؤلاء الذين اطاعوا الله واطاعوا قائدهم طالوت واكتفى كل واحد منهم بغرفة ليس أكثر كيف كانت قوتهم ساحقة رهيبة بحيث دمروا جيش جالوت وأوقعوا أكبر هزيمة في جنوده وآلياته



ومدرعاته على حد تعبیر اليوم والسؤال هو: إذا كان الجنود الذين يكتفون بغرفة واحد قمن الماء يوقعون بها أكبر هزيمة في تاريخ الجيوش ما قبل الإسلام، فما بالكم بالبطل العظيم الذي يقف على النهر في كربلاء وقلبه كالحديد المحماة في شدة الظمأ وحرارة العطش فيفترف غرفة بيده ويقربها الى فمه ليعلم العالم كله، أنه وصل إلى الماء ولكنه مع ذلك لا يشرب حتى قطرة واحدة اكراماً للإمام الحسين عليه السلام، وأسوة بريحانة رسول الله العطشان هو وعائلته في الخيام يوم عاشوراء أقول: ما بالكم بهذا البطل وكيف تتصورونه؟ وكيف يمكن لأحد منا أن يزن عظمة هذا العملاق العظيم؟ إنه قمر العشيرة إنه أبو الفضل العباس بن علي بن أبي طالب عليه السلام الذي جاهد مع أخيه الإمام الحسين يوم كربلاء حتى قطعت يداه يمينه وشماله، فأبدله الله بهما بجناحين، أو جناحين يطير بهما مع الملائكة في الجنة كما صنع لجعفر بن أبي طالب عليه السلام، جعفر الطيار حيث كان هو الآخر قطعت يداه في مؤته وهي معركة دارت رحاها في بلاد الشام بين جنود الإسلام وجيوش الروم ١.

إنه أبو الفضل العباس عليه السلام ساقى عطاشا كربلاء انه قمر العشيرة الذي هو قتله أخاه الإمام الحسين عليه السلام فتعاه بأشجى نص، وندبه بأحر ندبة، وبكاه بأغزر دمة حتى قال في ذلك: أخي أبا الفضل لقد انكسر ظهري وقلت حيلتي وشممت بي عدوي وعلى أن موضع الشاهد هنا هو التفاوت والتفاضل بين معاني كلمة العطش التي كانت تتراوح درجاتها بين النقص والكمال حتى تمت وكملت عند الفئة القليلة التي غلبت الفئة الكثيرة، وعند أبي الفضل العباس عليه السلام حيث ضربت رقماً أعلى

وأكبر من ذلك الرقم الذي كان في جيش طالوت، وأكبر من ذلك كله نجد كلمة العطش ترتفع عند الإمام الحسين عليه السلام وقف على نهر الفرات واقحم الفرس لي شرب فتاده الحسين أنت عطشان وأنا عطشان فوالله لا أشرب حتى تشرب فرفع الفرس رأسه كأنه فهم الكلام، ولاتستكثر من فهم الفرس الكلام، فإن القرآن يحدثنا عن النملة التي كلمت سليمان بن داوود، وعن الهدد الذي كلمه أيضاً وأن كل شيء في الوجود له لغة وتسبيح ولكن لاتفقهون تسبيحهم.

إذاً: فهذه هي المعاني لكلمة العطش، ونفس الشيء يقال في كلمة الجوع، ومعنى هذه الكلمة، فالإنسان الجائع يعرف معناها، والصائم يعرفها أكثر من الأول، وغير الصائم الذي ليس له طعام يأكله إذا جن عليه الليل هو الآخر يعرف معنى هذه الكلمة أكثر فأكثر، ولكن عندما نقف على باب دار أسرة طاهرة وعائلة طيبة كانت قد صامت ثلاثة أيام لنذر نذرتة هذه العائلة، وكانت تعطي طعامها لليتيم والمسكين والأسير في ثلاثة أيام متتالية ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) ﴿(١)

وإذا بأهل هذا البيت هم أهل بيت النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة هم فاطمة وأبوها وبعلاها وبنوها، وإن كان الحدث وقع في بيت فاطمة وعلي وليس معها النبي ولكن بحكم النور الواحد الذي خلق منه



أهل البيت عليه السلام فالنبي معهم لا يفارقهم في ذلك، أقول: إن المعرفة التي ارتفعت وضربت الرقم القياسي في أهل البيت جعلتهم يحسون بتمام كلمة الجوع ويشعرون بكل أبعادها بحيث يصعب على الإنسان المؤمن أن يعرف المدى الذي بلغته هذه الكلمة عند أهل البيت الطاهر الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

وكما في كلمة العطش والجوع كذلك في كلمة البحر، فإنك لو كتبت هذه الكلمة فإنها لا تتجاوز الثلاثة أحرف (بحر) وهي لا تستطيع أن تجعلك تشعر بعظمة البحر مثل الحالة التي تراودك وأنت على ساحل البحر، أو أنت تسبح في البحر، أو تجري بك سفينة في أعماق البحر، فإن الإحساس بعظمة كلمة البحر، والبحر ذاته يجعلك في مستوى ارفع في المعرفة لهذه الكلمة، وما يقال في البحر، ويقال أيضاً في الدعاء، فنحن على سبيل المثال - نقرأ هذه الآية: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(١) أقول: نحن نقرأ هذه الآية أية الدعاء أو نعرف مستويات كثيرة ومختلفة للمعنى الذي تتضمنه هذه الكلمة ولكن ليس هناك أحد من سائر الناس ماعدا المعصومين عليه السلام استطاع ان يصل الى الإحساس الذي كان عند يونس بن متى بهذه الكلمة وهو في ظلمات ثلاث: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، لا أحد أبداً من سائر الخلق يمكنه أن يقرأ أية الدعاء هذه بنفس الإحساس الذي قرأها به نبي الله يونس بن متى على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

هذه كانت أمثلة ضربتها لكم - أيها الأحبة - لتعرفوا عدد المستويات

(١) الأنبياء/٨٧.



من المعاني للكلمات ومن هنا نسمع الإمام الصادق عليه السلام يقول: (أنتم أفقه الناس إذا عرفتم معاني كلامنا) أجل أنتم أفقه الناس إذا عرفتم معاني كلام آل محمد صلوات الله عليهم أجمعين- لأن الكلمة الواحدة تصبح بالمعان المتنوعة بحيث يستطيع الواحد أن يعرف الكلمة الواحدة لأكثر من سبعين معنى أو قل لأكثر من سبعين ألف معنى، ولكنها صائبة في الحق لاتعدوه ولا تتجاوزه، فسبحان الذي خلقهم وأبدعهم وجعلهم أنواراً بعرشه محققين.

إذن: فالدعاء تحت الكساء الذي انطلق من محمد وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين، ضرب الرقم القياسي في البلوغ، الى أقصى درجات الإيمان واليقين والإحساس بعمق كلمات الحق، وثقل هذا القول الذي نطق به الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله تحت الكساء وهو يرفع طرفي الكساء بيده اليمنى ويشير الى السماء ويقلب وجهه في السماء منادياً ومناجياً وداعياً الى الحق بقوله: اللهم إن هؤلاء أهل بيتي وخاصتي وحامتي لحمهم لحمي ودمهم دمي يؤمنني مايؤمنهم ويحزنني مايحزنهم، أنا حرب لمن حاربهم وسلم لمن سالمهم فاجعل صلواتك ورحمتك ورضوانك وغفرانك عليّ وعليهم واذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

وهنا يعتز الوجود لهذا الدعاء فيعلن الله عز وجل في الملأ الأعلى: أن ياملأكتي وسكان سماواتي وعزتي وجلالي إني ما خلقت سماءاً مبنية ولا أرضاً مدحية ولا قمراً منيراً ولا شمساً مضيئة ولا فلماً يدور، ولا فلماً تسري ولا بحراً يجري إلا لأجل هؤلاء الخمسة الذين هم تحت الكساء، وهنا ينطلق جبرائيل بالسؤال العظيم: ومن يارب تحت الكساء،

أي من هم الذين جعلتهم تحت الكساء واعطيتهم هذه العظمة وهذه المنزلة العظمى، وما خلقت الكون إلا من أجلهم ومن أجل محبتهم ومودتهم؟ فقال الله عز وجل: هم أهل بيت النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة هم فاطمة وأبوها وبعلاها وبنوها، ويبدأ بفاطمة قبل أصحاب الكساء رغم أنها منهم، ولكن ذلك ليوضح للناس مقام فاطمة ومنزلتها عند الله عز وجل.. إنها أم أبيها، وأم الأئمة فهي تحت الكساء بمثابة الأم للجميع، أما في الرسالة، والصدق والعدل، وأما في النسب والولادة، وحين يسأل الإمام علي عليه السلام رسول الله ﷺ عن الفضل الذي يحرزه الجلوس هنا تحت الكساء وعن المنزلة التي ينالها ذاكرهم والمحدث عنهم والناقل خبرهم هذا إلى العالم كله، فيقول النبي ﷺ يا علي والذي بعثني بالحق نبياً واصطفاني بالرسالة نجياً، ماذكر خبرنا هذا في محفل من محافل أهل الأرض وفيه جمع من شيعتنا ومحبينا إلا ونزلت عليهم الرحمة، وحفتهم الملائكة إلى أن يتفرقوا، فقال واستغفرت لهم إلى أن يتفرقوا، فقال علي عليه السلام إذا: والله فوزنا وسعدنا وكذلك شيعتنا فازوا وسعدوا في الدنيا والآخرة ورب الكعبة، فأعاد النبي القول ثانية فقال: يا علي، والذي بعثني بالحق نبياً، واصطفاني بالرسالة نجياً، ماذكر خبرنا هذا في محفل من محافل أهل الأرض وفيه جمع من شيعتنا ومحبينا، وفيهم مهموم إلا وفرج الله همه ولا مغموم إلا وكشف الله غمه، ولا طالب حاجة إلا وقضى الله حاجته، فقال علي عليه السلام: إذا والله فوزنا وسعدنا وكذلك شيعتنا فازوا وسعدوا في الدنيا والآخرة ورب الكعبة... على أن هناك ملاحظات سريعة يمكن تسجيلها وكتابتها لتعميم الفائدة ان شاء الله وهي على الشكل التالي:



ماذا يعني استغفار الملائكة في هذا المجال بالذات؟

لا شك أنه يعني استجابة الدعاء وقضاء الحوائج كلها، للدنيا والآخرة، لأن الاستغفار يعمل نفس العمل الذي يحدثه حضور النبي وأهل بيته في المكان الذي يجري فيه الدعاء، أو في أي مكان من الأرض، ونحن نعرف أن الاستغفار يحرك قوانين الغيب والشهادة في عالمي الملك والملكوت، فهذه الأسواق تتحرك بحركة الاقتصاد، وتلك الأموال تنطلق من يد إلى يد في الناس محدثة المنافع الاقتصادية والسياسية في الناس، يضاف إلى ذلك قضية الانجاب فالنساء حبالى مثقلات يلدن كل ولد صالح ونبت صالحة، وليس هذا فحسب، بل وأيضا نجد الاستغفار الذي يجري في محفل حديث الكساء يوفر كل حاجات الأولاد في صحة ومدارس وتعليم وغذاء وكساء وتوفير المسكن، لأن الله عز وجل أعظم وأكرم من أن يعطي ذرية دون أن يوفر لها مستلزمات الحياة ودون أن يهيئ لها متطلبات وحاجات العيش الكريم، كلا والله ما ذلك الظن بالله ولا المعروف من فضله، إذاً: فحين يعطي الله ذرية يوفر لها كل ماتحتاج، كما هو واقع وحقيقة في مناهج الإسلام وشرائع الدين الحنيف.

على أن هذا يفتح أمامنا آفاقاً من المعرفة أكثر وأكثر نفهم من خلالها كل الخصائص التي أعطاها الله لهذا الاستغفار الذي سنتحدث عنه في موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله أما الآن فنكتفي بهذا القدر من الكلام حول هذه النقطة بالذات وهي كافة لكل النقاط التي أردت أن أطرقها هنا ولكني عدلت عنها إلى باب آخر من هذا السياق العلمي الذي يأخذنا إلى رحاب العلم والأدب والمعرفة في الفقه واللغة والتفسير والآداب التي يطرحها علينا حديث الكساء العظيم.



المقالة الثالثة:

لكل شيء غاية تظهر في خلقه ومسيرته في هذا العالم والغاية تتلخص في أن العلل الأربع التي تكتنف الأشياء والحقائق إنما هي تجري على الإنسان كما تجري على النبات والأحياء لأن الكون هذا قائم على نظام دقيق وحكمة بالغة، فالباب هذه التي نراها في الحجرة التي نجلس فيها ماتمت إلا بوجود أربع علل هي السبب الكامل في وجود هذا الباب العلة المادية، وتعني الباب من الخشب، والعلة الصورية، وتعني أن للباب صورة وشكلاً يليق بالمهمة التي كانت من أجلها وهي في هذا المضمار، ثم العلة الفاعلية ومعناها أنه لا بد للباب من صانع صنعها لأن لكل مصنوع صانعاً ولكل بناء بانياً، ولكل سبب مسبب وهكذا، ثم العلة الغائية أي أن للباب غاية ت ظهر على وجودها والغاية هي الحفظ، حفظ الدار أو أي شيء آخر، وما يقال في الباب يقال في المنبر، والكرسي، والطائرة والسيارة والثوب الذي نلبسه، ثم الأشجار وما تحتويه عليه من الثمرات والضرع وما تشتمل عليه من اللبن، ومناحل النحل، وما تتضمنه من العسل كل ذلك وأكثر إنما وجد لغاية وهدف وحكمة، وانطلق على الكواكب والنجوم والشمس والقمر والبحار والأنهار والأشجار والجبال، وحتى الأرض التي نمشي في مناكبها ونأكل عليها من رزق، هي الأخرى قائمة على هذا الأساس من الحكمة والهدف والغاية إذن: فإن الأمر أصبح واضحاً خصوصاً إذا نقلنا هذا السؤال للإنسان نفسه وهو: إذا كان كل شيء خلق من أجل غاية فلأي غاية خلق الإنسان وما هي الحكمة من وراء خلق هذا الإنسان؟ الجواب في القرآن والسنة والعقل والاجماع، إذ يصح التعبير هنا

والمراد بالإجماع اجماع أهل الصحة والسلامة والعقل والفكر، حيث كلهم يؤكدون أن للإنسان غاية وهدف جاء لتحقيقها في الأرض ففي الكتاب: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون وفي السنة ورد حديث عن الإمام الحسين عليه السلام يقول فيه: (إن الله عز وجل لم يخلق الخلق إلا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، وإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة ماسواه) تأملوا هذا الحديث العجيب الذي يثيب العقول ويوقد حرارة الإيمان والخشوع في القلوب أنه حديث يبين للناس كافة أن العبادة إنما هي لتحرير الناس واعطاءهم الحرية حتى لا يظلوا عبيداً للآخرين ولا يلهثوا وراء شهوات الليل والنهار، وإنما الإنسان جعله حراً ويجب أن يحافظ على حرية ويتمسك بها ولا يتنازل عن اعتاقه من العبودية قيد شعرة واحدة، لأن ثقل الدهر كله وما في الدنيا من عطاء لا يساوي في الميزان، لحظة واحدة من الذل والهوان والانحطاط الذي يتعرض له الإنسان من أهل الظلم والاستبداد والفساد.

إن الإمام الحسين عليه السلام في هذا الحديث يكشف للعالم كله، أن قيمة العبادة ليست فقط للأخرة والجنان والنعيم، وإنما هي للعيش الكريم وحفظ الكرامة، والعزة لأن العزة لله وللرسول وللمؤمنين وهم أئمة الحق ويلحق بهم شيعتهم الذين يسمعون صوت الحسين عليه السلام وهو في المعركة ينادي:

هيهات منا الذلة.. ألا وأن الدعي بي الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلة والذلة، وهيهات منا الذلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وطهرت وأنوف حمية ونفوس أبية، من أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام إلا وأناي زاحف بهذه الأسيرة مع قلة العدد وخذلان الناصر، ثم يقول: فإن نهزم فهزامون قدماً.



وإن نُهزم فغير مهزمينَا وما إن طَبنا جبن ولكن مناينا
ودولة آخرينا... فقل لشامتين، بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما
لقينا..

إذن: فالحرية تحت هذا الكساء لأنها تضمنت العبودية لله عز وجل
بأعظم صورها، وهي الولاية المطلقة لمحمد وأهل بيته عليهم الصلاة
والسلام التي وردت في قوله: أنا حرب لمن حاربهم وسلم لمن سالمهم
الخ.. ولا حرية بغير هذه العبودية لأن الله عز وجل أوضح في حديث
الكساء هذا بشكل واضح لا لبس فيه أبداً أنه لا يقبل عمل عامل من
جن وانس إلا بولاية هؤلاء الخمسة الذين هم تحت الكساء ويتبعهم بقية
أئمة الحق الذين ورد الإشارة اليهم هم فاطمة وابوها وبعلمها، وبنوها،
ولو أراد فقط الخمسة أصحاب الكساء لقال: وابتأؤها إشارة إلى
الحسن والحسين عليهما السلام، ولكنه قال: وبنوها أي فاطمة وبنوها، ليدخل
الأئمة التسعة من ذرية الإمام الحسين عليه السلام كما نصت على ذلك
النصوص كلها في هذا المجال بالذات من الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى
الإمام الثاني عشر الحجة المهدي صلوات الله عليهم اجمعين الذي
يظهر فيملاً الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً.

إذن: فالإنسان خلق من طين وهذه قبضة الطين التي انتجت البدن
والغرائز ثم نفخة من روح الله اعطته العقل والروح والقلب والفطرة
وهذه الصورة التي جاءت في أحسن تقويم: لقد خلقنا الإنسان في
أحسن تقويم، هذا هو الحق ثم رددناه أسفل سافلين أي الذين انحرفوا
عن الصراط المستقيم وضلوا واضلوا هؤلاء يردون إلى أسفل سافلين



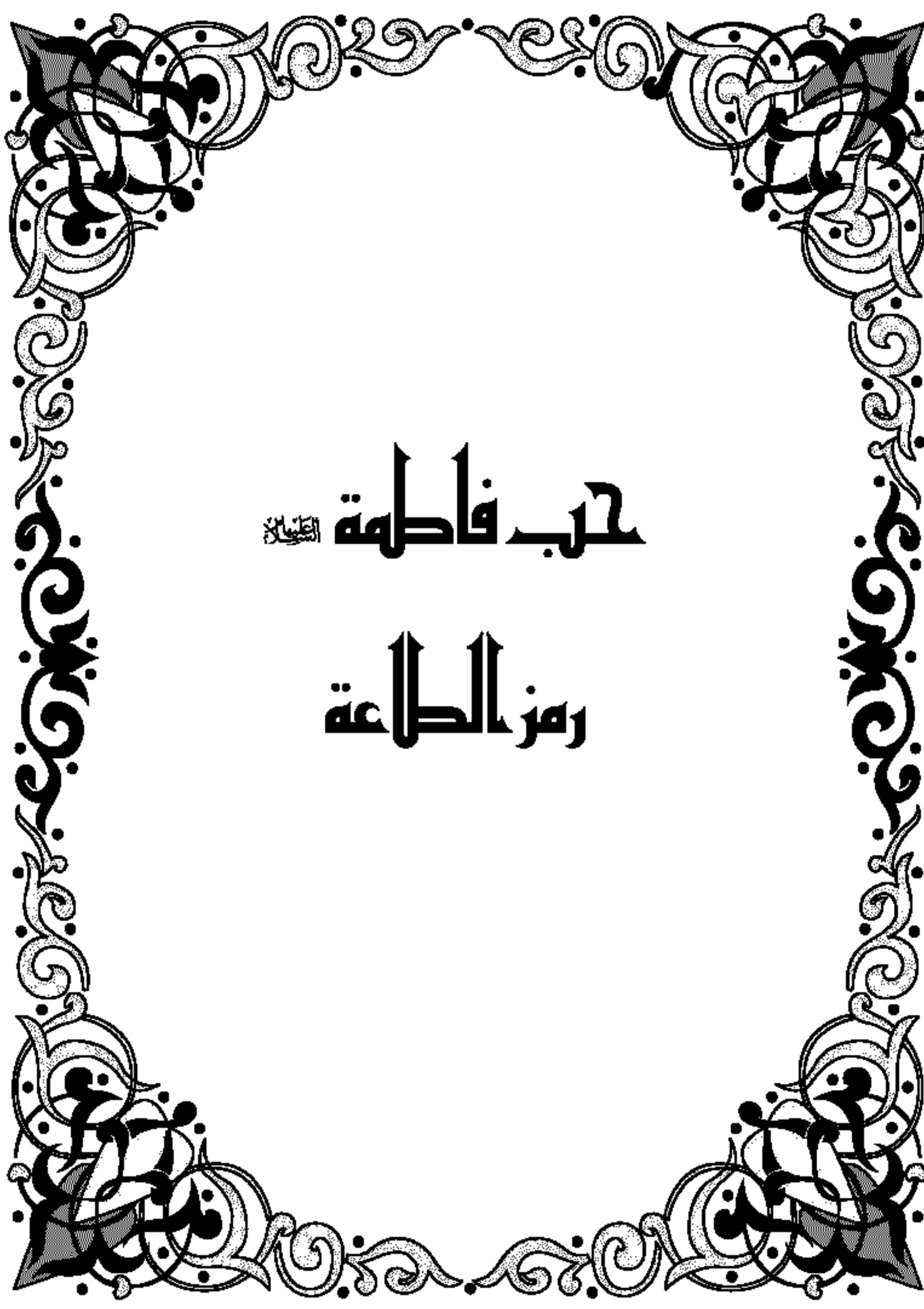
في الدنيا والآخرة بخلاف الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا على الطريقة المثلى حتى بلغوا درجة أعلى عليين ولعمري هذا هو الموقع العظيم الذي يصل اليه الإنسان المؤمن الكادح في مسيرته لرب العالمين: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾^(١) وفي آية ثانية: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾^(٢) ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾^(٣) في أي صورة ما شاء رَكَّبَكَ^(٤)، ومعنى ذلك أن البدن إنما هو أشبه بعربة أو مركبة يتحرك من خلالها الإنسان لقضاء الحوائج وللعمل والبناء الذي يحقق النجاح والنصر من خلاله، وهذا لا يتم إلا في معرفة أهل الكساء والدفاع عنهم لأن معرفة الحق وحدها لا تكفي بل لابد لها من بذل الجهد والعمل والتفاني في سبيل الله عز وجل بالمال والأهل والنفس وكل ما هو غال ونفيس وثمانين، لأن الحق أغلى منه، وأثمن وهذه حقيقة لابد من التركيز عليها، وعلى أننا هنا في رحاب حديث الكساء تظهر علينا حقائق أخرى يمكن إعلانها على الناس للاستفادة منها في مجال النفس وتربيتها، والأهل وتقويتهم على العمل الصالح والإيمان والتقوى، وكذلك في مجال المجتمع والعشيرة والقبيلة ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(٥).

(١) الانشقاق/٥.

(٢) الانقطار/٦-٨.

(٣) الحجرات/١٣.





حب فاطمة عليها السلام

رمز الطاعة

حب فاطمة عليها السلام رمز الطاعة

أهم شيء في الإنسان العقل، وأهم شيء في العقل الدين والعقيدة، وأهم شيء في الدين والعقيدة الولاية لمحمد وأهل بيته عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام وتطلع فاطمة الزهراء عليها السلام في هذا الحديث كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري.. ففاطمة هنا هي الكوكب الدري الذي يضيء لأهل السماء كما يضيء لأهل الأرض، فالإنسان لا يكتمل إلا بالعقل، وكمال العقل الدين، وكمال الدين ولاية فاطمة الزهراء وأمير المؤمنين والأئمة المعصومين من أبناء فاطمة عليها السلام ولذلك (لما خلق الله العقل وقال له أدبر فأدبر ثم قال له أقبل فأقبل، قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إليّ منك ولا أكملتك إلا فيمن أحب..).

على إننا نتناول هذا الحديث بشيء من التأويل الذي يليق به، والتفسير الذي لا يناهضه في موطن آخر من هذا الكتاب - ولكن هنا أردت فقط أن أشير إلى أن كمال العقل بحب أهل البيت ومودتهم، وفاطمة الزهراء يمثل حبها قمة الحب في الدين والعقيدة كما دلت الروايات على ذلك بشكل لا يقبل النقاش، ومن هنا فإن آية المودة تعد انصع تعبير، وأعمق رسالة لمن يؤن بالله واليوم الآخر، إن حب فاطمة إنما هو إكمال للعقل والدين وللمبادئ والقيم.. بخلاف بغضها - واتخاذ موقف سلبي منها، مثل أن يقوم بعض الناس بمحاربتها والهجوم على دارها، وبالاستخفاف بشأنها والتقليل من قيمة كلامها وقضيتها، فما

هؤلاء بالمؤمنين أبداً بل إنهم كرهوا ما أنزل الله في حق فاطمة فأحبط الله أعمالهم، بل جعلها هباءً منثوراً كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرّون على شيء منها .

يدل على ذلك أنها هي - فاطمة - التي فطمت من أحبها من النار، وفطمت أعدائها من الجنة، وفطمت شيعتها من الجهل، وفطمت أعدائها عن العلم، وفطم الخلق عن معرفتها، لذلك ورد في الحديث الصحيح انه: من عرف فاطمة حق معرفتها فقد أدرك ليلة القدر.

ونسأل الله أن يوفقنا لمعرفة هذه الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء صلوات الله عليها لأن العمل الصالح الذي يحظى بالقبول والمنزلة عند الله تعالى إنما هو العمل الذي عليه صبغة من معرفة الزهراء وحبها ومودّتها وولاءها .





حب أهل البيت عليهم السلام

رمز الطاعة لله عز وجل

أهل البيت عليه السلام ونجوم السماء

قال رسول الله ﷺ: النجوم أمان لأهل السماء، فإذا ذهبَت النجوم ذهب أهل السماء.

وفي حديث آخر معناه: أنه كما أن النجوم أمان لأهل السماء، كذلك أهل بيتي أمان لأهل الأرض.. وكما أن النجوم إذا ذهبَت ذهب أهل السماء.. كذلك إذا ذهب أهل البيت عليه السلام ذهب أهل الأرض، وإنما تستقر الأرض لأن فيها حجة الله، ولولا الحجة لساخت الأرض بأهلها.



حب أهل البيت رمز لطاعة الله

في قضية المودة والطاعة، نجد الأنبياء - دائماً - يجعلون رمزاً للطاعة والمودة، ثم يأمرّون أتباعهم أن يسيروا وفقاً لوحى هذا الرمز.. فمثلاً نجد نبي الله صالحاً قد جعل الناقة رمزاً لطاعة الله.. في حين أن نبياً آخر، قد جعل نهراً من الأنهار التي تجري في الأرض رمزاً لطاعة الله.. بينما نجد الرسول الأعظم محمداً ﷺ كان قد جعل حب أهل بيته، ومودتهم رمزاً لطاعة الله، حيث يقول الحق سبحانه: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (١).

وإذا كانت مخالفة الأمم الماضية والقرون الخالية، في عقر الناقة، وشرب الماء من النهر، قد أدّت بهم الى الهلاك والدمار، والبوار فما بالكم بالأمة التي تخالف النبي في قتل أهل بيته، وضرب ابنته فاطمة، وحرقت بيوت آل فاطمة، وحرقت بيوت آل الرسول، وغصب الخلافة منهم، ومصادرة حرياتهم ومنزلتهم؟

ما بالكم بمن يحارب الله ورسوله في شتى هجومات ضد آل محمد؟ إنه لاشك سيصير كافراً نجساً بعداوتة لأهل هذا البيت الطاهر الذي قد أذهب الله عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً.

جاء في سورة الشعراء آية رقم ١٥٥ قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا

(١) الشورى/٢٣.

شَرِبٌ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمٌ مَّعْلُومٌ (١٥٥) وَلَا تَمْسُوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴿١﴾

وفي سورة الشمس يقول الحق: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥)﴾ (٢).

وفي سورة هود: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ (٣).

وفي سورة الأعراف: ﴿وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤).

(١) الشعراء/ ١٥٥-١٥٨.

(٢) الشمس.

(٣) هود/ ٦٤-٦٥.

(٤) الأعراف/ ٧٣.



هذا كان في جعل الناقة رمزاً للإتباع والطاعة.. أما في موضوع النهر فيقول القرآن الكريم في هذا الصدد: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهَ كَمِ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٌ غَلَبَتْ فِئَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(١).

ثم يقول: فشربوا منه إلا قليلاً الخ.. إذن: فالقرآن الكريم يقدم لنا أنماطاً من البشر ويبين كيف حافظوا على حدود الله، وعظموا شعائر الإسلام، بطاعتهم المطلقة لله وللرسول ﷺ.

ثم يبين القرآن لنا أن الرمز - رمز الطاعة - يختلف بين أمة وأخرى.. ففي أمة نجد الرمز يتمثل في شربة ماء، بينما في أمة أخرى يكون الرمز مجسداً في ناقة كانت هي الأخرى آية من آيات الحق في حين نجد الرمز في الاسلام يتمثل في أرقى صورته وأنصح ألوانه، إنه يتمثل في أصحاب الكساء.. يتمثل في محمد وأهل بيته، وإذا أردنا الدقة في التعبير فإننا نقول: إنه يتمثل في علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام هؤلاء الذين أخرجهم النبي معه في المباهلة، وهم الذين جللهم الرسول بعباءته، أم بكسائه اليماني الذي مرت علينا قصته ثم دعا لهم وما كاد يختم دعاءه حتى نزل جبرائيل بآية التطهير: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(١).

(١) البقرة/٤٩.

(٢) الأحزاب/٣٣.



وهذا إن دُلَّ على شيء فإنما يدل على عظمة الرسالة الإسلامية، وعلى عظم أهل البيت، وعلى عظمة الفكر الإسلامي الحنيف العملاق. ولذلك كانت الأمة الإسلامية هي خير أمة أخرجت للناس، لأن هذا الإخراج العظيم كان يتطلب رسالة عظيمة والرسالة العظيمة تحتاج إلى قلب عظيم، وخلق عظيم، وأهل بيت عظماء.. وكل هذه الشروط قد توفرت بشكل دقيق ومدهش.

يقول القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

وإذا عرفنا أن أهل البيت هم بضعة من النبي، بل هم نفس النبي بنص القرآن والحديث والسيرة والعقل والاجماع.. إذ كل الدلائل تشير إلى هذا المعنى ففاطمة الزهراء عليها السلام ما هي إلا بضعة من النبي، وعلي كذلك والحسن والحسين ريحانتاه من الدنيا «حسين مني وأنا من حسين أحب الله من أحب حسيناً» وهذه كلها ثابتة وواضحة ومؤثرة.. أقول: إذا عرفنا كل ذلك أدركنا أن عظمة الرسول تجري على أهل بيته بنفس القوة التي تجري بها عليه.

اذكروا محاسن أخلاق النبي وأهل بيته

لأنّ الناس يميلون إلى الشيء الحسن والجميل، في القول والفعل، فإنه ينبغي على رجال الحق والعقيدة، أن يذكروا للناس محاسن أخلاق النبي ﷺ وأهل بيته، وأن يذكروهم بالمواقف الحضارية الخالدة، التي وقفها أهل البيت من أجل الحق والحرية، والعدالة الاجتماعية.

وفي حديث للإمام علي بن موسى الرضا ﷺ مضمونه، ومؤداه هو: أن اذكروا للناس من سيرتنا، ما يشدّهم إلى الإيمان والعقيدة. وإن كان كل شيء في سيرة أهل البيت، له قدرة على اجتذاب الناس، واستقطابهم إلى الدين والأخلاق.. قدرة مدهشة - أقول مضمون كلام الإمام الرضا ﷺ هو أن نذكر الناس بأخلاقهم، لأنه ﷺ يقول: «فإن الناس إذا عرفوا محاسن حديثنا، اتبعونا».

ومن هذا المنطلق، فإنه يتوجب على المبلغين، وحملة الفكر الإسلامي إلى العالم، أن ينشروا حقائق الإسلام الحضارية.. ومناهجه التربوية، حتى يستعذب الناس طعم الإيمان، ونور العقيدة.

أجل.. فإن على الخطباء وأصحاب الرأي، وحملة الكلمة، أن يذكروا للشعوب، وللأجيال، مبادئ الرحمة والخير.. والعدل والحرية. وأن يعرفوهم بهذه الحقائق الخالدة في الإسلام - فقد رأينا الشعوب قد دخلت أفواجا في دين الله بفعل الحركة التبليغية التبشيرية الكبرى التي أطلقها أهل البيت وأبناء فاطمة في العالم.. وأرجع الآن فأقول: لو علم الناس هذه الحقائق لانطلقوا يتسابقون على الدخول في الإسلام،



والانضمام إلى موكب النور الذي قوده أهل البت، والذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور.. ولكننا نحن الحجاب الذي يحول بين الناس وبين الإسلام.

وهذا - لعمري - مما يشدّ في النفس، ويؤرق الإنسان الحر العارف تعالىم دينه.

ولكن ماذا نصنع ونحن في عصر الإنحطاط.. وعصر الفرقة والتمزق؟ إنني أرى أن أجمل طريق للمّ الشمل، واسترجاع القوة والهيبة، هو توحيد كلمتنا، والعودة إلى منابع الفكر والأصالة عند أهل البيت عليه السلام ومن دون ذلك يستحيل أن تقوم لنا قائمة، أو يرفع لنا بيرق أو لواء.

وتوحيد الكلمة يكمن في التجرد والصفاء الروحي، يكمن في محاسبة النفس، وفي تصفية حساب الشيطان وإلقائه في البحر.. وهو شيء ميسر، وسهل، وفي إمكان كل فرد مخلص حر أبي، أن يقوم بهذا العمل لينصر الإسلام والمسلمين، وليرفع راية الحق عالية في الأرض، لأن شعوب الأرض في انتظارك أيها المسلم، منذ زمن طويل، فماذا قدمت لهاتيك الشعوب؟؟

المعصومون مثلنا وليسوا مثلنا

سيرة أهل البيت - وهم الأربعة عشر معصوماً عليهم السلام سيرتهم سيرة طبيعية، وحياتهم حياة بشرية، بمعنى أنها ليست قائمة على أساس المعجزة، وإنما هي حياة بشرية مثلها مثل حياتنا. فيها الألم والمرض والجوع والعطش والحرمان وفيها النصب والتعب، وفيها الكدح والمشقة. والذي يتصور أن حياتهم حياة إعجازية بمعنى أنها تجري وفق مقتضى المعجزات والمعاجز، أقول: الذي يتصور حياتهم بهذا المنظار، لا يعرف حقيقةهم ولا يدري كيف هي سيرتهم الذاتية في الحياة.

إن أهل البيت، قبل كل شيء هم أسوة حسنة، وقدوة تضيء لنا الطريق، وحينما تكون حياتهم أسوة لنا، ونحن نتأسى بهم أن نمشي حيث مشوا ونقف حيث وقفوا، فإن مقتضى ذلك أن تكون سيرتهم تجري وفقاً لنواميس الطبيعة المألوفة وليس وفقاً لمعادلات المعجزات. وذلك أنهم لو كانت حياتهم قائمة على أساس المعجزة لكانوا بعيدين عن أجواء الأسوة والقدوة، لأنهم قدوة وأسوة للناس، فإذا كانت حياتهم تجري وفق الإعجاز، وليس في مقدورنا أن نحول حياتنا إلى جبال المعجزة.

إن الحياة قائمة على قوانين ونواميس لا تتغير، ولا تتبدل. فكل سنة في هذا الكون إنما هي تجري بأمر الله سبحانه وتعالى.. وقد خلق الله الإنسان ولم يجعله خارجاً على القوانين والسنن الكونية، ومن هنا فإن كل القوانين الكونية تجري على الإنسان، وتطبق عليه، وهو لا يستطيع



الإنفلات منها بأي حال من الأحوال، كما أنه ليس في استطاعة أحد منا أن يخرج على سنن الحياة الكونية.

وعلى هذا الأساس، فإن المعجزة لا تأتي إلا عند الضرورة القصوى، ولذلك فحياة المعصومين غير قائمة على المعاجز، وإذا كانت المعاجز في حياتهم، فإنما تكون بشكل لا يغطي كل حياتهم، ولا يغمر كل تصرفاتهم، وإنما هم في الغالب بشر كما نحن بشر. مثلهم في ذلك مثل جدهم الرسول الأعظم ﷺ حيث يخاطبه القرآن الكريم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ (١).

ولكن يجب أن نلتفت الى مسألة في العقيدة في غاية الأهمية وهي: أنهم بشر وصحيح أنهم يألمون ويمرضون، ويجوعون ويعطشون، ولكن الصحيح أنهم بشر مثلنا وليسوا مثلنا، إنهم بشر في هيئتهم وسلوكهم ولكنهم ليسوا ببقية البشر العاديين. وإنهم هم اختارهم الله فطهرهم من الرجس تطهيراً، وقد خلقهم الله قبل أن يخلق العالم بآلاف السنين حيث كانوا أنواراً بعرش الله محققين، إنهم نور الله في ظلمات الأرض. وإنما قلت: إنهم بشر على حد تعبير القرآن وذلك أنهم أسوة حسنة ونحن نتبعهم ونقتفي أثرهم.

يقول الإمام علي عليه السلام: «ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه» لاحظوا الدقة في الوصف فالدقة في التعبير، وهو قوله: «يقتدي به، ويستضيء بنور علمه». إذا فهم بشر، ولكنهم

(١) الكهف/١١٠.

منابع العلم، ومشاعل النور، بل هم النور، نور الله جل جلاله في الأرض..

والذي ينظر بعين البصيرة يجد أن حياة الأنبياء والأئمة من أهل البيت عليهم السلام كلها تجري وفق الأساليب والمسببات، وليس لها علاقة بالإعجاز، لا من قريب ولا من بعيد، إلا ما كان عند الضرورة القصوى التي تقف عندها الأسباب وتتعطل المسببات، فهنا فقط يلجأ المعصوم إلى المعجزة لإحقاق الحق، وإبطال الباطل.

الرسول ﷺ وعلي عليه السلام

من شجرة واحدة

عن أمير المؤمنين - عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام - قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا علي خلق الناس من شجر شتى، و خلقت أنا وأنت من شجرة واحدة، أنا أصلها، وأنت فرعها، والحسن والحسين أغصانها، وشيعتنا أوراقها فمن تعلق بغصن من أغصانها أدخله الله الجنة»^(١).

وفي نظرة تأمل في هذا الحديث نكتشف بعض النقاط الفكرية الهامة أو نتطلع إلى قمم الضوء في فكر آل محمد..

أولاً: إن القول بأن علياً والنبي من شجرة واحدة، فالمسألة واضحة لا تحتاج إلى دليل. إن علياً هو نفس النبي بنص القرآن، وهو أخوه في المؤاخاة التي جرت في المدينة بعد هجرة النبي إليها، وعلي هو الذي نام على فراش النبي وفداه بنفسه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾^(٢).

وهو زوج الزهراء وأبو السبطين الحسن والحسين، وهذا يعني أن ذرية النبي من صلب علي وفاطمة عليهما السلام فلولاً أنهما من شجرة واحدة لما

(١) بحار الأنوار ٤٠/٣٧.

(٢) البقرة/٢٠٧.

كانت ذرية محمد من صلب الإمام علي عليه السلام والزهراء عليها السلام. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ (١).

وقد وردت أحاديث، وروايات كثيرة في هذا الشأن، وفي هذا المضمار، ومنها قول الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام وهو يصف نفسه وقربه من النبي فيقول: « وأنا من أحمد كالضوء من الضوء، أو الذراع من العضد، والله لو تظاهرت العرب على قتالي ما وليت عنها». وقول النبي ﷺ: «يا علي خلق الناس من شجر شتى، وأنا وأنت من شجرة واحدة». إلى آخر ما جاء في هذا الباب، ويستطيع القارئ الفطن بقليل من التأمل والتفكير أن يكتشف كنوز العلم والمعرفة المكنونة في طيات هذا الحديث، فإن لكلامهم نوراً وإن عليه لحلاوة.

(١) إبراهيم/٢٤-٢٥.



فاطمة عليها السلام

مشكاة لا تنطفئ

فاطمة عليها السلام مشكاة لا تنطفئ

يقول الله تعالى في محكم كتابه الكريم ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥)﴾ فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ

إلى قوله تعالى: وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ (٤١) ﴿١﴾

أقدم الموضوع بملاحظتين أساسيتين...

الأولى: لكل شيء جوهر يظهر الحقيقة، ويضيء الطريق أمام السائرين الأحرار، فالصلاة مثلاً جوهرها أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر وأنها تنزه الإنسان من الكبر.

والصيام جوهره في التقوى وتقوية الإرادة في الحق، والحج جعله

(١) آيات ٣٥ - ٤٠ سورة النور، ج ١٨ في المصحف الشريف.



الله تشييداً للدين كما تقول الزهراء عليها السلام، ونفس الشيء يقال في الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ أن الجهاد يعطي العز للإسلام والمسلمين، ويجعل الذين يجاهدون أحراراً في دنياهم وآخرهم في محياهم ومماتهم، فتراهم يعيشون في عزة وكرامة، ويموتون كباراً في نفوسهم وأهدافهم وغاياتهم لأنهم أصحاب حق، وأصحاب قضية مقدسة جاءوا إلى الدنيا لحملها وحفظها من الضياع والتفريط.

وما يقال في هذا يقال في كل شعائر الدين والفرائض، فما من شعيرة ولا فريضة إلا ولها جوهر يظهر حقيقتها ويدل على نورها وغايتها، على أننا بشيء قليل من التأمل، يمكن أن نصل إلى مساحات واسعة من الفكر والفهم، بل إن مجرد التأمل في هذا الباب يفتح لنا آفاقاً واسعة في المعرفة والتفقه في الدين.

فالإيمان مثلاً جعله الله تطهيراً لنا من الشرك، وذلك إنني أظهر بدني بالماء، فبأي شيء أظهر قلبي؟ علماً أن طهارة القلب أولى من طهارة البدن، وهنا يأتي المنهج التربوي في الإسلام يبين لنا أن طهارة القلب تعتمد على الإيمان، والمعرفة لأن الإيمان بلا معرفة لا يطمئن القلب إليه، فسرعان ما ينقلب صاحبه على عقبيه، وذلك أنه دخل في الإيمان بلا معرفة وخرج منه بنفس الطريقة العمياء.

إذن: فالإيمان والمعرفة والعلم والتقوى، هذه هي التي تشكل أرضية صلبة للإيمان، ومن هنا نسمع الإمام علي بن الحسين عليه السلام عندما يصف عمه العباس بن علي عليهما السلام، فإنه يصفه بأنه صلب الإيمان نافذ البصيرة فقد جاهد مع أخيه الحسين عليه السلام حتى قطعوا يديه فأبدلها الله بجناحين.



أو قل: فأبدله الله لهما جناحين يطير بهما مع الملائكة في الجنة كما صنع لجعفر بن أبي طالب الذي جعل الله له جناحين بدل يديه القطيعتين، في الجنة يطير بهما مع الملائكة ولهذا لقب جعفر بالطيار..

على أننا لمزيد من المعرفة في هذا المضمار، نذكر النقاط التالية:

١ - يقول الحق سبحانه واصفاً بيت علي وفاطمة عليهما السلام في ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾^(١) ولكي تعرف المعنى الدقيق لكلمة الارتفاع هذه، دعني أقول لك:

أن الارتفاع قسمان:

● ارتفاع بالبدن.

● ارتفاع بالروح.

فالارتفاع بالبدن يكشف لك عن رؤية أشياء أكثر ومساحات أبعد، في حين أن الارتفاع بالروح يكشف لنا عن حقائق أكثر، فأنا مثلاً عندما أرتقي ظهر جبل فإني أرى المروج والساحات المحيطة بالجبل برؤية أعمق وأكثر وأصوب.

بينما حين ارتفع بروحي فإني أرى حقائق أكثر بل إنني أقترّب من الأسرار التي تحيط بتلك الحقائق أكثر فأكثر وأدنو منها دنو العلماء الفقهاء المخلصين حتى أضيع يدي على الحقيقة، ومنها ورد الخبر:

(إن الصلاة معراج المؤمن)، وماذا يعني هذا الحديث؟

إنه يعني أن الصلاة ترفعك فوق الحجب فلا شيء يستطيع أن يستر

(١) النور/٣٦.

عليك الحقيقة، ولا شيء يمكن أن يحجبك عن الواقع وعن النور الذي تفتش أنت عنه طول حياتك.

لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولأنها تعصم الإنسان المؤمن عن الاسترسال وراء الشهوات، وذلك أن الذي يلهث وراء الشهوات يضيع الصلاة..

قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ (١).

فالآية هذه كما هو واضح تتحدث عن أجيال من البشر أضاعوا الصلاة لأنهم ساروا وراء الشهوات، والصلاة لا تجتمع مع الشهوات على مائدة واحدة، وهذا لهُو من أعظم الصبر والدروس.

إذن: ففي بيت علي وفاطمة ارتفاع بالأرواح وارتفاع بالنفوس والعقول، وذلك أن الانتماء إلى هذا البيت الطاهر المطهر يقتضي منا أن نكون على علم وإيمان ودراية، وكل ذلك لا يحصل إلا في مدرسة أهل البيت عليهم الصلاة والسلام.

قال تعالى:

﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (٢)، إذ أن الارتفاع هنا سببه شيئان أساسيان: العلم والإيمان، ومن دونهما لا يتحقق نصر ولا سمو، ولا ارتفاع كما هو واضح ومعلوم، يقول الإمام السجاد عليه السلام: لولده الباقر عليهما السلام:

(١) مريم/٥٩.

(٢) المجادلة/١١.



يا بني اعرف منازل شيعتنا على قدر معرفتهم لروايتنا، فإن معرفة الرواية هي الدراية وبالدراية للروايات يعلو المؤمن إلى أقصى درجات الإيمان، وهذا هو الحق إذ أننا اليوم أمام المعرفة القائمة على الدراية لا الرواية فرواة الحديث كثير ولكن الدراة بها قليل.

ولتوضيح هذا المفهوم أبين لكم هذه الملاحظة وهي أن التفقه في الدين إنما هو في كل الإسلام والقرآن وليس في أبواب الفقه المألوفة والتي تبدأ بكتاب الطهارة، وتنتهي بالديات والحدود والمعاملة.

أبدأ ليس هذا هو الفقه كله وإن كان هذا يشكل جزءاً كبيراً من مساحة الفقه ولكن الفقه أولاً وقبل كل شرع في الدين، ومن هنا كان فقهاؤنا الكبار يبتدئون بالتفقه في الدين، كما ورد الأمر بذلك في القرآن الكريم..

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(١).

ونحن هنا أمام فقهاء علماء حلماء خطباء يستطيع الواحد منهم أن يعبر ويقول عما في ضميره وقلبه بفصاحة وبلاغة، ليس لها نظير في العهد القريب من تاريخ الناس لأنه قال:

﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

والإنذار لا يتم إلا بتمام آلة البلاغة والفصاحة، وإلا فالفقيه الصامت الذي لا يتكلم ولا يسمع أحد صوته ليس له تأثير وفاعلية في

(١) التوبة/١٢٢.

المجتمع وفي الناس، إنما هو العالم الناطق الذي يتبعه مستمع واع، كما ورد ذلك في الأخبار: (لا خير في العيش إلا لرجلين: عالم ناطق ومستمع واع)،

وفي حديث آخر: (الناس ثلاثة: فعالم رباني ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعاع، أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح لم يهتدوا إلى نور علم ولا يلجئوا إلى ركن وثيق)..^(١)

وهذا هو الواقع الذي يفصل عالم الملكوت عن عالم الأقزام، وعالم الكبار عن عالم الصغار، الذين لا همّ لهم إلا الجري وراء الملذات والشهوات، ولعمر الله فلا تعمر الفكرة ولا تحيا الحكمة في قلوب هذا النمط من الناس، وإنما تحيا الحكمة وتعمر الفكرة في قلوب أهل الإيمان والورع والتقوى.

يقول تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾^(١).

وفي آية ثانية يقول الحق:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾^(٢).

ويقول تعالى:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(٣).

إذن: فالمطلوب هو التفقه في الدين قبل الفقه في الطهارة والحج

(١) البقرة/٢٨٢.

(٢) البقرة/٢٠٣.

(٣) فاطر/٢٨.

والصلاة، بل أكثر من ذلك، حيث نجد الفقيه العظيم هو الذي يبحث ويتفقه في آية التطهير قبل طهارة الماء، وإن كان الماء الطاهر يساعد على فهم آية التطهير والتفقه بها، ومن هنا كان علماؤنا الأبرار يبدؤون رحلتهم الفقهية مع الثوابت في العقيدة، قبل الثوابت في الفروع.

فهذا الشيخ الكليني نراه فقيهاً في (أصول الكافي) قبل أن يكون فقيهاً في (فروع الكافي)، وهذا الشيخ المفيد نراه فقيهاً في (الإمامة) قبل أن يكون فقيهاً في (المقنعة كتاب الفقه)، وما يقال في هذا يقال في الشيخ الصدوق إذ كان فقيهاً في (إكمال الدين وإتمام النعمة)، قبل أن يكون فقيهاً في (من لا يحضره الفقيه)، ونفس الشيء يقال في العلامة الحلي الذي كان فقيهاً في (الألفين) قبل أن يكون فقيهاً في (التذكرة وتبصرة المتعلمين).

وقد روى عنه ابنه أنه رآه في المنام بعد وفاته فسأله: أي الأعمال كانت عند الله أسرع مثوبة لك؟

فقال: "لولا الألفين (وهذا من باب الحكاية لأنه كتاب الألفين الذي احتوى على ألفي دليل عقلي وألف دليل نقلي على إمامة علي أمير المؤمنين عليه السلام، لذلك أقول: الألفين إشارة إلى هذا الكتاب) وزيارة الحسين عليه السلام لقصمت الفتاوي ظهر أبيك نصفين...".

ويا لها من عبارة عظيمة وكبيرة ومؤثرة في القلوب الواعية التي ملئت إيماناً وتقوى وهما شرطان أساسيان لطلب العلم والفقه واللغة والتفسير والتأويل والآداب، فبغير التقوى لا ينشأ علم ولا يضيء فكر ولا ينطلق فقه في القلوب، وعلى الألسن أبداً، لأن الشرط الأول في طلب العلم والتفقه في الدين، هو التقوى، والبعد عن أكل الحرام ومعاطاة الذنوب وركوب الخطايا، يقول الحق سبحانه:



﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾. (١)

ويقول سبحانه: ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾. (٢)

ويقول عز وجل في هذا المضمار:

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾. (٣)

على أننا حين نلقي نظرة على الآيات الكريمة التي جاءت تتحدث بهذا الخصوص، نجد مثلاً لذلك في أصحاب الكهف، هؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم هدى.

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾. (٤)

أقول: انظروا إلى هؤلاء الشبان الذين ما كادوا يستيقظون من نومتهم التي استغرقت أكثر من ثلثمائة من السنين، حتى أرسلوا واحداً منهم إلى السوق في المدينة، لينظر أيها أزكى طعاماً، أو أنهم كانوا يفتشون عن الطعام الحلال لأن أكل الحلال الطيب يساعدهم أكثر على تحمل المسؤولية ويجعلهم في مستوى المسؤولية وهذه حقيقة ثابتة يظهرها الله عز وجل إلى أنبياءه وأوليائه، ففي الأنبياء يقول:

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾. (٥)

(١) البقرة/١٠.

(٢) التوبة/٨٧.

(٣) الأعراف/١٧٩.

(٤) محمد/١٧.

(٥) المؤمنون/٥١.

وفي الأولياء يقول عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾. (١)

وكل ذلك لأن أكل الحلال يساعد على التوفيق والنجاح والظفر، بخلاف أكل الحرام الذي يسلب التوفيق من الناس ويلقيهم في أحضان الشيطان ومهاوي الفشل والإخفاق، وهذا هو الحق الذي ليس عليه غبار ولا ضباب بل هو واضح المعالم يلمح في أشعة الشمس وفي أعماق القلوب.

وبالمثل: فإننا عندما نصغي لصوت الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء وهو يخاطب الجيوش التي جاءت لمحاربته وقتاله والوقوف بوجهه قال لهم:

(حينما استتصتهم فأبوا أن ينصتوا): إنما أدعوكم إلى سبيل الرشاد، فلقد ملئت بطونكم من الحرام وطبع على قلوبكم..).

وهذا هو الحق إذ لولا الحرام الذي كرعوا به وغطسوا في أحواله، لفهموا كلام الإمام الحسين عليه السلام وعرفوا خطابه، وإذا عرفوا خطابه، رجعوا إلى الطريق وخافوا عذاب الحريق ولكن النفوس مريضة، والقلوب سقيمة، والضمائر عليلة، والبصائر مدخولة، فمن أين تأتيهم الهداية وقد سدوا كل أبواب الهداية، مثلهم في ذلك مثل قوم نوح عندما أغلقوا أبصارهم وأسماعهم وأصروا في قلوبهم على الجريمة وتعاطي الرذيلة..

(١) البقرة/١٧٢.



قال تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ
وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ (١).

هكذا كان يقول نوح العظيم ﷺ.

إذن: فعلماءنا الكبار كانوا فقهاء ريانين في أصول الدين قبل
فروعه، وفي آية التطهير قبل طهارة الماء، بل كانوا فقهاء في تطهير
القلب قبل تطهير الأبدان، وكانوا فقهاء في إرساء دعائم الإمامة قبل
غيرها من المسائل الفقهية التي تعني بحاجات الجسد.

وخير شاهد على ذلك مع ما قدمنا في الشواهد والأمثلة، هو الشيخ
المجلسي الذي صرف عمره وأنفق أيامه في فقه الإمامة، والولاية
والخلافة، وطاعة أهل البيت عليهم السلام، فكانت أبواب الإمامة هي
الأكثر لمعاناً وتألقاً في بحار الأنوار، وما يقال في المجلسي يقال في
السيد ابن طاووس الذي امتنع بالكامل من إصدار الفتوى واقتصر على
أبحاث الإمامة وموضوعات الولاية كما هو واضح عند من يقرأ كتب
هذا الرجل العظيم العالم الرياني.

على أن إثبات الشيء لا ينفي ما عداه، فهؤلاء علماءنا الأبرار
الماضين منهم والمعاصرين لم ييخلوا في هذا المجال من أن ييذلوا
قصارى جهودهم في إظهار كلمة الحق واذكر من بينهم الحجة العلم
السيد (عبدالحسين شرف الدين) الذي تراه متألقاً في مراجعاته "كتاب
المراجعات" (وهو حوار مفتوح جرى بينه وبين الشيخ سليم البشري شيخ
الجامع الأزهر يومذاك فكان قمة في منهجية الحوار والأسلوبية
الراقية في عرض الحق وتقديمه للناس)..

(١) نوح/٧.



وكما هو متألق في المراجعات، متألق في النص والاجتهاد، وفي
الفصول المهمة وفي كتابه أبو هريرة، وكتابه المسائل الفقهية، ومسائل
جار الله مع كتب أخرى كتبها هذا الحبر الرضي في الدفاع عن أهل
البيت عليهم السلام وعن ولاية علي بن أبي طالب أمير المؤمنين عليه السلام
بالذات، كما دافع بقلبه ولسانه ويده عن حرمة مقام الزهراء الصديقة
الطاهرة فاطمة بنت محمد صلى الله عليها وعلى آبيها وبعلمها وبنيتها
بعدد ما أحاط به علم الله.

على أن الكلام في هذا الشأن يبدأ ولا ينتهي لأنه متصل بكلمات الله
التي لو كان البحر مداداً لها لنفد البحر قبل أن تنفذ هذه الكلمات،
التي هي مجسدة ومصورة وممثلة في محمد وأهل بيته صلوات الله
عليهم أجمعين..

كما وردت الإشارة إلى ذلك في القرآن من أن بعض الأنبياء إنما هم
كلمات الله مثل عيسى بن مريم كان كلمة من الله ألقاها إلى مريم،
وكانت مريم عليها السلام تتعامل مع هذه الكلمات في عدالة وتصديق إذ
أنها.. ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾^(١).

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الكلمات ما هي إلا محمد
وعلي وفاطمة والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي
وجعفر بن محمد وموسى بن جعفر وعلي بن موسى ومحمد بن علي
وعلي بن محمد والحسن بن علي والحجة القائم المهدي المنتظر بقية الله
في العالمين صلوات الله عليهم أجمعين، وسيأتي الكلام عن هذه الكلمات
وهي التي تلقى آدم بعضاً منها، في حين أن إبراهيم تلقاها كلها..

(١) التحريم/١٢.



قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾^(١).

إذ كانت هذه الكلمات هي سبب قبول توبة آدم وذلك حين دعا إليه بها فقال:

(.. اللهم إني أسألك بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين
إلا تبت علي وعفوت عني..) فتاب الله عليه وأنزله إلى الأرض بعد أن
اصطفاه.

قال تعالى: ﴿.. إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى
الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢).

وفي آية إبراهيم يقول الحق سبحانه:

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ
ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(٣).

النقطة الثانية في موضوع الآية: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا
اسْمُهُ﴾^(٤).

هي أنه لما أراد الله عز وجل أن يعرف حبيبه المصطفى محمد ﷺ
بأهل بيته عرج به إلى السماء بل إلى أكثر وأبعد من سدرة المنتهى ومن
شجرة طوبى، وسيأتي الكلام على أن شجرة طوبى سدرة المنتهى

(١) البقرة/٣٧.

(٢) آل عمران/٣٣-٣٤.

(٣) البقرة/١٢٤.

(٤) النور/٣٦.



والعوالم المحيطة بها إنما كل ذلك في مرمى نظر النبي وبصره ﷺ،
فقد ورد في زيارة الإمام المهدي صلوات الله عليه العبارة التالية:

(السلام عليك يا ناصر شجرة طوبى وسدرة المنتهى)..

وأبعد من كل ذلك مجالاً وسعة وعرضاً إنما هو القلب، وأبعد من
مجال القلب مجال الروح.

وهذا المقام إنما ورثه عن جده المصطفى وآبائه الطاهرين، ونحن
نعرف أن النظر محدود بالنسبة لسائر الناس، والبعد من مجال النظر،
مجال الخيال، وأبعد من مجال الخيال، مجال العقل، والسؤال هو:

إذا كانت شجرة طوبى وهي بالملا الأعلى تقع في حدود نظر النبي
ﷺ أي أنه بمجرد أن يرفع بصره إلى السماء تقع عينه على شجرة
طوبى فيراها كما يرى أية شجرة أمامه في الأرض، ويرى سدرة المنتهى
وهي التي تقع في حدود الجنة كما في صريح القرآن الكريم..

يقول الحق ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى
السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَفَى (١)﴾.

أقول: إذا كانت شجرة طوبى وسدرة المنتهى في مرمى نظر النبي
ﷺ وفي حدود بصره، فإلى أي مدى تبلغ روحه وعقله وقلبه..!!

لا شك أن العقل هنا يلتجئ إلى الوحي ليستعين به على معرفة هذه
الشخصية المقدسة العظيمة والتي هي على خلق عظيم لنعرف أنه بلغ
مرحلة من السمو والارتفاع والعروج أن يكون هناك في مكان يعبر عنه



القرآن بقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (١).

على أن المعرفة هنا تقتضي منا أن ننصت خاشعين لقول رسول الله في فاطمة عليهما السلام إذ يقول:

(فاطمة هي نور عيني وقلبي ومهجتي وبضعتي وروحي التي بين جنبي) ..

لنعرف أن فاطمة ليس بالإمكان أن نعرفها إلا من خلال أبيها رسول الله ﷺ.

كما ورد ذلك في سورة النجم سورة الرحلة، رحلة الإسراء والمعراج التي تشدك مع سورة الإسراء في توضيح وتبيين تفاصيل الرحلة العظيمة التي قام بها رسول الله ﷺ تحت رعاية الله وعنايته وحفظه.. يقول الحق: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ..﴾ (٢).

هذا كان في المسجد الأقصى حيث التقى النبي بالأنبياء والرسل كلهم جميعاً وصلى بهم في المسجد المذكور، غير أن القرآن يبين أن هناك آيات كبرى رآها النبي ﷺ، عند موقع في هذا العالم المترامي الأطراف بلا حدود حيث يقول: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (٣).

لماذا إلى هنالك به يقول: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ (٤).

(١) النجم/٨-٩.

(٢) الاسراء/١

(٣) النجم/٨-٩.

(٤) النجم/١٨



وآيات الله الكبرى هم أهل البيت وهم غير الآيات التي رآها النبي عند المسجد الأقصى فتلك آيات الله فقط وهم الأنبياء، في حين أن التعبير والكلام عندما وصل إلى أهل بيت النبي وهم علي وفاطمة والحسن والحسين إلى الإمام بقية الله الحجة بن الحسن، أخذ أسلوباً آخر فبين أن الآيات هنا ليست كآيات هناك في بيت المقدس، وإنما هم آيات الله الكبرى، وهم أهل بيت النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً..

على أننا نلاحظ ذلك في سياق القرآن وهو يصف لنا هذه الرحلة السماوية العلوية فيقول مباشرة بعد قوله: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾^(١).

وبعدها يقول عز وجل: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾^(٢).

والسؤال هو: ما علاقة هذه الأصنام بآيات الله الكبرى وهم أهل البيت عليه السلام.

والجواب: على الرغم من أن أهل البيت عليه السلام هم كلمة التوحيد وكلمة الله العليا، في مقابل الأصنام التي هي رمز الشرك والكفر والانحطاط.

أقول: على الرغم من ذلك كله لوضوحه، إلا أنه لا يريد بذكر اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، الأصنام المعروفة لدى العرب قبل

(١) النجم/١٨.

(٢) النجم/١٩-٢٠.



الإسلام، وإنما أراد ثلاثة خطوط تتمثل بهذه الأصنام ظاهرة في ثلاثة رجال وقضوا ضد أهل البيت عليهم السلام، اثنان منهم يشير إليهما القرآن بوضوح في عدة آيات منها قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصِي الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (٢٩) وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (١).

وهذه الآيات التي تفتح هذا المشهد أمامنا إنما هي في سورة الفرقان حيث ينفتح هذا المشهد الموجه في ساحة المحشر وقد وردت أحاديث كثيرة في كتب الصحاح من كتب العامة، تشير إلى هذا الموقف وأن الرسول يرى قسماً من أصحابه يذاذون عن ماء الكوثر ويطردون من الاقتراب من حوض الكوثر، كما في رواية البخاري في باب الحوض حيث يقال للنبي ﷺ، حين يُسأل عن السبب الذي جعل هؤلاء الأصحاب مطرودين من رحمة الارتواء من العطش يوم الحوض ويوم العطش الأكبر، فيأتيه الجواب: (يا محمد إنك لا تدري ما أحدثوا من بعدك، إنهم لا زالوا يرجعون القهقهري)..^(٢)

وهذا ثابت في الصحاح كما هو ثابت في القرآن في قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (٣).

أقول: في هذا المشهد العظيم الذي ترفع الستائر عنه في حضرة

(١) الفرقان/٢٧-٣٠.

(٢) آل عمران/١٤٤.

النبي ﷺ، وغدا الظالم الأول الذي تذكره زيارة عاشوراء واقفاً يعرضُ على يديه من الندم والحسرة التي راحت تصلي قلبه ناراً، حيث لا يفيد الندم، ولا تنفع الحسرة شيئاً فلانا حين ندم..

وكما قالت الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام: (فلا عذر بعد تعذيركم ولا أمر بعد تقصيركم)..

راح هذا الظالم يعرض على يديه وعيناه شاخصتان إلى الرجل الثاني معه وقد أطلق القرآن عليه صفة الخليل ويقول: ﴿يَا لَيْتِي أَتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾^(١)، وهذا يعني أن هذا الظالم كان مع رسول الله ولم يهتد إلى الحق والسبيل هنا هو الإيمان بولاية علي أمير المؤمنين عليه السلام.

حيث وردت الأخبار عن أهل البيت تؤكد هذا المعنى، ثم يلتفت تارة أخرى إلى جهة النبي مبدئياً تأسفه والندامة قد خطت على جبينه أنه من أهل النار، كما هو صريح الآيات هذه، فيقول: ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً﴾^(٢).

وفلان هذا كان مع النبي هو الآخر لأن المشهد واحد كما يصوره القرآن الكريم فيقول في معناه: (أن هذا الخليل قد أضلني وخذعني وأزلني إلى النار).

وذلك في الآية: ﴿لَيْتِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً﴾ (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾^(٣).

(١) الفرقان/٢٧.

(٢) الفرقان/٢٨.

(٣) الفرقان/٢٨-٢٩.



وهذا يعني أنه عرف الحق وعرف ولاية أمير المؤمنين علي عليه السلام أنها حق، ومع ذلك فقد انحرف وانحرف وسقط في أعماق النار غير مأسوف عليه، كما هو في هذه الآيات الكريمة، انظروها جيداً وتأملوها بعمق تخرجوا بحصيلة مفادها:

أن هذين الرجلين كانا مع النبي ﷺ، والظالم الذي راح يعض على يديه وخليله الذي أضله وأزله وأوقعه في نار جهنم، ﴿وَيَوْمَ يَعْصِي الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (١)﴾.

وهنا عند نهاية هذا المشهد حيث يؤمر بهذين الرجلين الظالم وخليله إلى النار، بيدي النبي شكواه إلى الله مما لاقى من أمته في أهل بيته إذ أنهم لم يحفظوا عهد النبي بآله الأطهار الأمجاد، قد شتتوهم بين مأسور ومقهور ومنحور.. بسيف عناد، هذا بسامراء وذاك بكربلاء وبطوس ذاك، وذاك في بغداد، تباً لهم من أمة لم يحفظوا عهد النبي بآله الأطهار الأمجاد..

وهنا تبدأ الشكوى مبنوثة من فم الهادي النبي ﷺ بقولها في الوقت الذي تنزل فيه فاطمة الزهراء عليها السلام إلى ساحة المحشر لتحضر هذا المشهد وهذه المحاكمة والمنادي ينادي من بطنان العرش:

(.. ألا يا أهل العالم غصوا أبصاركم حتى تجوز فاطمة بنت محمد

(١) الفرقان/٢٧-٢٩.



صلى الله عليها وعلى أبيها ويعلمها وبنيتها والسر المستودع فيها بعدد ما أحاط به علمك).

فيقول النبي بعد هذه العبارة التي تصك سمع الملكوت: (وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً).

وهذه دعوى قائمة إلى اليوم ولا يمكن لأحد أن يتفاقل عنها بحجة إننا نحفظ القرآن ونتقن تجويده وترتيبه في الشأن كله.. لا.. وكلاً..

إن القرآن بدا اليوم ومن ذلك اليوم الذي فارق النبي فيه الحياة وارتحل إلى جوار أبيه، بدا القرآن مهجوراً، لأن الأمة لم تطبق القرآن في أهل بيت النبي، إذ أن الله أمرهم بالقرآن مودة أهل البيت عليهم السلام وقال: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(١).

ولكن الأمة بدل أن تظهر المحبة والمودة لأهل البيت، أظهرت لهم العداء والنصب فقتلتهم وشردتهم وطاردتهم تحت كل حجر ومدر، (اترجو أمة قتلت حسيناً شفاعته جده يوم الحساب)..

هكذا وجدوا هذا القول مكتوباً على جدار أحد الديرة عندما ركبت السبايا -سبايا آل الرسول- في طريقهم إلى الشام.

إذن: فالأمة اتخذت هذا القرآن مهجوراً، بنص هذه الآية وصريح القول في سورة الفرقان لأن الرسول ﷺ، لم يخرج من الحياة حتى أعلن عن ولاية علي بن أبي طالب أمير المؤمنين عليه السلام، في يوم غدير خم في حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة وقبل هذا اليوم كان

(١) الشورى/٢٣.



النبي قد أعلن مراراً، وكرر القول على الناس جميعاً حتى لا يقول قائلٌ
لم أسمع بهذا من قبل، أن يقول أحد أن ولاية أمير المؤمنين لم تفرض
من قبل الله عز وجل، والقرآن صريح في هذا:

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ
وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^(١).

وحين أعلن النبي ﷺ، هذه الولاية التي هي أمانة في أعناق البشر،
قال الله عز وجل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ
لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٢).

هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن الأشياء تعرف بأضدادها، فأنت
-مثلاً- تعرف العالم من جهل الجاهل، وتعرف الزاهد عند المال
والذهب والإبريز، وتعرف العفيفة عند الشهوة، لأن العفة هي لجام
الشهوة، فالعفيف يُعرف هو الآخر عند ثورة الشهوات، وكذلك الحليم
يعرف عند الغضب، والحكمة تعرف في الفكر والتأمل، فإذا قلنا أن
لكل شيء جوهرًا يظهر حقيقة ذلك الشيء، عرفنا أن جوهر الإسلام
يتمثل ويتجسد في الولاية والمودة لأهل البيت الطاهرين الذين أذهب
الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

ومن هنا فإننا مطالبون ومأمورون بإتباع آل محمد واقتفاء أثرهم
واتخاذهم أسوة وقدوة ومثلاً أعلى في حياتنا جميعاً نحن المسلمين.

على أن الخطاب إنما هو موجه إلى الناس كافة، لأن الرسول ﷺ،

(١) المائدة/٦٧.

(٢) المائدة/٣.

إنما هو رحمة للعالمين وليس لعالم الناس فقط بل لكل العوالم التي نراها، والتي لا نراها، ما يرى وما لا يرى.

إذن: فالنتيجة هي أن جوهر الإيمان إنما يظهر في الإيمان والعمل الصالح، حتى قال الله عز وجل: ﴿وَالْعَصْرُ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ (١).

وهذا معناه أن كل الناس في خسارة من ولادتهم إلى لحودهم إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، أي باستثناء أصحاب ثقافة الإيمان والعمل الصالح، وهذا يبين لنا أن الإنسان في القرآن إنما هو عبارة عن الإيمان زائداً العمل الصالح، لأن الإيمان بغير عمل لا ينفع ذلك النفع العظيم، وذلك أن الإسلام يبدأ من القلب بالإيمان والنية، ويجري على اللسان بالشهادتين وإعلان القول الحق والكلمة الحقّة، ويظهر على حقيقته بالعمل الصالح، ومن هنا تجد بعض الناس الذين يقولون بأفواههم إننا مؤمنون ولكن لم تؤمن قلوبهم يفضحهم القرآن بقوله: ﴿آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ (٢).

أي أنهم مجرد أقوال دون دليل ولا برهان، ودون أن يكون لهذا القول جذور في القلوب إذ أن حكمة الإيمان تشبه الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها..

وهذا من أعظم الموضوعات التي تحتاج إلى تسليط مزيد من الضوء عليها لإظهار حقيقتها في هذا المجال.

(١) سورة العصر.

(٢) المائدة/٤١.

على أننا يجب أن نلتفت إلى نقطة بالغة الأهمية وهي موضوع التفسير والتأويل للقرآن لأن القرآن كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كتاب فصلت آياته من لدن حكيم عليم، ومن هنا كان القرآن كتاباً ظاهراً أنيق وباطنه عميق، وله ظاهر وباطن ولهذا فإنه لا يحتاج إلى التفسير فقط، بل وأيضاً يحتاج إلى التأويل، واضرب لكم الأمثلة على ذلك..

الأمثلة:

القرآن يقول: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾. (١)

ونحن إذا فسرنا هذه الآية على الظاهر فقط فإن معناها، أن كل من فقد بصره يحشر يوم القيامة أعمى، وهذا ما لا يقول به أحد لديه شيء من الحكمة والعقل.

إذاً: فلا بد من الرجوع إلى التأويل يساعدنا في ذلك حمل القرائن الخارجية والداخلية في هذا الموضوع فيكون المراد بالأعمى الذي يحشر يوم القيامة أعمى، إنما هو أعمى البصيرة والقلب، لا أعمى العين والنظر، مثل ذلك مثل الذي يقول لك: إني سبحت في عين باردة، فإن قرنية السباحة تدل على أن سبح في عين ماء لا في عين إنسان لأن السباحة لا تقع في عين البصر وإنما تقع في عين الماء، ونفس الشيء يقال في ذلك من الأمثلة والشواهد.

على أننا نستطيع أن نفتح آفاقاً من المعرفة في هذا المجال حتى

(١) الإسراء/٧٢.



ندرك ونفهم أن الكلمة الواحدة تأتي القرآن حاملة معها عشرات بل مئات، وأحياناً آلاف المعاني وكلها صادقة وصحيحة وصائبة، وكما في القرآن كذلك في الحديث والكلام الوارد عن النبي ﷺ، وعن أهل بيته من الزهراء روي فداها وعلي أمير المؤمنين عليه السلام، وأئمة الحق من أبناء علي وفاطمة، حيث يقول الإمام الصادق عليه السلام: (أنتم أفقه الناس إذا عرفتم معاني كلامنا، وأن الكلمة لتخرج منا وتنصرف على وجوه) وفي كلام آخر لهم عليه السلام أن الكلمة الواحدة لها سبعون وجهاً لكل منها لنا المخرج أي منها كلها ولك المعاني التي تصب في الحق والعدل والصدق، لأن الكلمة عن أهل البيت إنما هي كلمة الله التامة، وقد تمت كلمات الله عندهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

إذن: فلا بد أن نصغي بعقولنا وقلوبنا وأسماعنا لقول الحق الذي فيه تظهر الحقائق ويظهر جوهر الإسلام، من أهل البيت عليهم السلام، على أننا قبل ذلك لكي تتم الصورة واضحة فإنه لا بد لنا من تقديم بعض النماذج في هذا المجال، ومنها أن للقرآن طريقة في تقريب المعاني إلى الأذهان وذلك من خلال تصوير المعقول بالمحسوس، مثل الكلمة الطيبة يصورها بالشجرة الطيبة فيقول:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (١).

(١) إبراهيم/٢٤-٢٥.

وإنما ضرب الله هذا المثل ليقرب المعاني البعيدة إلى الأذهان والعقول بأقرب وأبسط الأمثلة، فما هو وجه الشبه بين الكلمة والشجرة، إلا أن الشجرة فيها غذاء للأبدان، والكلمة فيها غذاء للعقول، هذا كل ما في الأمر.. بل هناك أكثر.

فإنه كما أن الشجرة لها أصل في الأرض وفرع في السماء، فكذلك الكلمة فيها غذاء الإنسان الذي يحتاجه من السماء لأنه -أي الإنسان- إنما هو تشكيلة من تراب الأرض ونفخة من وحي السماء، واحدة صنعت له الجسم، والأخرى أعطته الروح والنفس والعقل والقلب والفطرة، وهذا هو الحق الذي نسعى وراءه للمعرفة ونحيا فيه للعزة والكرامة، فإذا سلطنا الأضواء أكثر في سورة الإنسان مثلاً أو سورة العصر، فإننا سنجد العصر في التأويل غير العصر في التفسير، ففي التفسير المراد من العصر، العمر والوقت والزمن، بما في ذلك تعاقب الليل والنهار، فجاء القسم بالعمر لما فيه من نبع فياض بالوقت للعمل والسعي وراء البناء في الحياة، في حين أن العصر في التأويل معناه عصر الإمام الحجة بقية الله في الأرض وفي السماء وفي العوالم كلها، الإمام المهدي صلوات الله وسلامه عليه لأن العصر هو عصره هو عصر تحقيق الوعد الحق الذي أعطاه الله للعباد، ومن هنا فإن البشرية اليوم في انتظار هذا اليوم، وهذا العصر الذي تتحقق فيه عدالة السماء وحكمة الحق، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، وعندها ينطلق النداء للناس كافة أن سيروا وانطلقوا في دولة الحق التي أظهرها الله كما وعد لأن الله لا يخلف الميعاد..



قال تعالى: ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾^(١).

هذا في مجال هذه السورة ونفس الشيء في بعض السور بل في القرآن كله، لأنه يجري في الباطن كما يجري في الظاهر، فهذه سورة التين التي يقول فيها الحق: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ﴾^(١) وَطُورِ سِينِينَ^(٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ.. الخ^(٢).

وعندما يقرأها الواحد منا يتبادر إلى ذهنه التين الذي نأكله والزيتون المعروف لدى الناس، غير أن الأمر ليس بهذه البساطة والسهولة وإن كان التين يعد من أجود أنواع الفاكهة والزيتون كذلك، ولكن الأمر يكون بهذا اللون الذي نتلقاه في كتب التفسير، إذ أن هذه السورة إنما نزلت لتحدث العالم كله عن مسيرة الأنبياء والرسل في التاريخ.

وذلك أن شجرة التين هي الشجرة التي أكل منها آدم، والزيتون يشير إلى سفينة نوح لأنه لما أرسل الحمام، رجعت تحمل غصناً من الزيتون في فمها، للدلالة على وجود الحياة، وطور سينين يكون المراد به مرحلة موسى عليه السلام، كما أن البلد الأمين مكة المكرمة، أي إشارة إلى الحبيب المصطفى محمد ﷺ، لأن البشرية بدأت من أبينا آدم ثم غرقت في الطوفان لتتولد مرة أخرى من سفينة نوح، ثم توالى عليها الأعاصير والخطب، لتبدأ مرة ثالثة من طور سيناء، حيث كلم الله نبيه موسى عليه السلام، ثم يأتي بعده عيسى برسالة تصحيحية لذلك لم تذكر مرحلة

(١) سبأ/١٨.

(٢) التين/١-٣.

عيسى في هذه السورة وإنما ذكرت الإنطلاقة الكبرى للبشرية بنور الهداية والعلم والإيمان الذي أخرج الناس من الظلمات إلى النور بالحبیب المصطفى محمد ﷺ، وقد أثارت الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام إلى هذه الحقيقة في خطابها العظيم، حين وجهت كلامها للناس تذكرهم بالماضي الذي ليس بالبعيد، حيث كانوا في أشد حالات الفزع والخوف والفقر والذل والهوان، بفعل الفارات التي تشف من هنا وهناك، فتقول لهم:

(.. وكنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطأ الأقدام، وكنتم تشربون الطرق وتقتاتون القد، والورق، أذلة خاسئين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فأنقذكم الله بأبي محمد ﷺ، بعد اللتيا واللتيا وبعد أن مني بهم الرجال وذؤبان العرب، ومردة أهل الكتاب، كلما أوقدوا ناراً للحرب أو نجم قرن للشيطان، أو فغرت فاغرة من المشركين قذف أخاه علياً أمير المؤمنين ﷺ لأنه أخو النبي ﷺ).

كما في حديث المؤاخاة المشهور..:

(.. في لهواتها فلا ينكض حتى يطأ صماخها بأخمصه ويخمد لهبها بسيفه مكدوداً في ذات الله مجتهداً في أمر الله قريباً من رسول الله، سيداً في أولياء الله، مشمراً ناصحاً مجداً كادحاً، وأنتم في رفاهية من العيش وادعوني آمنون فاكهون تتريصون بنا الدوائر، وتتوكفون الأخبار، وتنكصون عند النزال، وتضرون من القتال، فلما اختار الله لنبه دار أنبيائه وماوى أصفياؤه ظهرت فيكم حسيكة النفاق وسمل جلاباب الدين.. الخ).



يدل كل ذلك على أن البشرية سارت بهذه الرحلة مع الأنبياء فمرة تقوم وتارة تقع وأحياناً ينزل العذاب على الناس بما كسبت أيديهم.

إذن: فإن سورة التين المراد بها ليس هذا التين الفاكهة، وإن كان التفسير يريده ويشير إليه، غير أن التأويل الذي لا يعرفه إلا الله والراسخون في العلم وهم محمد وأهل بيته صلى الله عليهم أجمعين، كما يؤكد أن المراد بالتين إنما هو مرحلة آدم عليه السلام في التاريخ والحياة حتى تصل الرحلة إلى سيد الخلق وأعظم البشر أبي القاسم محمد ﷺ، وإذا عرفنا هذا فإننا ندرك مسائل كثيرة جاءت من أهل البيت لتوضيح المسائل الفكرية والأمور العقائدية أو العقيدية، ومنها سورة القدر وليلة القدر، وأن الليلة إنما هي فاطمة عليها السلام، وإن الذي يعرف فاطمة الزهراء حق معرفتها سلام الله عليها، إنما يدرك بذلك ليلة القدر، ويستوعب المعنى الكبير لهذه الليلة التي هي أعظم ليلة في تاريخ الأديان والبشر.

إذاً عرفنا ذلك، عرفنا السر الكبير في آية النور، وأن المراد بالمشكاة التي احتوت على نور الله عز وجل إنما هي فاطمة الزهراء عليها السلام حيث جعلها الله مشكاة لحفظ نوره ونشره في الكائنات وفي السموات والأرض لأنها بنت النبوة، وأم الإمامة، بل هي بضعة المصطفى ﷺ، فقد وردت بذلك روايات وأحاديث مسندة، وموثقة عن أهل البيت تؤكد أن المشكاة إنما هي فاطمة والمصباح هو الحسن والمصباح الآخر إنما هو الحسين صلوات الله عليهم أجمعين خصوصاً ونحن نقرأ حديثاً لرسول الله ﷺ يقول فيه: (إن الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة). ولعل قراءة الحديث من المتن والنص تفتح آفاقاً من المعرفة نحن في



حاجة كبيرة لها، والحديث كما ورد في عيون أخبار الرضا عليه السلام للشيخ لاصدوق، ونقلته دائرة المعارف الحسينية في كل أجزاءها للتأكيد عليه والأخذ به بقوة وهو هذا الحديث: (قال رسول الله ﷺ: إن الحسين مصباح هدى، وسفينة نجاة، وإما خير ويمن وعز وفخر، وبحر علم وذكر).^(١)

على أننا في تفسير وتأويل آية النور هذه نلتقي أحاديث واضحة وعميقة وردت في هذا الشأن عن أهل بيت العصمة محمد وأهل بيته عليهم الصلاة والسلام، ويمكن أن أنقلها لكم بالترتيب التالي على أن أعود إليها ولو بعد حين من الوقت، لتسليط الضوء على بعضها لمعرفة العمق الفكري، الذي تتضمنه تلكم الأحاديث الشريفة، وهي على الشكل التالي الذي يوافق كون الآيات درجات في المعرفة، أي أن كل واحد منا إنما يعرف الآية حسب معرفته ودرجة إيمانه، فكلما كانت المعرفة أكثر كانت الآية أوقع في القلوب، وأضوأ في البصائر، فقد ذكر الإمام الحسين عليه السلام هذا المعنى في كلمة يقول فيها: (.... إن كتاب الله عز وجل نزل على أربعة أشياء: على العبارة، والإشارة، واللطائف، والحقائق، ثم يفصل ذلك بقوله: فالعبارة للعوام، والإشارة للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء...).

وهذا هو الحق الذي يفتح أبصارنا وبصائرنا على كنوز من العلم والمعرفة في هذا المجال، فالحديث الذي يصور المشكاة بأنها قلب المؤمن لا شك أنه يأخذ العبارة إلى قلوب العوام أي عامة الناس، في

(١) عيون أخبار الرضا: ١/٦٢ أو ٢/٦٢ وفرائد السبطين ص ٤٢.

حين أن الحديث الذي يفسر المشكاة بأنها قلب النبي فإنه يرتقي
 بالإنسان أكثر أخذاً بيده من جو العبارة إلى عالم الإشارة، على أن قلب
 النبي يشير إلى فاطمة الزهراء عليها السلام أيضاً، لأنها قلب النبي ومهجته
 وبضعته، كما تؤكد ذلك الأحاديث الصحيحة الواردة عن رسول الله ﷺ،
 وهكذا ترتفع درجات الفهم والوعي في هذا المجال لتصل إلى درجة
 الحقائق التي لا يعلمها ولا يدرسها إلا الأولياء والأنبياء على رغم
 وضوحها لمن أراد أن يستضيء بها، حيث أن المشكاة هي فاطمة الزهراء
 عليها السلام، التي جعلها الله مثلاً أعلى لنوره وانتشاره في الآفاق..
 قال الحق عز وجل: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا
 مِصْبَاحٌ﴾^(١).

وتأملوا جيداً بعض كتب التفسير التي تفسر المشكاة، بالكوة غير
 النافذة في جدار، إنها تعمى عن طريق الحق، وإلا فما معنى أن تكون
 المشكاة التي تضم نور الله في جوانحها، كوة صغيرة غير نافذة في
 جدار؟؟

ما هذا؟؟

وهل الجدار يمثل النور؟؟

وهل الجدار يمثل المشكاة؟؟

ثم هل الجدار يعكس المشكاة التي فيها مصباح والمصباح الآخر معه
 وكل ذلك في زجاجة كأنها كوكب دري؟؟

(١) النور/٣٥.



أجيبوني أيها الأحبة، هل النافذة في جدار الكوة غير نافذة في جدار، هي التفسير الصحيح للمشكاة التي كأنها كوكب دري؟
أي تفسير هذا؟؟

تعالوا إلى مدرسة أهل البيت عليهم السلام، حيث تجدوا تفسيراً عظيماً للمشكاة وتأويلاً رائعاً لها، يدل كله على أن المشكاة هي فاطمة وإن فاطمة سلام الله عليها، هي المشكاة التي لا تنطفئ أبداً لأن الله عز وجل أعطى عهوداً ومواثيق أو قل: ... أعطى وعوداً ولا يتخلى عنها أبداً، لأن الله لا يخلف الميعاد، أكد من خلالها أنه إنما جعل فاطمة مشكاة لنوره لأنه أراد لهذا النور أن لا ينطفئ أبداً وإن كل محاولات أهل النفاق والشقاق والكفر والظلم التي تريد إطفاء هذا النور، إنما هي خاسرة وفاشلة، وساقطة..

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(١).
ويقول تعالى أيضاً: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(٢).

على أننا نلاحظ أن كل واحدة من الآيتين كانت مسبوقة بآية قبلها، يقول الحق فيها:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾^(٣).

(١) الصف/٨.

(٢) التوبة/٣٢.

(٣) التوبة/٣٣.

وهذا هو الحق، فإله تبارك وتعالى يريد لكلماته أن تتم على يد فاطمة الزهراء عليها السلام، وعلى هذا حديث اللوح الأخضر الذي نزل به الوحي يوم مولد الإمام الحسين عليه السلام وقدمه النبي هدية لفاطمة يوم المولد الذي أفجع فاطمة فأبكاها حين علمت بمصرع ومقتل ولدها الحسين والطريقة التي يجري فيها قتله من قبل أعداء الله، وأعداء الحق، فخنقتها عبرتها وارتفع أنينها وبكاؤها على ولدها الحسين في الساعة التي ولد فيها، كما هو معروف لدى أهل الفكر والعلم والبيان والفقهاء والقلم، فكان اللوح الأخضر في يدي فاطمة عليها السلام يوم مولد الحسين إذ كانت مقبلة على قراءة ذلكم اللوح الذي وقع بصر جابر بن عبد الله الأنصاري عليه يوم دخل على بيت الزهراء عليها السلام ليقدّم لها التهاني والعزاء بمولد الحسين عليه السلام، فرأى ذلكم اللوح الأخضر تلمع الكتابة فيه، كأنها أشعة شمس على زمرد أخضر وعندما سألتها جابر أخبرته الزهراء عليها السلام عن السر العظيم الذي كان اللوح الأخضر يحتويه ويشتمل عليه إذ كان في اللوح أسماء المعصومين من النبي إلى بقية الله صلوات الله عليهم أجمعين، وفي اللوح إشارة إلى ألوان العذاب الذي سيقع على شيعة أهل البيت من أعداء آل محمد من العاملة الناصبة التي تصلي ناراً حامية، تسقى من عين آنية، ليس لهم طعام إلا من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع.

أقول: لا يقبل كل حر له أدنى إمام بالمعرفة والفقهاء والحديث، أن تكون الكوة غير النافذة تمثل المشكاة، وأن يكون المراد بالمشكاة غير فاطمة الزهراء عليها السلام، هذا مرفوض في الشكل والأساس لأنه مخالف لأبسط قواعد البحث العلمي والرؤى في الفكر والثقافة والحوار.

والآن وبعد أن تحررنا بهذه الرياض الممتعة من الإشارات الفكرية والاستعارات البيانية، واللمع الضوئية التي انطلقت تضيء الدرب أمامنا، وترفع الحجب والموانع عن طريقنا حتى نرى الحقائق على طبيعتها، أنقل لكم حزمة من تلك الأحاديث التي تحتوي على السر الأعظم في تفسيرها، كما في تأويلها، وهي على الأرقام التالية:

١ - قال أبو عبدالله الصادق عليه السلام:

في قول الله عز وجل: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نَوْرِهِ كَمِشْكَاةٍ فَاطْمَأَنَّ النَّجْمُ﴾، ﴿فِيهَا مَصْبَاحٌ حَسَنٌ﴾، ﴿الْمَصْبَاحُ فِي زَجَاجَةٍ﴾ الحسين، ﴿الزَجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دَرِيٌّ﴾ فاطمة كوكب دري بين نساء أهل الدنيا، ﴿تَوْقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مَبَارَكَةٍ﴾ إبراهيم عليه السلام، ﴿زَيْتُونَةٌ لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾ لا يهودية ولا نصرانية، ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يَضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ نور على نور، إمام منها بعد إمام، ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يهدي الله للأئمة عليهم السلام من يشاء، ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ .. الخ. ^(١)

إذن: فإننا نجد في هذا الحديث التفسير الصحيح والتأويل العميق الواضح لمعاني كلمات آية النور، فالمشكاة فاطمة، والمصباح الأول هو الحسن عليه السلام، والمصباح الثاني هو الحسين عليه السلام، ثم هي الزهراء كوكب دري بين نساء الأرض، وحتى سكان الجنان والسماوات العلى، كما ورد ذلك في أحاديث أخرى جاءت في أكثر من موضع وموطن، ثم جاء تأويل الشجرة بأنها إبراهيم الخليل، ولا شك أن شجرة النبوة هم أهل البيت الذين كانوا أنواراً في صلب إبراهيم عليه السلام، على أن فاطمة

(١) أصول الكافي ١/١٩٥ ح ٥٠.



انفردت عنهم بخصوصية هي أنها جعلها الله في عرضه مرة وتارة في الجنة، ففي الوقت الذي تتقلب فيه أنوار محمد وأهل بيته في أصلاب الساجدين من الأنبياء والرسل، نجد نور فاطمة في جنة أظلة العرش، وعلى شجرة طوى تضيء الجنة بنورها، كما تضيء السماوات والأرض بنورها، فيخشع سكان الملأ الأعلى لسماع صوتها بالتسبيح والتهليل والتحميد، إذ كان غذائها التسبيح.

ومن هنا ندرك عظمة تسبيح فاطمة عليها السلام، ولماذا ارتفع أجر من يؤديه إلى أكثر من ألف ركعة صلاة يصلّيها الإمام المعصوم، كما ورد ذلك في رواية أبي عبدالله الصادق عليه السلام، والتي يتحدث فيها عن قيمة هذا التسبيح الفاطمي، وأثره في بناء الإنسان وقربه من الله عز وجل..

أقول: ففي الوقت الذي تتقلب أنوار النبي المصطفى وأهل بيته في أصلاب الساجدين العابدين من الأنبياء والرسل، يكون نور فاطمة في انتظار صلب المصطفى ليخرج منه إلى العوالم كلها، وكأن أصلاب الأنبياء لا تحمل القدرة التي تمكنها من حمل نور فاطمة عليها السلام.

وهذه خصوصية للزهراء سلام الله عليها اختصت بها وانفردت عن سائر المعصومين كما أشار إلى ذلك أبوها المصطفى بقوله: لما أراد الله أن يخرجني من أصلاب الأنبياء، أحب أن يخرج ابنتي فاطمة من صلبي.

على أن هذا الأمر واضح فالبنت كأي بنت أخرى، إنما تخرج من صلب أبيها، ولكن النبي ﷺ، إنما أراد هنا أن يبين أن فاطمة لم تكن نفي أصلاب الأنبياء، وأن الله أودعها في صلبه مباشرة، أي أنها لم

تنتقل من أصلاب الأنبياء إلى صلب أبيها مباشرة كما هو واضح جداً في حديث التفاحة التي أكلها النبي ليلة الإسراء والمعراج، فتحولت إلى نطفة في صلبه، ثم حين هبط إلى الأرض واقع خديجة فحملت بفاطمة، ففاطمة هي حوراء أنسية يقول الرسول ﷺ: (كلما اشتقت إلى رائحة الجنة، شممت رائحة ابنتي فاطمة عليها السلام). وسيأتي الكلام حول هذه الرواية بالذات في الموضع المناسب لها من هذا الكتاب الذي نتشرف بتقديمه لسيدتنا ومولاتنا الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام، لأنها هي التي أمرت بكتابة هذا الكتاب والإعداد له، وذلك في رسالة عاجلة وصلتني عبر إحدى المؤمنات من سيدتي ومولاتي فاطمة الزهراء عليها السلام، تأمرني فيها أن أقدمها قبل المعصومين وأن لا أذكرها بعد أبنائها من أئمة الحق، هكذا وصلتني الرسالة، وإني -يشهد الله على ما أقول- كنت قد نزلت من المنبر في ليلة استشهاد الإمام العسكري عليه السلام، في الثامن من ربيع الأول عام ١٤٢٦ للهجرة، وكنت يومها قد قرأت حديث الكساء، فما كدت أختتم حديث الكساء، فما كدت أختتم الحديث حتى جاءني شاب يعمل في جهاز الانترنت في الحسينية الكريلائية في منطقة الدعية في الكويت ويقول لي: هذه رسالة عاجلة وصلت الآن وهي من سيدتنا ومولاتنا فاطمة الزهراء عليها السلام، وفيها أمر، فاقراء، ثم أخذتها ونظرت إليها، وإذا بها رسالة من امرأة مؤمنة تقول: إنها رأت الزهراء عليها السلام في المنام وإنما في الواقع ولعله نوع من المكاشفة، إنها قالت: رجعت إلى داري وكان جهاز التلفاز يذيع محاضرة لعبد الحميد المهاجر فجلست أستمع فما أحسست إلا وامرأة تقف إلى جانبي -ذات أهمية وجلالة ووقار، وهي

مجللة بالسواد، وتقول لي: أنها فاطمة الزهراء عليها السلام، ثم تحملني رسالة إلى عبد الحميد المهاجر، تقول فيها: قلبي لعبد الحميد أن يقدمني قبل المعصومين ولا يذكرني بعد الأئمة وأولادها، وهذا هو الحق، فآله عز وجل قدمها قبل المعصومين في حديث الكساء، حيث قال: هم فاطمة وأبوها وبعلاها وبنوها..

على أنني لا أعجب ومالي لا أعجب من البعض ممن وقف ضد مقام الزهراء، وراح في محاولة مستميتة لإخراج فاطمة من المعصومين، حتى أنني رأيت سلسلة من الكتب عن المعصومين الأربعة عشر، ففوجئت أن السلسلة الكتبية، ليس فيها كتاب عن الزهراء، وإنما فقط ثلاثة عشر كتاباً فقط والأدهى والأمر، أن الكاتب أحد السادة من أبناء فاطمة الزهراء هي التي سوف تحاسبه وتنزل فيه العقاب، وذلك أنه ليس من حقه أن يقول: أكتب عنها أولاً أكتب، فالأمر إذا كنت تكتب عن بعض وتترك بعضاً وإن كان القرآن يقول: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ.. من مضمون الآية وليس بالكامل﴾...^(١)

أقول: حتى هذا مردود عليه جملة وتفصيلاً، لأنه كتب سلسلة عن المعصومين، وجعلها خالية من فاطمة، أي أنه جاء ببدعة مفبركة فلو قال قائل: لماذا لم تكتب عن فاطمة، قال له إني أضع نفسي في جبهة الحرية في الكتابة، فالزهراء لا تكرهني على الكتابة عنها، وما شاكل ذلك، غير أن هذا عذر أوهن من بيوت العنكبوت، لأن النبي والأئمة يرفضون الذي يكتب عنهم ويتجاهل فاطمة الزهراء عليها السلام.

(١) البقرة/٨٥.

كتاب العروة الوثقى للسيد كاظم اليزدي، وقع بصري في باب
مفطرات الصائم وموضوع الصيام، على فتوى للسيد يقول فيها: إن من
المفطرات.. الكذب على النبي والأئمة يعد من المفطرات التي تستدعي
القيام بكفارة مضاعفة، ثم يقول:

والأحوط وجوباً إلحاق فاطمة الزهراء عليها السلام بهم!!

يا للهول ولعظم الرزية، السيد كاظم اليزدي صاحب العروة الوثقى،
الكتاب الفقهي الذي نال جهوداً كثيرة وحظي من الفقهاء بشروح
وتفاسير لا تعدّها أصابع اليدين يذكر أن الكذب على فاطمة لا تعد من
المفطرات بالقطع والجزم ولكن من باب الاحتياط، الأحوط وجوباً!!!

وفكرت كثيراً في هذا الأمر، وقلت: يا سبحان الله، إلى هذه الدرجة
يتم تجاهل حقوق الزهراء عليها السلام، بحيث حتى في مسألة فقهية لا
نستطيع أن نقطع بوجوب الكفارة لمن يكذب على فاطمة.. حتى نقول:
الأحوط وجوباً.

ولكنني سمعت الله عز وجل في حديث الكساء، لم يقل الأحوط
وجوباً في فاطمة أو في كونها مثل بقية المعصومين، بل قال (.. هم
فاطمة وأبوها وبعلمها وبنوها..)

فبدأ عز وجل بفاطمة سلام الله عليها حتى قبل أبيها النبي وبعلمها
الوصي وأبنائها المعصومين البررة من أئمة العترة الطاهرة.. وإن تعجب
فأعجب من موقف بعض الفقهاء من قول فاطمة وعملها، فلم يجعله
حجة في أبواب الفقه، بل ذهب البعض إلى أن أذى فاطمة ليس حراماً،
وهو خروج صريح على إجماع أهل البيت واتفاق كلمتهم على أن من

آذى فاطمة فقد آذى الله ورسوله، كما هو واضح في الأحاديث الصحيحة المروية عن النبي ﷺ وأهل بيته الطاهرة.

على أن هذا اللون من التعامل مع الزهراء إنما هو جزء من مظلوميتها التي يشترك فيها أغلب الناس مع الأسف، حتى الذين يزعمون أنهم ينتمون إلى ذريتها وأبنائها ونورها ومقامها الرفيع.. فإننا لله وإنا إليه راجعون، من مصيبة ما أعظمها وأشدها على قلوب الأحرار العارفين بموقع ومقام ومنزلة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها.

كان هذا تعليقاً على الحديث الأول الوارد في الكافي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، في تأويله آية النور وأنها في فاطمة، وأن فاطمة عليها السلام هي المشكاة التي لا تطفئ أبداً لأنها حوت نور الحق، فكانت مشكاة تحمل نور الله الذي أضاعت له السموات والأرض والجنان والعرش وكل العوالم، إنها فاطمة وما أدراك ما فاطمة..!!

أما الحديث الثاني فهو التالي:

(عن أبي جعفر عليه السلام حديث طويل وفيه: إن الله تعالى بعث إلى أهل البيت الطاهرة بعد وفاة النبي ﷺ، من يعزيهم فسمعوا صوته ولم يروا شخصه، فكان في تعزيتهم: جعلكم أهل بيت نبيه، واستودعكم علمه وأورثكم كتابه وجعلكم تابوت علمه وعصا عزه، وضرب لكم مثلاً من نوره).^(١)

(١) أصول الكافي: ١/٤٤٥/ح ١٩/ وتفسير نور الثقلين/ آية النور.



وعندما نسلط الضوء على الحديث ونتأمله جيداً تظهر الحقائق التالية:

١ - أن نزول الملائكة لم ينقطع عن أهل البيت بعد وفاة النبي ﷺ، وذلك أنهم حملة نور العلم الذي كان عند رسول الله، وهم الرحمة ذاتها التي كان النبي يمثلها، إذ كان رحمة للعالمين، على أن هذه الرحمة لا ترتفع بموت النبي لأن البشرية في حاجة لها، كما أن العلم الذي جعله الله عند حبيبه المصطفى، إنما جعله لأهل الأرض، لأنهم هم المكلفون بالعمل والتكليف، لم يرفع عنهم برحيل المصطفى ﷺ، ومن هنا فإن انقطاع الوحي بوفاة النبي، لا يعني -بالضرورة- انقطاع الملائكة عن أهل البيت، خصوصاً ونحن نعرف أن الملائكة تنزل على كل مؤمن مستقيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ..﴾ (١).

وإذا كانت الملائكة تباشر النزول كل يوم على الناس الذين يمشون في نور أهل البيت، فما بالكم بأصحاب النور الإلهي الذي صار عندهم بل هم النور.. نور الله جل جلاله، وكذلك فهم التين والزيتون والشفع والوتر..

يضاف إلى ذلك أنه من الأولويات أن تكون الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام هي النور الرباني بذاته، لأن الله ليس هو النور، فالله ليس كمثله شيء، والنور شيء.

(١) فصلت/ ٣٠-٣١.



إذن: فالنور غير الله، لذلك قال: الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، فكانت فاطمة الزهراء عليها السلام هي المشكاة التي احتوت نور الله الذي أشرقته له السموات والأرض وصلاح عليه أمر الدنيا والآخرة، ولو لم تكن فاطمة كفؤاً وأهلاً لذلك، لما جعلها الله مثلاً لنوره، خصوصاً ونحن نعرف أن مشية الناس تختلف من شخص إلى آخر، فهذا يمشي متعثراً بذنوبه، وآخر يمشي مكباً على وجهه، في حين أننا نجد المؤمن يمشي سويّاً على صراط مستقيم لأنه هداه الله إلى هذا النور العظيم المنبثق من فاطمة الزهراء عليها السلام.

على أن الذي يمعن النظر أكثر يجد أن أعداء فاطمة أموات غير أحياء، يقبعون في ظلمات الفتن والزيغ والأهواء، في تلاطم من أمواج الكفر والشك والظلم والشرك والجهل، إذ بينت الآيات التي تلت آية النور هذه الحقيقة، حيث وصفت أعداء الحق بأنهم غارقون في ظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ثم يستمر القرآن الكريم في تصويره لهذه الأجواء المظلمة المرعبة التي تموج فيها الفتن والدماء والخروج على الله وعلى الرسول وعلى أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

٢ - يقول الحق سبحانه في محكم كتابه وبيانه: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ﴾ (١).

أي أن المشية التي يمشي الناس بها ليست واحدة، ولا متفقة ولكنها

(١) الأنعام/١٢٢.



مشيات متعددة كما مرت الإشارة إلى هذا المعنى، غير أن المشيات الناجحة التي توصل صاحبها إلى روح وريحان وجنة ورضوان في الآخرة، وتجعله مباركاً أينما يحل وينزل في الحياة الدنيا، بحيث تجعل هذه المشية أعمال صاحبها في قمة النجاح والظفر والفلاح، لذلك كشفت الآية الكريمة هذه أن الناس صنفان:

أحياء يمشون في نور الإيمان والحق واليقين، وأموات يمشون في تخبط وظلام وضياء.

٣ - لمعرفة الحق على طبيعته بغير التواء واعتساف، فإنه لا بد لنا من رفع الموانع التي تحول بني المرء وهدفه، فتصرفه عن الحق، كما أنه لا بد لنا من إزاحة الحجب التي تمنع المرء من التزود من رؤية الحق ومعرفته، لذلك كله، قال الله عز وجل لنبيه موسى بن عمران **عليه السلام**: ﴿.. وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ..﴾ (١).

لأن الذي هو في الظلام لا يستطيع أن يرى شيئاً من ضياء الحق ولا من نور العدل والعلم والإيمان، يضاف إلى ذلك أن الذي هو في الظلمات لا يقدر على شيء من معرفة أهل الحق فضلاً عن الحق ذاته، بخلاف الذين عاشوا في النور فرأوا الحق فعرفوه، فكانت أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، وراحوا يسألون الله في دعائهم أن يكتبهم مع الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

إذن: فلكي ترى الحقيقة، فإنه لا بد لك من رفع الحجب عن وجهك

(١) إبراهيم/٥.



وقلبك وعقلك ومشاعرك، إذ أنه من دون ذلك لا يتحقق فعل، ولا يتم أمر.

على أن هناك حقيقة لا بد لنا من التويه بها والإشارة إليها لتعميم الفائدة والنفع وهي:

أن الموانع التي تحبس الإنسان من الانتفاع بطاقات الكون وقدرات الطبيعة واستعدادات الروح والنفس، إنما هي تنشأ بسبب البعد عن الحق والوقوف بوجه أهله.. وللخلاص منها في أسرع وقت وأقصر طريق، يوجد هناك طريق واحد ليس له نظير، وهو طريق أهل البيت عليه السلام في إظهار مودتهم بعد أن تكون المودة هذه قد رست في أعماق القلوب فظهرتها وأنارت النيات في صدق وعدل وصفاء.

وهذا هو الطريق الواضح الذي أمرنا الله أن نسلكه في الذهاب إليه، والمسير إلى رضوانه، فإله لا يقبل حرفاً ولا عدلاً ولا ينظر إلى عمل إلا من خلال محمد وأهل بيته الطاهرين الطيبين وفي مقدمتهم الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين.

إذن: فإذا أردنا أن نعرف الحق أكثر، ونقترب من أهله أكثر، فإنه لا بد لنا من السعي في رفع الأغلال والحجب والموانع التي تحبس الإنسان عن نفعه وتشده إلى الطين ولزوجة المادة، فيغرق في بحر من الظلمات لا يخرج منه ومنها إلا الركوب في سفينة النجاة التي جعلها الله عز وجل في أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله أجمعين.

ثم قال: (.. اركبوا بسم الله مجراها ومرساها...).



وكذلك أيضاً:

(إن مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق وهوى).

وهذا هو الحق لأن الظلام في البحر غير الظلام في البر، ففي هذا الثاني لا يحتاج الإنسان إلى أكثر من فانوس أو مصباح يضيء له الطريق في الصحراء، في حين أن ظلام البحر يستدعي أن تكون هناك سفينة ومعها مصباح، السفينة للنجاة من الفرق، والمصباح لمعرفة طريق السفينة حتى لا تضل في ظلمات البحر، ويمكن قراءة الحديث الوارد عن النبي ﷺ، بخصوص السفينة حول هذا الموضوع بالذات والحديث يقول: إن الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة..

وهذا هو الحق بعينه، كما في حديث السفينة المشهور:

(.. إن مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق وهوى..).

لأن مصير المتخلف عن السفينة، مصير كنعان بن نوح حيث ناداه أبوه نوح: ﴿وَكَانَ فِي مَعَزٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ (٤٢) قَالَ سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَّمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١).

إذن: فلا عصمة من الفرق في ظلمات الجهل والكفر والشك والظلم

(١) هود/ ٤٢-٤٤.



والشرك، إلا بركوب السفينة التي تركها النبي لإنقاذ الأمة من الفرق والهلاك والضياع، وكانت السفينة هي الاعتصام بحبل الله، وحبل الله تفسيره وتأويله في أهل البيت عليهم الصلاة والسلام، فقد جعل الله أجر ركوب السفينة، المودة في القربى..

قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (١).

وتوجد ملاحظة أود أن أذكرها هنا للإخوة والأخوات، وهي أن النور العظيم هذا الذي تمثله فاطمة الزهراء عليها السلام، إنما هو نور من القو والفاعلية لا يستطيع شيء أن يخرقه أبداً لأنه أقوى من الأشياء التي نراها أمامنا، فعلى سبيل المثال، نذكر الإمام الحسين عليه السلام وهو على رمضاء كربلاء، وقد أضعفه نزف الدماء، فجلس ينوء برقبته من الألم والجراح التي نزلت به بفعل السهم المثلث ذي الثلاث شعب الذي وقع على قلبه، وقد دنا منه أحد المجرمين الذي ندبوه لحز رأس الإمام الحسين عليه السلام، غير أن ذلك الرجل اللعين ما كاد يقع بصره على الحسين وجماله ونوره، حتى وقف جامداً لا يتحرك مأخوذاً بجمال الحسين وهيئته التي يصفها السيد حيدر الحلي في قصيدته الرائعة التي يقول فيها واصفاً الحسين في مصرعه:

تريب المحيا تظن السما	بأن على الأرض كيوانها
عفيراً متى عاينته الكماة	يختطف الرعب ألوانها
فما أجلت الحرب عن مثله	صريعاً يجبن شجعانها

(١) الشورى/٢٣.

لذلك كان كل من يصل إلى الحسين بقصد أن يحتز رأسه الشريف، كان يندهش لجماله، وعندما رجع هذا العدو إلى القائد عمر بن سعد اللعين، سأله عن رأس الحسين فأجابه بهذا الجواب الذي يدل على أن نور الحسين ﷺ لا يخترقه شيء ولا يحجبه عامل من العوامل المادية مهما كانت قوتها، فلا الشمس استطاعت أن تحجب نور وجه الحسين، ولا الغبار ولا التراب ولا حتى الدماء الزكية التي كانت على وجهه تمكنت أن تمنع الدماء نوره، وهي بحد ذاتها نور عظيم في ليل كربلاء.

أقول: فما أن سأل عمر بن سعد عن رأس الحسين أين هو؟ حتى أجابه الرجل المندوب لقتل الحسين بقوله: والله ما رأيت مكثوراً قط، قد قتل ولده وأهله وأصحابه، أربط جأشاً منه، ولقد شغلني نور وجهه عن الفكرة في القتل.

إذن: فهذا التصريح يبين لنا أنه ليست فقط الحجب المادية لا تمنع نور الحسين من الظهور، بل وأيضاً حتى الحجب المعنوية لأن بغض هذا الرجل للإمام الحسين ﷺ، وعداءه له، وقلبه المريض الذي يكره الحسين ولا يحبه، كل هذه الحجب المعنوية لم تتمكن أن تخفي نور الحسين ولا أن تستره فضلاً عن أن تمنعه.

على أن هذا النور الحسيني إنما هو نور أمه فاطمة الزهراء الطاهرة، المشكاة التي احتوت على نور الله كله كما في صريح الآية المباركة، خصوصاً إذا عرفنا أن الحسين كان في ذلكم النور، لأنه هو المصباح مع أخيه الإمام الحسين ﷺ في قلب هذه المشكاة التي لا تتطفئ أبداً..



قال تعالى:

﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ (١).

فالويل لمن عنده هذا النور وهو يعيش في الظلمات، وهي كلمة أوجهها لكل المسلمين في العالم اليوم وأقول لهم: حرام علينا أيها الأحبة أن يكون الإسلام نوراً، والقرآن نوراً، والنبي نوراً، وعبادتنا كلها نوراً، وفاطمة الزهراء هي المشكاة التي تتشر النور وليس في الأرض فقط وإنما في السموات والعرش واللوح والقلم، حسب الروايات التي بين أيدينا عن أهل البيت عليهم السلام؟

أقول: حرام علينا أن يكون عندنا مثل هذا النور العظيم، ونحن نعيش في الظلمات، لا نحاول حتى الخروج منها، ظلمات الجهل والشك والظلم والضياع، بل إن تضییع حق فاطمة الزهراء عليها السلام هو الذي يلقي بنا في أودية الظلام السحيقة، فتعالوا معي أيها الأحبة إلى دار علي وفاطمة عليهما السلام إلى هذا البيت، فإنه أرفع البيوت وقد أذن الله أن يرفع ويذكر فيها اسمه..

تعالوا نقف على باب دار فاطمة عليها السلام، نلقي إليها بالتحية والسلام عليها لعلها تشملنا بنظرة رحيمة منها فتفك بها كل العقد، وتحل بها كل المشكلات..

إنها الصديقة الكبرى التي على معرفتها دارت القرون الأولى، وهي سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين، وهي التي يرضى الله

(١) النور/٣٥.



لرضاها ويفضّب لفضبها، وهي الأولى في كل الأمور، وسيأتي بيان ذلك قريباً إنشاء الله في هذا الكتاب.

أقول: تعالوا أحبتي نقف على باب دار فاطمة نستأذن في الدخول عليها وعلى بيتها العظيم الذي غير العالم، وغير الدنيا وأنارنا في التفكير، معقول العلوم، وضمن القلوب، موصول الفكر والمعرفة المنطلقة من هذا البيت الطاهر الذي يشير إليه الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام بقوله: (كل علم لا يخرج من هذا الباب فهو باطل..).

هذا مضمون الحديث لا نص الحديث.

وبعد: فما الذي يمنعنا من الاقتراب من هذا البيت العظيم؟

لا شيء يمنع سوى الشيطان والنفس الأمارة بالسوء، ونحن بقليل من التأمل نستطيع أن نقتحم العقبات كلها، حتى نصل إلى بيت الزهراء عليها السلام، والذي يصفه الشاعر للإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام يقول في أبياته:

وبيتك وهو بسيط بما	حوته جوانبه الأربع
فزاوية منه فيها الحصير	إلى جنبه جرة توضع
وأخرى بها من جريد	النخيل سرير قوائمه ترفع
وأنيسة الطين وهي الكؤوس	وفي كف مالكةا تصنع
وتلك رحيّ مجلت راحة	لطحن الشعير بها تسرح

كوخ وجبة صوف.. ثم في طبق قرص شعير.. بكف الطهر مطحون..
هذا هو كل شيء في بيت علي وفاطمة عليهما السلام من محتويات



الحياة وحاجات الأسرة، غير أن جوانب الغيب في حياة فاطمة عليهما السلام تكشف لنا عن صورة لهذا البيت، تأخذ بمجامع القلوب والأرواح، فتصعد بها إلى أعلى عليين، حيث يكون العرش سقفاً لبيت فاطمة عليها السلام، وتكون شجرة طوبى مفروسة في بيت فاطمة بيد الله، أي أن الله عز وجل هو الذي قام بغرس هذه الشجرة بيده، وغرسها في بيت علي وفاطمة، لذلك يتحدث القرآن عن عظمة هذا البيت وحرمة بقوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾^(١).

ومعنى ذلك أن المشكاة التي احتوت على نور الله عز وجل، إنما هي في هذه البيوت لا في غيرها، فمن أراد الخلاص من الظلام فما عليه إلا التوجه إلى دار فاطمة عليها السلام.

على أن هذا المشهد يذكرني بوقوف رسول الله ﷺ على باب دار فاطمة عليها السلام، ليسلم عليها بقوله:

(.. السلام عليكم أهل بيت النبوة وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، أتأذنون لمحمد بالدخول، فتقول الزهراء: أبتاه.. (أو أبي)، البيت بيتك والكريمة كريمتك، فيقول في جوابها: إبنتي فاطمة إن ربي أمرني أن أستأذن..)

لذلك يأتي أحد الشعراء فيصور هذا المعنى الدقيق بقوله:

(١) النور/٣٦.



يا باب فاطم لا طرقت بخيفة ويد الهدى سدلت عليك حجابا
نفسي فداك أما علمت بفاطم وقضت وراك تناشد الأصحابا
أما رقت لضعها لما انحنى كسراً وعنه تزجر الخطابا
أفهل درى المسمار يوم أصابها في قلبها قلب النبي أصابا
عتبي على الأعتاب أسقط محسن فيها وما انهالت لذاك ترابا

ويقول آخر وهو سليم بن قيس، عندما وجه سؤالاً إلى سلمان
الفارسي -المحمدي- يسأله فيه عن هجوم القوم على دار الزهراء
وأحراق بيتها وإسقاط جنينها بعد كسر ضلعها في تلکم المداهمة التي
اشترك وشارك فيها أكثر من ثلاثمائة رجل من الدهماء والمنافقين
والأعراب، الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم، وهم الذين لم يرد الله
ليطهرهم ولا ليهديهم سبيل الحق أبداً، لأنهم عرفوا الحق أبداً، لأنهم
عرفوا الحق وعرفوا أهله، ولكنهم مع ذلك كله تراهم بدل أن يدافعوا
عن أهل البيت عليه السلام، هاجموهم وأشعلوا النار في الحطب في باب
فاطمة الزهراء عليها السلام:

قال سليم قلت يا سلمان هل دخلوا ولم يك استئذان
فقال إي وعزة الجبار ليس علي الزهراء من خمار
لكنها لا ذت وراء الباب رعاية للستر والحجاب
فمذ رأوها عصروها عصرة كادت بنفسي أن تموت حسرة
تصيح أيا فضة أسنديني فقد وربي أسقطوا جنيني
وأسقطت بنت الهدى واحزنا جنينها ذاك المسمى محسناً

الحديث الثالث عن العباس بن هلال قال:

سألت الإمام الرضا عليه السلام عن قول الله عز وجل ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فقال: هادي لأهل السموات، وهادي لأهل الأرض، وفي رواية البرقي: هدى من في السموات وهدى من في الأرض. ^(١)

وبالتأمل لهذا الحديث تظهر ثلاث نقاط لا يستهان بها في عالم الفكر والعلم والأدب، وأولها:

أن الواحد منا إذا خرج فراسخ عديدة يقطعها في سفر، فإنه يحتاج إلى دليل يدلّه على الطريق، ونحن بطرق السماء أجهل منا بطرق الأرض، فينفي أن يكون لنا دليل يدلنا على الطريق، يقول الإمام الباقر عليه السلام في هذا المضممار لأحد فقهاء البصرة من الذين لا يؤمنون بآيات الله: (يخرج أحدكم فراسخ عدة، فيبتغي لنفسه دليلاً يدلّه على الطريق، وأنت بطرق السماء أجهل منك بطرق الأرض، فابتغي لنفسك دليلاً يدلّك على طرق السماء- وهذا مضمون الحديث-)

لأن الإنسان كما يحتاج إلى غذاء لبدنه، فإنه بنفس النسبة وأكثر يحتاج إلى غذاء لروحه وعقله وقلبه وهذه كلها مرتبطة بالسماء، وعلى الإنسان أن يأخذ غذاء روحه من مصدره الصحيح، حتى ورد في تزويل قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ^(٢).

أي فليُنظر إلى علمه الذي يأخذه عمن يأخذه، وهذا هو الواقع الذي ليس عليه غبار ولا ضباب، إذ الناس في العادة، يظهرون الاهتمام

(١) كتاب التوحيد للشيخ الصدوق ص ١٥٥ ج ١ ب ١٥، كذلك في تفسير نور الثقلين.

(٢) عبس/٢٤.

بطعام الأبدان أكثر من اهتمامهم بطعام الأرواح، وهذه هي المأساة في التربية والآداب، وفي هذا المجال يقول الإمام الحسن عليه السلام: (عجبت لم يتفكر في مأكوله، ولا يتفكر في معقوله، فيجنب بطنه ما يؤذيه، ويودع عقله ما يرديه).

بمعنى أن الانحراف الذي يصيب البدن بفعل فساد الطعام، يمكن معالجته وإرجاع البدن إلى وضعه الطبيعي، في حين أن الانحراف الذي يصيب العقل بفعل الفكر الهدام، والعقائد الفاسدة المنحرفة، ليس في الإمكان علاجه ولا في مقدور أحد معالجته، إلا بإعلان التوبة والإقلاع عن هذا الزاد الذي له طعم شجرة الزقوم، وبالعودة إلى الأخذ بمناهج الحق والعدل والحرية، والتمسك بولاية علي أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، ومن هنا كانت الخطورة ترتفع درجتها أكثر فأكثر.

والنقطة الثانية في هذا الحديث، تتمثل في أن الهداية هي النور الذي يضيء أعماق الإنسان وينير مشاعره وعقله وقلبه على أن إنارة القلوب والأراح أوجب من إنارة البيوت والأكواخ والقصور، وإلا فما قيمة البيوت المضيئة أو المضياء، إذا كانت القلوب خاوية على عروشها من العمى في هذا المجال، فالأمر يصبح أشبه بقصر فيه كل ما تحتاجه الحياة الطيبة، غير أن صاحب القصر رجل أحمق..

أو قل:

في مثال آخر، فإن القضية هذه تشبه مهداً جميلاً يختطف الأبصار بجماله وحريره وديباجه، بينما الطفل الذي يرقد فيه طفل مشلول...



فما هي قيمة هذا المهد الجميل إذا كان في داخله طفل مشلول قد سلبه الشلل كل ضحكات الطفولة، وبراءتها وصفاءها؟؟؟

أجل إن الإنسان الذي يبدي اهتماماً بالمظهر دون المخبر، وبالعلانية دون السريرة، فهو إنسان لا يستحق حتى ولا ذرة واحدة من الاحترام.

من هنا جاء التركيز على هذا الجانب بالذات أن تكون الهداية عامة وشاملة لأهل السموات والأرض، وإذا كانت الهداية واردة ومحفوظة في هذه الآية الكريمة، فإنها -من المؤكد- لا تظهر وحدها للملأ، بل لا بد لها من شخصية وهي الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليه، لأنها هي مشكاة فيها نور الله جل جلاله، لهداية أهل السموات وأهل الأرض، ولعلك تستغرب هذا القول: لهداية أهل السموات، فتقول:

.. وهل في السماء أهل ضلال، حتى يكونوا في حاجة إلى الهداية، وأجيبك في كل محبة وإخلاص..

بأن الملائكة كانوا في ظلمة قد غطتهم بسوادها حتى ضجوا إلى الله منها، فما كان من الله تعالى إلا أن أطلق على السموات نور فاطمة، فأضاءت الكون كله بنورها، وحين سألت الملائكة ربها عن سر هذا النور؟؟؟

أجابهم الحق: إنه نور فاطمة، نور المنصورة في السماء والأرض.. وكانت من أسمائها الزهراء روي فداها.

إذن: فالهداية في الحديث إنما هي نور فاطمة عليها السلام، لأن الله يهدي ولكنه يهدي بالأسباب التي هو خلقها لتكون للعالمين هادية.



بقيت النقطة الثالثة التي ظهرت في رحلة التأمل في هذا الحديث وهي:

إن الهداية في مقابل الضلال، والله تبارك وتعالى لا يضل المؤمنين كما أنه لا يهدي الظالمين، ولا الكافرين ولا الفاسقين، يقول تعالى في ذلك المعنى:

﴿... وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ...﴾^(١).

﴿... وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ...﴾^(٢).

﴿... وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ...﴾^(٣).

في حين أنه يقول في آية أخرى..

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾^(٤).

إذن: فالظالم والكافر والفاسق، هؤلاء أخرجهم الظلم والكفر والفسق، من ظل هداية الله، إلى عذاب الضلال البعيد.

على أن هناك ملاحظة جديرة بالاهتمام وهي كون الهداية، إنما جاءت لأهل السماء والأرض، لأنها جعلت أهل الأرض الذين اهتدوا أشبه شيء بالملائكة بل أعظم درجة من الملائكة، لأنهم مؤمنون حقاً بالولاية الكاملة..

(١) التوبة/ ١٩.

(٢) التوبة/ ٣٧.

(٣) المائدة/ ١٠٨، التوبة/ ٨٠، الصف/ ٥.

(٤) محمد/ ١٧.



قال تعالى...

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾^(١).

ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(٢).

ويقول عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

وفي آية العمل تقول الآية الكريمة. ﴿وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾^(٤).

وإنما ذكرت لكم هذه الآيات الكريمة، لأن فيها دلالة علي الشهادة الثالثة أي ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، بخلاف ما يقوله البعض من أن الإسلام هو الشهادتان فقط، وهذا صحيح إلى حد ما، ولكنه غير صحيح في الشكل والأساس والتفصيل، وذلك أن الشهادتين إنما جاءتا لحفظ الناس في معاملاتهم وحفظ دمائهم وأعراضهم، ليس أكثر من ذلك، أي أن الشهادتين للمعرفة بين الناس والشعوب، لا لتوضيح المؤمن من غيره، وذلك أن الإيمان لا يتحقق إلا بالشهادة الثالثة.. (أشهد أن علياً ولي الله..).

(١) المائدة/٥٥.

(٢) النساء/٥٩.

(٣) المنافقون/٨.

(٤) التوبة/١٠٥.

ولذلك لما قالت الأعراب.. آمنا... جاء الرد عليهم بأنكم لم تصلوا إلى درجة الإيمان، فأنتم على غير ولاية الإمام علي عليه السلام، ما دمتم كذلك أيها الأعراب، فاكتفوا بأنكم مسلمون، وقولوا أسلمنا ولا تقولوا آمنا، لأن الإيمان لم يدخل إلى الآن في قلوبكم، لأن علاقة الإيمان هو حب الإيمان والولاية، والإيمان هو الإمام علي عليه السلام، يدل على ذلك قول المصطفى صلى الله عليه وآله يوم الخندق حين قال: (برز الإيمان كله إلى الشرك كله..).

قال ذلك يوم برز الإمام علي عليه السلام، لعمر بن عبد ود العامري، الذي كان يرتجز ويقول: (ولقد بححت من النداء في جمعكم.. هل من مبارز؟).. وجاء صوت أمير المؤمنين عليه السلام يصك سمعه قائلاً:

(.. لا تعجلن فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجز.. إني لأرجو أن أقيم عليك نائحة الجنائز.. من ضربة نجلاء يبقى ذكرها عند الهزاهز..).

وبالفعل فقد انتصر الإسلام بسيف أمير المؤمنين عليه السلام، يوم قتل عدو الله وانهزمت الأحزاب وكفى الله المؤمنين القتال.. كما في سورة الأحزاب، حيث تبدو القصة واضحة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

هذا كل ما أردت إيراده في هذه العجالة، لتبين النقاط الثلاث التي ذكرتها هنا من خلال تأملاتي في هذا الحديث الثالث.

أما الحديث الرابع في تفسير وتأويل آية النور الكريمة هذه، فهو التالي: (.. روي عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه سئل عن قول الله عز وجل.. ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ فقال: هو مثل ضربه الله لنا، فالنبي والأئمة صلوات الله عليهم من دلالات الله



وآياته التي يهتدي بها إلى التوحيد، ومصالح الدين وشرائع الإسلام،
والسنن والفرائض، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..^(١)

نعم هو مثل ضربه الله لأهل البيت عليهم السلام، فالنبي والأئمة صلوات الله عليهم من دلالات الله وآياته التي يهتدي بها العالم والناس والخلق كافة إلى توحيد الله عز وجل، إذ القضية من دونهم لا تعرف أبداً، فإنهم هم سفينة نوح، وهم باب حطة الذي من دخله كان آمناً، وهم خزان وحي الله، ومعادن علمه، لا يسبقهم أحد في هذا المضمار، وفي كل مجال، فقد أكدوا أنهم المصطفون، وهم الذي اختارهم الله ليكونوا هداةً للخلق يخرجونهم من الظلمات إلى النور..

فقد سئل أحد الصادقين عليه السلام وأظنه الإمام الجواد عليه السلام: ما الدليل على إنكم أفضل خلق الله؟ فقال: (انقل لكم مضمون الحديث لا نصه..) "إن الناس يحتاجوننا في حين إننا لا نحتاج إلى أحد".

وهذا أكبر دليل وبرهان على أنهم أفضل الناس طراً ومن دون أدنى شك، وهذا هو الواقع الذي ليس عليه غبار.

إذن: فآية النور مثل ضربه الله لمحمد وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين، فإذا قلنا أن فاطمة عليها السلام هي المشكاة، أو أن الآية تشير إلى صدر النبي وقلبه، ففاطمة عليها السلام هي قلب النبي ومهجته وبضعته، بل هي روحه التي بين جنبيه، وكل ذلك يؤكد أن الآية تريد فاطمة الزهراء عليها السلام، وإن جاءت الأحاديث بصور متعددة ومختلفة في الأسلوب لا في الجوهر، لأن الجوهر واحد، ليس فيه تعدد، ولا اختلاف، ثم إن

(١) كتاب التوحيد - ص ١٥٧ ب ١٥ ح ٢.



الحديث يقول: إن أهل البيت عليه السلام هم من دلالات وآياته، وهذا هو الحق الذي لا شك فيه، فهم الأدلاء على الله، بمعنى أنهم الدليل إلى الله ورضوانه والتقرب منه،.. فمن أراد الله بدأ بكم يا سادتي..

على أن هناك لفظة فكرية تجدر الإشارة إليها، وهي أن فاطمة الزهراء عليها السلام، إنما كانت ميزانا لغضب الله ورضاه، لأنها معصومة ولأنها بنت النبوة، وأم الإمامة، بل لأن النبوة والإمامة، لا يحققان هدفهما إلا بفاطمة الزهراء عليها السلام، ويكفي دليلاً على ذلك أن النبوة لا تكتمل أهدافها إلا بالإمامة التي هي كمال الدين وإكمال العقيدة..

قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾. (١)

وفاطمة الزهراء عليها السلام هي العرش العظيم الذي يربط النبوة بالإمامة، ويشد الإمامة إلى هدى النبوة، كما نرى ذلك واضحاً في آية المباهلة والطريقة التي خرج بها النبي وأهل بيته إلى الابتهاال، مع النصاري حيث كلنا يعرف أين كان موقع الزهراء عليها السلام ومنزلتها بعد النبوة وقبل الإمامة، فهي التي قال عنها النبي والأئمة الطاهرون..

(.. أنه لو لم يخلق الله أمير المؤمنين لما كان لفاطمة كفوٌ على وجه الأرض من آدم فمن دونه).

أي أنه حتى لو كان رجال في مستوى إبراهيم الخليل لما استطاع أحد منهم أن يتزوج فاطمة عليها السلام لا بسبب النسب، وإن إبراهيم ليس وارداً في ذلك، لأنها ابنته فهذا أمر واضح، ولكن المسألة تتلخص في

(١) المائدة/٣.

انعدام الكفو لفاطمة، لأنها أرفع مقاماً من كل الأنبياء والرسل باستثناء أبيها رسول الله ﷺ، بل أكثر من ذلك، فقد أكدت الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام بهذا الخصوص، أن فاطمة عليها السلام كانت مفروضة الطاعة على كل الأنبياء والرسل، أي أن الله أخذ الميثاق والعهد على الأنبياء كافة، كما في آية (٨٠-٨١) في سورة آل عمران، والتي أخذ الميثاق على الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ وينصروه حتى أقرؤا بذلك وشهدوا، وقال الله تعالى: ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾^(١).

أقول: إن الله أخذ الميثاق على الأنبياء في طاعة فاطمة الزهراء عليها السلام، وهذا يبين أن لها وجوداً وحضوراً في تلكم الأوقات والعصور قبل ولادتها في الشكل المعهود، والمألوف في الطبيعة والحياة، فهي روح النبي وروح النبي أفضل من أرواح الأنبياء، وهي قلب النبي ومهجته، وقلبه ومهجته أفضل من قلوب الأنبياء ومهجهم، كما أنها بضعة النبي الهادي، وبضعته أفضل من الأنبياء لأنها مثل النبي إلا أنها ليست أفضل من أبيها بل هي في مستوى أبيها وبعلاها، وهي أفضل من أبنائها الأئمة عليهم الصلاة والسلام.

على أن الذي يتأمل في أقوال النبي وأحاديثه حول الزهراء عليها السلام، وكيف يصفها بأنها قلبه ومهجته تارة، ومرة يصفها بأنها روحه التي بين جنبيه، وخصوصاً إذا أضاف المتأمل إلى هذه الأحاديث أحاديثاً أخرى، تتحدث عن إنها أول شخص يدخل الجنة في الآخرة، يدرك على الفور، ما لفاطمة من مقام عظيم ومنزلة كبرى عند الله عز وجل، وصدق الرسول ﷺ حين قال: (.. إن ابنتي فاطمة حوراء إنسية، وإنما سميت فاطمة لأن الخلق فطموا من معرفتها..).

(١) آل عمران/٨١.

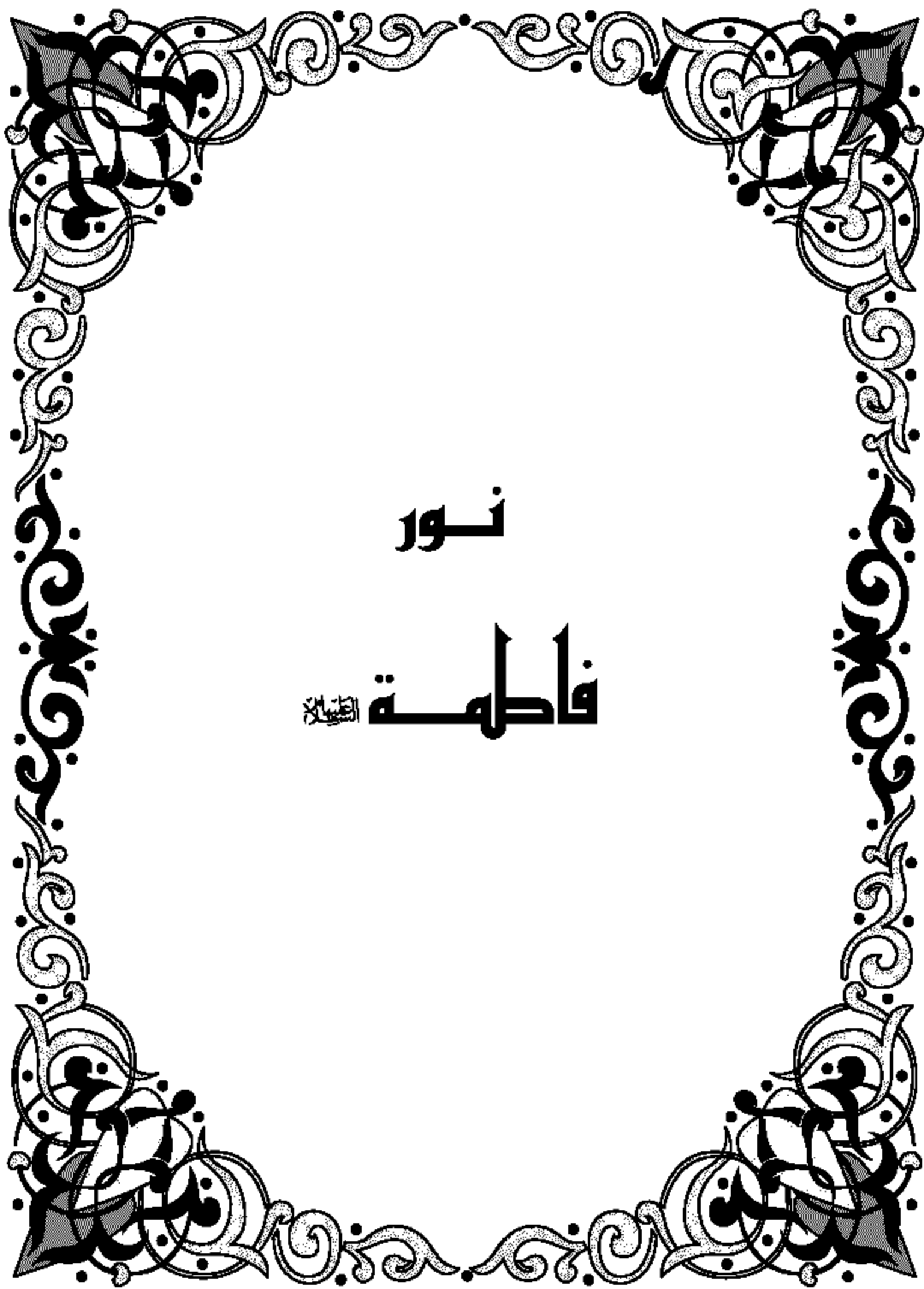


بل إن معرفتها حق المعرفة لتدل على إدراك ليلة القدر، لأنها هي الليلة المباركة التي فرق الله فيها كل أمر حكيم، فهي ليلة القدر، وهي الليلة المباركة، وهي الصديقة الكبرى التي على معرفتها دارت القرون الأولى، وهذا هو قول أبي عبدالله الصادق عليه السلام في هذا الخصوص.

وقبل الدخول في رحاب الحديث الخامس الذي ورد في تفسير وتأويل آية النور، أود أن أقدم ملاحظة قصيرة لهذا الحديث، بعنوان (فاطمة في القرآن)، لأنه عنوان كبير يحتوي على كل آيات القرآن الحكيم، إذ أنه ما في آية في القرآن -إذا فسرت تفسيراً صحيحاً علمياً يعتمد على مدرسة أهل البيت عليهم السلام، ثم أضيف إليها مجال التأويل - إلا وأوضحت مقام فاطمة الزهراء ومنزلتها، وأن العلم والإيمان والتقوى ما هي إلا مفردات يعتمد تحققها واكتمالها على معرفة فاطمة عليها السلام ومودتها ونصرتها بالقلب واليد واللسان، وهذا هو الإيمان الذي لا يتم إلا بنور فاطمة عليها السلام، على أن النور كما ذكرنا -له خصوصية التأثير والفاعلية، فهو لا يتأثر بالظلام، ولكنه يؤثر ويهزم فلول الظلام بكرة وأصيلاً في الجملة والتفصيل.. وقديماً قيل: إن الشمعة الواحدة لا يستطيع ظلام العالم أن يطفئها أبداً، فما بالكم بمشكاة تضمنت كل نور الله العظيم في عالم الإمكان والوجود؟

إنه نور فاطمة الذي لا ينطفئ.. تقول الحوراء زينب ابنة فاطمة - في مجلس يزيد- موجهة خطابها إليها، كاشفة عن المؤامرة التي قادتها الشجرة الملعونة في القرآن الكريم، وهم بنو أمية..

(.. فوالله لا تمحو ذكرنا ولا تمت وحيناً، وهل رأيك إلا فند، وجمعك إلا بدد، وأيامك إلا عدد، يوم ينادي المنادي ألا لعنة الله على الظالمين، فكذ كيدك، وناصب جهدك.. الخ).



نور

فاطمة

فاطمة في القرآن

فاطمة في القرآن.. عنوان يحتوي على كثير من الآيات التي نزلت في الزهراء عليها السلام تفسيراً وتأويلاً علماً بأن الزهراء هي القرآن الناطق، ولكن هنا في هذا المجال نبادر إلى الآيات التي تدل ظاهرها كما يدل باطنها على خصائص وفضائل السيدة الطاهرة التي دارت علي معرفتها القرون الأولى، وهي فاطمة سيدة نساء العالمين، لنكشف بذلك بعض الحجب التي غطت وسترت مساحات واسعة من حياة فاطمة عليها السلام عن محبيها وشيعتها والناس جميعاً، وإنما حصل كل ذلك بفعل التعقيم الإعلامي البغيض الذي ضربه أعداء فاطمة عليها السلام على حياتها ليطفئوا نوراً لا ينطفئ ويدفئوا صوتاً لا ينطمس ولا ينقطع، هذا بعض ما أردت أن أذكره لكم أيها الأحبة.. وتعالوا معي آلفاً نمشي في ظلال فاطمة الزهراء عليها السلام من آية إلى آية.. ومن سورة إلى سورة في القرآن الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وحتى تكون الصورة واضحة أمامنا، فإنه لا بد من ذكر بعض المقدمات والملاحظات القصيرة التي ترد في هذا الباب بالذات:

كل شيء في الوجود له ظاهر وله باطن، والناس في العادة يكتفون بالظاهر ولا يحاولون الوصول إلى بواطن الأمور والأشياء، وذلك للنظرة المحدودة عندهم مرة، وتارة لقصر الرؤية وفتور الهمة، ومن هنا كان للقرآن تفسيراً وتأويلاً، وكان للأشياء ظاهر وباطن، وكان للإنسان بصر وبصية لرؤية الأشياء، والحقائق فهو أي الإنسان يرى ظاهر الأشياء

ببصره بنور الشمس، ويرى باطن الحقائق ببصيرته بنور الإيمان، وهذا هو الذي يأخذ القرآن بأيدينا إليه، ويفتح كنوز المعرفة أمامنا، ومن ذلك ما نقرأ في سورة البقرة من آيات تدل على فضل فاطمة عليها السلام على سائر الخلق باستثناء أبيها وبعلمها، وإلا فهي حجة الله التامة حتى على أبنائها الأئمة المعصومين، كما ورد عن الإمام العسكري عليه السلام فيقول: (نحن حجج الله وفاطمة حجة علينا..).

فنقرأ هذه الآية: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(١).

إذن: ففاطمة هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه، ولكي نعرف هذه الحقيقة فإنه لا بد لنا من التوجه إلى مدرسة أهل البيت عليهم السلام لتلقي المزيد من العلم والبيان والمعرفة في هذا المضمار، وهذا هو ما نسعى إليه بكل جهودنا عبر هذه الموسوعة الفاطمية التي أنعم الله علينا بها فله الشكر وله الحمد على توفيقه وتسديده وعنايته لهذا المشروع الفكري العظيم.

على أننا سنلقي موضوعات عديدة في هذا المجال، فله الحمد وله الشكر على كل ذلك.

وأعود بكم إلى الحديث الخامس الذي ورد في هذا المضمار والخصوص بتأويل وتفسير آية النور بفاطمة الزهراء عليها السلام، يقول الحديث المروي عن الفضيل بن يسار وهو من رجال الفقه والحديث

(١) البقرة/٣٧.

عند الإمام أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام يقول: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: (الله نور السموات والأرض..) قال: كذلك الله عز وجل، قال قلت: (مثل نوره)، قال: محمد ﷺ، قلت: (كمشكاة) قال: صدر محمد ﷺ، قلت: (فيها مصباح) قال: فيه نور العلم يعني النبوة، قلت: (المصباح في زجاجة)، قال: علم رسول الله ﷺ إلى قلب علي عليه السلام، قلت: (كأنها كوكب دري) قال: لأي شيء تقرأ كأنها؟ قلت: فكيف جعلت فداك؟

قال: (كأنه) قلت: (توقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية)، قال: ذاك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، لا يهودي ولا نصراني، قلت: (يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار) قال: يكاد العلم يخرج من فم العالم من آل محمد من قبل أن ينطق به، قلت: (نور على نور) قال: الإمام في أثر الإمام).^(١)

(١) كتاب التوحيد، ص ١٥٧، باب ١٥.



تأملات في للسورة الكوثر

تأملات في سورة الكوثر

تلكم كانت خطبتها وقد هزت زينب عروش الظالمين وأودت بالشجرة الملعونة في مكان سحيق كما تهوي الريح بأوراق الحنظل الساقطة على خبثها من العمى... لقد كشفت بطلا كريلاء زينب ابنة علي عن كل نوايا الظالمين وخططهم لضرب الإسلام وبيت الوحي، فقالت:

(فكف كيدك واسع سعيك وناصب جهدك فوالله لا تمحوا ذكرنا ولا تميت وحيانا وهل رأيك إلا فند، وجمعك إلا بدد، وأيامك إلا عدد، يوم ينادي المنادي ألا لعنة الله على الظالمين).

ولاعجب في هذه القوة لدى الحوار زينب عليها السلام فهي التي اخبرت الإمام السجاد عليه السلام يوم الحادي عشر من المحرم وهم سبايا على أقتاب الجمال بغير وطاء، حيث أخبرته بحديث كريلاء الذي نقلته عن جدها النبي وأبيها الوصي، أن الله تعالى سيهياً لصاحب هذا الطف رجلاً أشداء لا تأخذهم في الله لومة لائم وسيُنصبون علماً ولواءاً على قبر الحسين عليه السلام.

لا يمحى أثره ولا يستطيع أحد من طغاة الظلم وفجرة الكفر والنفاق على محوه وتطميسه، بل أن أمر قبر الحسين سيرتفع يوماً بعد يوم رغم الجهود التي سبذلها الطغاة في هدم معالم هذا القبر ومنع الناس من زيارته بل قتلهم وترويعهم كما هي الأمور ثابتة إلى هذا اليوم وجارية هنا وهناك لأن الكفر والظلم أمة واحدة اتفقت كلمتهم- رغم

تبيان مشاربهم وأفكارهم واختلاف أصولهم- على ضرب الحق أينما وجد، وحيثما كان:-

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (١)
﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٢).

غير أنهم أعجز من ذلك وأضعف.. فالله عز وجل قد وضع منهجاً وسنناً لانتصار الحق على الباطل وانتصار الصدق على الكذب لا يمكن أن تتبدل أبداً بأي شكل من الأشكال.

على أن الأحاديث الواردة عن الصادقين تؤكد هذا المعنى بشكل لا يقبل الشك ولا يرغب بالنقاش وخذ على سبيل المثال هذا الحديث الذي أنقله لكم من كتاب تحف العقول وهو المروي عن النبي ﷺ وبيّن فيه انتصار الحق على الباطل- كحتمية تاريخية ليس عليها غبار ولا فيها لبس أبداً.. واقروا معي هذا الحديث الذي أودعه الله في قلوب المخلصين من شيعة أهل البيت عليهم السلام ولا أظن مسلماً إلا وهو شيعي لأهل البيت لأن حبهم فريضة في أعناق الكل، وحبهم ومودتهم هي أجر الرسالة ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ (٣).

فالمسلم الحق إنما هو شيعة لمحمد وأهل بيته، إما أن يوالي القتلة والفجرة من أهل الكفر والنفاق من الشجرة الملعونة في القرآن- كما

(١) الصف/٨.

(٢) التوبة/٣٣.

(٣) الشورى/٢٣.



نصت واجمعت كتب الحديث والتفسير على أن الشجرة الملعونة في القرآن إنما هم بنو أمية ويتبعهم بنو المغيرة وآل زياد وآل مروان، علماً أن هؤلاء كلهم من بني أمية- أقول: إما أن يظهر مسلم موالياً لهؤلاء قتلة أبناء الأنبياء الذين رفعوا رأس الحسين فوق الرماح ومزقوا شلوه وبدنه الطاهر بشباب الصفاح ويزعم - مع هذا كله- أنه مسلم يتوجه الى الكعبة ويستقبل القبلة في أوقات الصلاة، فلا أظن الكعبة تقبله ولا الله ينظر اليه ولا يزكيه وله عذاب أليم، لأن من أحب قوماً حشر معهم، ومن أحب عمل قوم أشرك في عملهم، كما قال جابر بن عبد الله الأنصاري ناقل هذا الحديث النبوي الشريف: إن نيتي ونية أصحابي على ما مضى عليه الحسين وأصحابه.

أقول: انقل لكم حديثاً يبين كيفية الانتصار في النهاية للحق وأهله على الباطل وأصحابه.

والحديث هذا إنما هو من كلام ألقاه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على رجل يقال له شمعون بن لاوي من حوارى عيسى بن مريم عليه السلام فكان من جملة كلامه لشمعون أن قال:

(يا شمعون أن لك أعداء يطلبونك ويقاقلونك ليسلبوا دينك من الجن والإنس، فأما الذين من الإنس لا خلاق لهم في الآخرة ولا رغبة لهم فيما عند الله إنما همهم تعيير الناس بأعمالهم، لا يعيرون أنفسهم ولا يحاذرون أعمالهم، إن رأوك صالحاً حسدوك وقالوا: مرء، وإن رأوك فاسداً قالوا: لا خير فيه. وأما أعداؤك من الجن فابليس وجنوده، فإذا أتاك فقال: مات ابنك، فقل إنما خلق الأحياء ليموتوا وقدخل بضعة مني الجنة، إنه ليسرني، فإذا أتاك وقال: قد ذهب مالك،



فقل الحمد لله الذي أعطى وأخذ وأذهب عني الزكاة، فلا زكاة عليّ، وإذا أتاك وقال لك: الناس يظلمونك وأنت لاتظلم، فقل: إنما السبيل يوم القيامة على الذين يظلمون الناس ﴿وما على المحسنين من سبيل﴾، وإذا أتاك وقال لك: ما أكثر إحسانك يريد أن يدخلك العجب، فقل إساءتي أكثر من إحساني، وإذا أتاك وقال لك: ما أكثر صلاتك، فقل غفلتي أكثر من صلاتي، وإذا قال لك: كم تعطي الناس، فقل: ما أخذ أكثر مما أعطى، وإذا قال لك: ما أكثر من يظلمك، فقل: من ظلمته أكثر، وإذا أتاك وقال لك كم تعمل، فقل: طال ما عصيت، وإذا أتاك وقال لك: اشرب الشراب، فقل لا ارتكب المعصية، وإذا أتاك وقال لك: ألا تحب الدنيا؟ فقل: ما أحبها وقد اغتربها غيري.

يا شمعون خالط الأبرار واتبع النبيين: يعقوب ويوسف وداوود. أن الله تبارك وتعالى لما خلق السفلى فخرت وذخرت وقال: أي شيء يغلبني؟ فخلق الله الأرض فسطحها على ظهرها فذلت، ثم إن الأرض فخرت وقالت: أي شيء يغلبني؟ فخلق الله الجبال فأثبتها على ظهرها أوتاداً من أن تميد بما عليها، فذلت الأرض واستقرت ثم إن الجبال فخرت على الأرض، فشمنت واستطالت وقالت: أي شيء يغلبني؟ فخلق الحديد فقطعها، فذلت، ثم أن الحديد فخر على الجاب وقال: أي شيء يغلبني؟ فخلق الله النار، فأذاب الحديد، فذل الحديد، ثم أن النار زفرت وشهقت وفخرت وقالت: أي شيء يغلبني؟ فخلق الماء فاطفأها فذلت، ثم إن الماء فخر وذخر، وقال: أي شيء يغلبني؟ فخلق الريح فحركت أمواجه وأثارت مافي قعره وحبسته عن مجاريه، فذل الماء، ثم إن الريح فخرت وعصفت وقالت: أي شيء يغلبني؟ فخلق الإنسان فبنى



واحتال ما يستتر به من الريح وغيرها فذلت الريح، ثم إن الإنسان طغى وقال: من أشد مني قوة؟ فخلق الموت فقهره فذل الإنسان، ثم إن الموت فخر في نفسه فقال الله عز وجل: لا تفخر فإني ذابحك بين الفريقين: أهل الجنة وأهل النار، ثم لا أحييك أبداً فخاف الموت... ثم قال: والحلم يغلب الغضب والرحمة تغلب السخط، والصدقة تغلب الخطيئة).^(١)

على أن قراءة متأنية لهذا الحديث العظيم تكفي لاعطائنا ألف دليل ودليل على انتصار الحق على الباطل، وانتصار الإيمان على الكفر لأن الرسول ﷺ كان قد تدرج في هذا الحديث من الكلمات الى المعاني، ومن المحسوسات الى المعقولات، ومن قوانين المادة وسنن الطبيعة الى قوانين الروح وسنن الغيب، فكمانجد في عالم الطبيعة والمادة انتصار الأشياء الأشد قوة على الأشياء الأشد ضعفاً أو التي لاقوة لها في مقابل قوة جديدة تترك عليها نزول القدر والصاعقة، كذلك نجد في عالم الغيب والأرواح والمعاني انتصار الأقوى على الأضعف، فالحسنات -مثلاً- يذهبن السيئات، لماذا؟ لأن الحسنات أقوى من السيئات، هذه لها جذور وأصول أعني الحسنات في حين أن السيئات لاجذور لها ولا أصول فتضربها فتهدم بنيانها القائم على غير أساس، أشبه شيء بالشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة التي ضرب الله بها مثلاً للعلم النافع والعلم الضار، للكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة في هذا المجال بالذات، حيث يقول الحق سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ

(١) تحف العقول ص ٢٤.

اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمِثْلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ
مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ (١).

والعلة في اتخاذ الشجرة مثلاً للكلمة هي: أن الشجرة فيها غذاء
للأبدان، والكلمة فيها غذاء للعقول والأرواح، فكما أن البدن يتغذى
بالشجر، كذلك العقل يتغذى بالعلم، والروح تتغذى بالكلمة، ومن هنا
كانت خطورة الموقف تقتضي المواصلة في فهم واستيعاب مثل هذه
الأمثلة التي تهز الأفكار وتثير دفائن العقول وتحرك المشاعر في النفس
والخشوع في القلب وتعطي صورة حية لمعنى العلم في الإسلام وفي
مدرسة أهل البيت عليهم الصلاة والسلام.

فكما أن الشجرة تغذي الأبدان، كذلك الكلمة تغذي العقول، والعقول
أكثر خطراً من الأبدان، وكذلك الروح أعظم شأناً عند الله من البدن،
وإذا كان ذلك كذلك وهو الحق فكيف ترضى عقولنا أن يكون مصدر
الغذاء البدن معصوماً لا يخطأ وهو الشجر وضروع الأنعام وكل مصادر
الطاقة البدنية في الكون فإننا لانجد فيها خطأً ولا انحرافاً حتى ولو
بمقدار ذرة واحدة.

أقول: كيف تقبل عقولنا هذه الحقيقة في الوقت الذي نرضى أن
نأخذ الغذاء - العلم والمعرفة - لعقولنا من مصادر غير معصومة، من
أناس يمارسون الذنوب والمعاصي، ويركبون الخطايا، ويتعاطون الكبائر
من هتك الحرمات وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ونحن نعرف

(١) إبراهيم/ ٢٤-٢٧.



أن من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً.

أقول: إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين، وأن الله تبارك وتعالى يأبى إلا أن يقدم العلم للعقول من أهل البيت قد أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وهم معصومون مطهرون نقيات ثيابهم تجري الصلاة عليهم أينما ذكروا.

وفي هذا أكبر دليل على العصمة وأن أهل البيت معصومون من الزلل والخطل، كما قالت الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها: أيها الناس اعلموا أني فاطمة وأبي محمد عليهما السلام أقول حقاً عوداً وبدواً ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً، لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤؤف رحيم الخ.

وهذا هو المعنى الواضح للعصمة بعيداً عن أبحاث الفلسفة العقيدة التي لا تؤدي إلى نتيجة ملموسة وثمره مهضومة وإنما تزيد الناس حيرة فوق حيرتهم وبعداً فوق بعدهم، في حين أن التوجه إلى مدرسة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها كما كان كبار الصحابة - أمثال جابر وعمار وسلمان والمقداد وأبي ذر - يقصدون بيتها للتزود من علمها ونورها وخيرها العظيم.

أقول: التوجه إلى بيت فاطمة يزيل الهم والحزن ويعالج الضعف في أي مجال في الحياة فقد رأينا في حديث الكساء الذي يرويه أهل البيت عن فاطمة عليها السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله حينما وجد في بدنه ضعفاً أسرع إلى بيت فاطمة عليها السلام لأن في بيتها قوة لمعالجة الضعف في كل

جوانب الحياة، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ
وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (١).

هذا هو الحق، فإن الأسوة تقتضي أن يتوجه العالم كله بقلبه وسمعه
وعقله وبصره ومشاعره الى بيت فاطمة ذلكم البيت الذي أذن الله إن
يرفع ويذكر فيه اسمه حتى غدا العرش سقفاً له، والجنة على عظمته
بعض جوانبه وما أقول إلا الحق لأن الذي يعرف هذا البيت كما ذكره
الله عز وجل في سورة النور بقوله: ﴿فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا
اسْمُهُ﴾ (٢).

أقول: الذي يعرف عظمة هذا البيت يدرك أن كل الكلام يظل عاجزاً
عن التعبير عما يكنه الحق لهذا البيت من أعظام واجلال واكبار.

من كل ماتقدم من حديث ورواية وكلمات تدفقت فوق هذه الأوراق
المستريحة في هذا الكتاب إنما هو خير دليل وبرهان على انتصار الحق
على الباطل، والنور على الظلام والصلاة على الارتداد، وقد أشار النبي
ﷺ الى هذه الحقيقة في آخر حديثه مع شمعون الراهب الي مر علينا
قبل قليل في هذا الباب حيث أخبره كما في عالم الماديات والطبيعة
كذلك في عالم المعاني والغيب حيث الغلبة للقوي على الضعيف بهذه
الموازن وتلك المعايير وليس بغيرها لأنه بغيرها نجد:

﴿وَكَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (٣).

(١) الأحزاب/٢١.

(٢) النور/٣٦.

(٣) البقرة/٢٤٩.



وهذا معناه أن هذه الفئة القليلة إنما هي تختزن قوة وتكتتر هيبة تجعلها قادرة على الانتصار والحق الهزيمة بالعدو في كل زمان ومكان. لذلك قال النبي ﷺ وهو معرض كلامه يتحدث فيه عن غلبة الأشياء الأشد على الأخرى الأضعف، قال: والرحمة تغلب الغضب، والصدقة تغلب الخطيئة... وتأملوا في هذا الباب حيث يمكن لنا أن نفتح ألف باب وباب من هذا الحديث فنقول وبالله التوفيق:

واليقين يغلب الشك، والحق يغلب الباطل، والصدق يغلب الكذب، والعفة تغلب التهلكة، والحياء يغلب الشهوة، وهكذا قل في كل شيء يقابله ضد له، ولا سيما في جنود العقل وجنود الجهل حيث تغلب جنود العقل جنود الجهل، كما يبعث الله الحق على الباطل فيدقفه أي يضربه على دماغه، على قمة رأسه وهي ضربة موجعة ومدوخة تترك المضروب كأنه مصروع يتخبط في حيرته وهزيمته التي كان يؤمل أن يرى غيره فيها، فوقع هو ذاته في هذا البئر العميق أو العميقة - كذلك - نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق.

وفي كلمة لأمير المؤمنين علي عليه السلام يقول فيها - في هذا المضمار:-
(وأيم الله لأبقرن الباطل بقراً حتى أخرج الحق من خاصرته وإن كان كارهاً).

وهذا هو الحق الذي لا غبار عليه ولا حتى ذرة من الشك لكل إنسان حر واع يرى الحقائق بعينه ويتأملها بعقله، ويحبها بقلبه فيندفع منطلقاً في طريق الجهاد مدافعاً وعارفاً على يقين من ربه عارفاً أنه لا يضطهد من آوى إلى ظل كنف الله عز وجل ، ولن تفرع الحوادث من لجأ إلى مأوى الحق إلى بيت فاطمة الزهراء عليها السلام كما صنع الحبيب

المصطفى محمد ﷺ حيث ذهب الى دار فاطمة لتتجلي عنه الهموم والأحزان فكان حديث الكساء حديثاً جامعاً لكل معالم الحق وأصول الدين والعقيدة.

على أن هذا الأمر يجعلنا على مقربة من فهم عميق لسورة الكوثر وأن السورة إنما عنت فاطمة الزهراء عليها السلام ولم تكن غيرها لأنها نزلت في معرض كلام الكفار الذي تفوح منه رائحة الحق والزيغ والشماتة يوم مات ابراهيم ابن النبي فقالوا: إن محمد ابتر لأذرية له يقومون مقامه بعد وفاته ورحيله، فتألم النبي من كلامهم حيث كان العاص بن وائل السهمي - والد عمرو بن العاص مستشار معاوية في المكر والخديعة والحرب وهتك الحرمات كما يشهد بذلك تاريخ هذا الرجل والذي يقرأ تاريخ عمرو بن العاص يدرك كم هو الأذى كبيراً الذي سببه للنبي وأهل بيته، ومن لا يرى في تاريخه شيئاً من هذا فهو أعمى قلب وأعمى بصيرة ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً... ونسمع الكافر يوم الحشر يتساءل عن سبب عماء وقد كان بصيراً في الدنيا فيأتيه الجواب أن آياتي أتتك فكذبت بها فأصبحت أعمى لأنك أغلقت قلبك وبصرك وسمعتك عن الحق فكنت أعمى كما أنت في دار الدنيا: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١).

أقول: نزلت هذه السورة - سورة الكوثر - حينما حزن النبي من كلام

(١) طه/١٢٤-١٢٦.



العاص بن وائل السهمي الذي قاله في النبي ﷺ واتهمه فيه بأنه أوتر لأذرية له، فترك الوحي بهذه السورة العجيبة التي ظاهرها انيق وباطنها عميق وهي تتحدث عن انتصار الحق وامتداد نور النبي وذرتة في كل الآفاق، في حين أن أعداؤه وخصومه وشائثيه لا امتداد لفكرهم ولا بقاء لأقوالهم ورعونتهم، وإنما هو الحق وماذا بعد الحق إلا الضلال... فكان الله عز وجل أجاب حبيبه المصطفى بالصديقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام حيث هي أم أبيها ومصدر ذرية النبي لأن الله جعل ذرية كل نبي من صلبه وجعل ذرية المصطفى محمد من صلب علي وفاطمة عليهما السلام، حتى صار الحسن والحسين والمحسن وزينب وأم كلثوم أبناء رسول الله ﷺ وما قصة المباهلة إلا أكبر دليل وأعظم برهان على أن أبناء فاطمة هم أبناء النبي لأنه في كلام صريح وواضح جاء التأكيد على أن الحسن والحسين أبناء النبي كما ظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (١).

وهذا هو الذي ينفرد به أهل البيت دون غيرهم، لأنهم هم الصادقون ومن يحاربهم ويقف ضدهم إنما هو من الكاذبين يستحق نزول اللعنة عليه من رب العالمين.

اذن: ففي سورة الكوثر يظهر هذا المعنى واضحاً لا غبار عليه ولا غمام....

(١) ال عمران/٦١.



﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝ (٣) ﴾ . فكانت فاطمة الزهراء عليها السلام هي الكوثر كما وردت في ذلك روايات صحيحة تشير الى أن ذرية النبي من علي وفاطمة عليهما السلام، وكما يدل الذوق السليم وروح الفقاهاة على كل ذلك فتأمل في هذا الأمر، تنكشف لك آفاق جديدة خلفها أبواب من العلم كلما فتحت باباً انفتح لك باب غير.. وإذا الأبواب متفرقة ومتعددة الا انها كلها توجهك الى بيت علي وفاطمة عليهما السلام، خصوصاً عندما تلم بك فاقة أو حاجة، أو غمة، فما عليك الا التوجه إلى بيت فاطمة، إلى بيت ﴿ فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝ (٣٦) رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ۝ (٣٧) لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١).

هذا هو الحق والواقع في هذا السبيل الذي لا يؤدي الى الا الحق، ولا يزيد أحدكم أيها الناس الا عزاً وكرامة وعلماً ونوراً ورحمة وإيماناً وتقوى ورقاً حسناً في الدنيا والآخرة وهذا هو الذي تركز عليه سورة الكوثر فإنها تثير في دفائن عقولنا قوة لم تألفها من قبل أبداً وإنما التأمل في هذه السورة والتفكر في القصة التي نزلت السورة من أجلها، أو قل: القضية المقدسة التي جاءت هذه السورة تتحدث عنها وهي الزهراء وذريتها فهي فاطمة فطمت نفسها وذريتها وشيعتها ومحبيها



من النار بعلمها وجلالها وعظمتها ونورها والسر الذي تحتوي عليه
جوانحها أبداً في كل عصر ودهر.

على أن الروايات التي وردت في كتب التفسير والحديث تذكر الواناً
من المعاني للكوثر فتذكر وعلى أنه نهر في الجنة يتدفق من ساق
العرش، أو أنه العلم والقرآن ترد وتريد تفسيراً لظاهرها وتأويلاً
لباطنها ... ففي تأويل هذه السورة بل حتى في تفسيرها أن الكوثر هو
الذرية الصالحة لأن الآية جاءت رداً على من اتهم محمداً بعدم الذرية
في حياته. فإذا قال الفهيم أن محمد أوتر لا ذرية له، وجاء في القرآن
بالكوثر للمصطفى فإن الكوثر يكون معناه العظيم الذرية وذرية النبي
محصورة في فاطمة عليها السلام، بل هي ذريته وولده وأبناءه، هم فاطمة وهذا
فيه من العمق مالا يعلمه إلا تبارك وتعالى، لذلك لاخير من الروايات
التي لا تذكر فاطمة تفسيراً وتأويلاً للكوثر فإن واقع الحال يشهد بذلك
والذوق السليم ومعرفة معاني كلامهم - كما قالوا - أنتم أفقه الناس
إذا عرفتم معاني كلامنا، وإن الكلمة منهم وعنهم لتتصرف الى سبعين
وجهاً، ولكل وجهة منها مخرج يحمل فكراً وعلماً ومعرفة غير التي
سبققتها رغم الاتحاد والاندماج في النور والعلم والمعرفة عند آل محمد
صلوات الله عليهم أجمعين ولذلك جاءت الروايات تفسر الكوثر على
أنه نهر في الجنة أو أنه العلم الى غير ذلك وكلها تؤدي في النهاية الى
الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها. وأنقل لكم
ما يقوله صاحب تفسير نور الثقلين وتفسير الصافي، فقد وردت
العبارات والروايات التالية في هذين الكتابين الشريفين:



١ - في كتاب ثواب الأعمال: بأسناده عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: من قرأ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ في فرائضه ونوافله، سقاه الله من الكوثر يوم القيامة، وكان محدثه عند رسول الله ﷺ في أصل طوبى ^(١).

٢ - وفي مجمع البيان رواية عن أبي: من قرأها سقاه الله من أنهار الجنة وأعطى من الأجر بعدد كل قربان قربه العباد في يوم عيد، ويقربونه من أهل الكتاب والمشركين ^(٢).

وحيثما يذكر في الحديث أهل الكتاب والمشركين فإنه يشير إلى العدد الكبير والحجم العظيم للثواب أولاً، وثانياً يريد أن يلفت الأنظار إلى هذه النعمة الكبيرة نعمة الولاية لأهل البيت ومودتهم ومحبتهم وكلها منجيات من النار ومن عذاب الدنيا وخزي الحياة، وفي مقابل أولئك الذين لا خلاق لهم لا في الدنيا ولا في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب عظيم.

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾

٣ - خاطب الله سبحانه نبيه على وجه التعداد لنعمه عليه، فقال: إنا أعطيناك الكوثر،. اختلفوا في تفسير الكوثر ف قيل: هو نهر في الجنة، فقد صعد النبي المنبر عند نزول هذه السورة فقرأها على الناس فلما نزل قالوا: يا رسول الله ما هذا الذي أعطاكه الله؟ قال: نهر في الجنة أشد بياضاً من اللبن وأشد استقامة من القمح، حافته قباب الدر والياقوت، ترده طير خضر لها أعناق كأعناق البخت (وهي الإبل).

(١) ثواب الأعمال (١٥٦).

(٢) مجمع البيان: ٨٣٥/١٠.



قالوا: يا رسول الله ما أنعم تلك الطير، قال: أفلا أخبركم بأنعم منها؟ قالوا: بلى قال: من أكل الطائر وشرب الماء وفاز برضوان الله.^(١)

٤ - وروي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: نهر في الجنة أعطاه الله نبيه عوضاً من ابنه.

٥ - وقال أنس: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغشى إغفاء ثم رفع رأسه مبتسماً فقلت: ما أضحككم يا رسول الله؟ قال: أنزلت على أنفأ سورة فقراً سورة الكوثر، قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر وعدنيه ربي عليه خير كثير، هو حوضي ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد نجوم السماء فيختلج القرن منهم فأقول: يارب أمتي؟ فيقال: إنك لاتدري ما أحدثوا بعدك.. أورده مسلم في الصحيح.

٦ - وقيل: هو الشفاعة روه عن الصادق عليه السلام.

٧ - في كتاب الخصال: فيما علم أمير المؤمنين عليه السلام أصحابه من الأربعمائة باب مما يصلح للمسلم في دينه ودنياه: أنا مع رسول الله ﷺ ومعي عترتي على الحوض فمن أرادنا فليأخذ بقولنا، وليعمل بعملنا، فإن لكل أهل نجباء ولنا نجيب ولنا شفاعة، ولأهل مودتنا شفاعة، فتتافسوا في لقائنا على الحوض، فإننا نذود عنه اعداءنا ونسقي منه أحبائنا وأوليائنا، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً حوضنا فيه مئتان ينصبان من الجنة، أحدهما من تسنيم والآخر من معين، على حافتيه الزعفران، وحصاه اللؤلؤ (والياقوت) وهو الكوثر.

(١) نقلاً عن مجمع البيان - والحديث موجود في نور الثقلين في تفسير السورة.



٨ - عن أبي صالح عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: أعطاني الله تبارك وتعالى خمساً وأعطى علياً خمساً، أعطاني الكوثر وأعطاه السلسيل، الحديث.

٩ - في كتاب المعاني الأخبار باسناده إلى الحسين بن أعين أخي مالك بن أعين قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الرجل للرجل: جزاك الله خيراً ما يعني به؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: إن الخير نهر في الجنة مخرجه من الكوثر، والكوثر مخرجه من ساق العرض، والحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة، في روضة الكافي محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد بن الحسين بن يزيد النوفلي عن الحسين بن أعين وذكر مثل ما كتاب معاني الأخبار سواء.

١٠ - في تفسير علي بن إبراهيم عن النبي ﷺ حديث طويل ذكرنا بتمامه أول الإسراء وفيه يقول ﷺ: ثم مضيت مع جبرئيل فدخلت البيت المعمور فصليت فيه ركعتين ومعي أناس من أصحابي عليهم ثياب جدد، وآخرين عليهم ثياب خلقان، فدخل أصحاب الجدد وجلس أصحاب الخلقان، ثم خرجت فأنقذ لي نهران نهر يسمى الكوثر ونهر يسمى الرحمة، فشربت من الكوثر واغتسلت من الرحمة، ثم أنقذ لي جميعاً حتى دخلت الجنة.

١١ - في كتاب الاحتجاج للطبرسي (ره) عن النبي ﷺ حديث طويل في مكالمة بينه وبين اليهود وفيه قالوا: نوح خير منك؟ قال النبي ﷺ: ولم ذاك؟ قالوا: لأنه ركب في السفينة فجرت على الجودي؟ قال النبي ﷺ: ولقد أعطيت أنا أفضل من ذلك، قالوا وما ذاك؟ قال: إن الله عز وجل أعطاني نهراً في السماء مجراه من تحت العرش وعليه ألف ألف



قصر، لبنة من ذهب ولبنة من فضة، حشيشها الزعفران ورضراضها الدر والياقوت وأرضها المسك الأبيض، فذلك خير لي ولأمتي، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ قالوا: صدقت يا محمد، وهو مكتوب في التوراة: هذا خير من ذلك.

١٢ - في أمالي الصدوق (ره) عن النبي ﷺ حديث طويل وفيه قال علي عليه السلام: يارسول الله أصابتنى جنابة البارحة من فاطمة بنت رسول الله ﷺ فطلبت في البيت ماء فلم أجد الماء، فبعثت الحسن كذا والحسين كذا، فأبطئا علي فاستلقيت على قفائي فإذا أنا بهاتف من سواد البيت: قم يا علي وخذ السطل واغتسل، فإذا أنا بسطل من ماء مملوء، عليه منديل من سندس، فأخذت السطل واغتسلت ومسحت بدني بالمنديل، ورددت المنديل على رأس السطل، فقام السطل في الهواء فسقط من السطل جرعة فأصابتهامتي، فوجدت بردها على فؤادي فقال النبي ﷺ: بخ بخ يا بن أبي طالب أصبحت وخادمك جبرئيل، أما الماء فمن الكوثر، وأما السطل والمنديل فمن الجنة كذا أخبرني جبرئيل كذا أخبرني جبرئيل.

١٣ - في أمالي شيخ الطائفة قدس سره باسناده إلى عبد الله بن العباس قال: لما نزل على رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ قال له علي بن أبي طالب ما هو الكوثر يارسول الله ؟ قال نهر أكرمني الله به، قال علي عليه السلام: إن هذا النهر شريف فأنته لنا يارسول الله، قال: نعم يا علي الكوثر نهر يجري تحت العرش ماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وألين من الزبد، حصاه الزبرجد والياقوت والمرجان، حشيشه الزعفران، ترابه المسك الأذفر، قواعده تحت عرش الله، عز



وجل، ثم ضرب رسول الله ﷺ على جنب أمير المؤمنين عليه السلام وقال: يا علي هذا النهر لي ولك ولحببك من بعدي.

١٤ - في كتاب المناقب لابن شهر آشوب عن يوسف بن مازن الراسبي أنه لما صالح الحسن بن علي عليهما السلام عدل وقيل: يامذل المؤمنين ومسود الوجوه فقال ﷺ: لاتعدلوني فإن فيها مصلحة، ولقد رأى النبي ﷺ في منامه تخطب بنو أمية واحد بعد واحد، فحزن فنزل جبرئيل بقوله: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ ﴿وإنا أنزلناه في ليلة القدر﴾.

١٥ - في تفسير علي بن إبراهيم ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ قال: الكوثر نهر في الجنة أعطى الله محمدا عوضا عن ابنه إبراهيم ﷺ.

١٦ - في الكافي علي بن إبراهيم عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة عن جعفر عن آبائه عليهم السلام أن رسول الله ﷺ قال: السخي محبب في السماوات محبب في الأرض، خلق من طينة عذبة، وخلق ماء عينيه من ماء الكوثر، والبخيل مبغض في السماء السماوات، مبغض في الأرض، خلق من طينة سبخة وخلق ماء عينيه من ماء العوسج.

١٧ - في مجمع البيان: فصل لربك وانحر عن عمر بن يزيد قال: سمعت أبا عبدالله ﷺ يقول في قوله: ﴿فصل لربك وانحر﴾ هو رفع يديك حذاء وجهك. وروي عنه عبدالله بن سنان مثله.

١٨ - وعن جميل قال: قلت لأبي عبدالله ﷺ: ﴿فصل لربك وانحر﴾ فقال بيده هكذا يعني استقبل بيديه حذاء وجهه القبلة في افتتاح الصلاة.



١٩ - وروي عن مقاتل بن حيان عن الأصمغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: لما نزلت هذه السورة قال النبي ﷺ لجبرئيل عليه السلام: ما هذه النحيرة التي أمرني بها ربي، قال: ليست بنحيرة ولكنه يأمرك إذا تحرمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت، وإذا ركعت وإذا رفعت رأسك من الركوع وإذا سجدت، فإنه صلاتنا وصلاة الملائكة في السماوات السبع، فإن لكل شيء زينة وإن زينة الصلاة رفع الأيدي عند كل تكبيرة. قال النبي ﷺ: رفع الأيدي من الاستكانة. قلت: وما الاستكانة؟ قال: ألا تقرأ هذه الآية: ﴿فما استكانوا لربهم وما يتضرعون﴾ أوردته الثعلبي والواحدي في تفسيريهما.

٢٠ - وأما ما رواه عن علي عليه السلام أن معناه ضع يدك اليمنى على اليسرى حذاء النحر في الصلاة فمما لا يصح عنه، لأن جميع عترته الطاهرين عليهم السلام قد رووه عنه بخلاف ذلك، وهو أن معناه ارفع يدك إلى النحر في الصلاة.

٢١ - في الكافي محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد عن حماد عن حريز عن رجل عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: ﴿فصل لربك وانحر﴾ قال: النحر الاعتدال في القيام أن يقيم صلبه ونحره.

٢٢ - في عوالي اللئالي وروي عن مقاتل عن حماد بن عثمان قال: سألت الصادق عليه السلام ما النحر؟ فرفع يده إلى صدره فقال: سألت الصادق عليه السلام ما النحر؟ فرفع يده إلى صدره فقال: هكذا ثم رفعهما فوق ذلك فقال: هكذا استقبل القبلة في استفتاح الصلاة.

٢٣ - في كتاب الاحتجاج للطبرسي (ره) عن الحسن بن علي عليه السلام حديث طويل يقول فيه عليه السلام وأما أنت يا عمرو بن العاص الشائن اللعين

الأبتر فإنما أنت كلب (كنت ظ) أول أمرك، إن أمك لبغية وإنك ولدت على فراش مشترك، فتحاكمت فيك رجال قريش منهم أبو سفيان بن حرب والوليد بن المغيرة، وعثمان بن الحارث، والنضر بن الحارث بن كلفة، والعاص بن وائل، كلهم يزعم أنك ابنه، فغلبهم عليك من بين قريش الأمهم حسبا وأخبثهم منصبا وأعظمهم بغية، ثم قمت خطيبا وقلت أنك شائن محمد، وقال العاص وائل: إن محمد رجل أبتر لا ولد له، فلو قد مات انقطع ذكره، فأنزل الله تبارك وتعالى : إن شائنك هو الأبتر وكانت أمك تمشي إلى عبد قيس تطلب البغية، تأتيهم في دورهم ورحالهم وبطون أوديتهم.

٢٤ - في كتاب الخصال فقال أبو ذر رحمه الله أنا أحدثكم بحديث سمعته أستم تشهدون أن رسول الله ﷺ قال: شر الأولين والآخرين اثنا عشر، ستة من الأولين وستة من الآخرين؟ إلى أن قال: وأما الستة من الآخرين فالعجل وهو نعثل وفرعون وهو معاوية، وهامان هذه الأمة زياد، وقارونها وهو سعيد والسامري وهو أبو موسى عبد الله بن قيس لأنه قال كما قال سامري قوم موسى "لامساس" أي لاقتال ، والأبتر وهو عمرو بن العاص.

٢٥ - في تفسير علي بن ابراهيم قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد وفيه عمرو بن العاص والحكم بن أبي العاص فقال عمرو: يا أبا الأبتر وكان الرجل في الجاهلية إذا لم يكن له ولد سمي أبتر، ثم قال عمرو : إني لأشأن محمدا أي أبغضه، فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وآله: ﴿إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر﴾ إن شائنك هو الأبتر أي مبغضك عمرو بن العاص "هو الأبتر" يعني لادين له ولانصب.



تفسير سورة الكوثر من تفسير الصافي ج ٥، ص ٣٨٢:

(١) إنا أعطيناك الكوثر الخير المفرط الكثرة وفسر بالعلم والعمل والنبوة والكتاب وبشرف الدارين وبالذرية الطيبة.

وفي المجمع عن الصادق عليه السلام هو الشفاعة.

وعنه عليه السلام قال هو نهر في الجنة أعطاه الله نبيه عوضا من ابنه.

والقمي مثله وفي الأمانى عن ابن عباس قال لما نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله إنا أعطيناك الكوثر قال له علي بن أبي طالب عليه السلام ما الكوثر يا رسول الله قال نهر أكرمني الله به قال علي عليه السلام إن هذا النهر شريف فأنعته لنا يا رسول الله قال نعم يا علي الكوثر نهر يجري من تحت عرش الله تعالى ماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل والين من الزبد حصاه الزبرجد والياقوت والمرجان حشيشه الزعفران ترابه المسك الأذفر قواعده تحت عرش الله عز وجل ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وآله على جنب أمير المؤمنين عليه السلام وقال يا علي هذا النهر لي ولك ولبيّنك من بعدي عليه السلام.

وفي المجتمع عن النبي صلى الله عليه وآله إنه سئل عنه حين نزلت السورة فقال نهر وعدنيه ربي عليه خير كثير وهو حوضي ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد نجوم السماء فيختلج (١) القرن منهم فأقول يارب إنهم من أمتي فيقال إنك لاتدري ما أحدثوا بعدك.

وفي الخصال عن أمير المؤمنين عليه السلام قال أنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله ومعي عترتي على الحوض فمن أرادنا فليأخذ بقولنا وليعمل عملنا فإن لكل أهل نجيبا ولنا نجيب ولنا شفاعة ولأهل مودتنا شفاعة فتتأفسوا



في لقائنا على الحوض فإننا ندود عنه أعدائنا ونسقي منه أحيائنا وأوليائنا من شرب منه شربة لم يظماً بعدها أبدا حوضنا فيه مشعبان ينصبان من الجنة أحدهما من تسنيم والآخر من معين على حافتيه الزعفران وحصاه اللؤلؤ وهو الكوثر.

(٢) فصل لربك وانحر قدم على الصلاة وانحر في المجمع عن الصادق عليه السلام هو رفع يديك حذاء وجهك وفي رواية فقال بيده هكذا يعني استقبل بيده حذاء وجهه القبلة في افتتاح الصلاة.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام لما نزلت هذه السورة قال النبي ﷺ لجبرئيل ما هذه النخيرة التي أمرني بها ربي قال ليست بنخيرة ولكنه يأمرك إذا تحرمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت وإذا ركعت وإذا رفعت رأسك من الركوع وإذا سجدت فإنه صلاتنا وصلاة الملائكة في السماوات السبع فإن لكل شيء زينة وأن زينة الصلاة رفع الأيدي عند كل تكبيرة. وفي الكافي عن الباقر عليه السلام أنه سئل عنه فقال النحر الاعتدال في القيام أن يقيم صلبه ونحره.

أقول: وفي تفسير العامة ان المراد بالصلاة صلاة العيد وبالنحر نحر الهدي والأضحية.

(٣) إن شانتك هو الأبتري الذي لا عقب له إذ لا يبقى له نسل ولا حسن ذكر وأما أنت فتبقى ذريتك وحسن صيتك وآثار فضلك الى يوم القيامة ولك في الآخرة ما لا يدخل تحت الوصف القمي.

قال دخل رسول الله ﷺ المسجد وفيه عمرو بن العاص والحكم بن العاص فقال عمرو يا أبا الأبتري وكان الرجل في الجاهلية إذا لم يكن له

ولد سمي أبتري ثم قال عمرو إني لا شئني محمداً أي أبغضه فأنزل الله
على رسوله السورة إن شانتك هو الأبتري يعني لادين له ولانسب.
في ثواب الأعمال والمجمع عن الصادق عليه السلام من كانت قراءته إنا
أعطيناك الكوثر في فرائضه ونوافله سقاها الله من الكوثر يوم القيامة
وكان محدثه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصل طوبى.



بحث في سورة الكوثر

وخطبة زينب عليها السلام

قال الله سبحانه: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)﴾ (١).

والكوثر هي أقصر سورة في القرآن الكريم ولكنها تحدثت عن أطول قصة عرفها الإنسان.. وهل هناك أطول من قصة الإنسان في الأرض؟ بإيمانه وكفره... بهداه وضلاله.. بخيره وشره... بتألقه، وانطفائه.

أجل... إنها أقصر سورة، كما أن سورة البقرة هي أطول سورة في القرآن.. ولكن سورة الكوثر على رغم إيجازها وقصرها، فإنها جاءت لتقص علينا أروع حكاية وأغرب قصة في تاريخ هذا الإنسان، وحضارته.

جاءت لتعطي انعكاساً صارخاً لحقيقة الإيمان، والخير والهدى من جانب... وحقيقة الكفر، والشر، والضلال من جانب آخر.. ففي الحقيقة الأولى... فيض وكثرة، وعطاء، وامتداد... بينما في الجانب الثاني... جانب الكفر والضلال.. انحسار، وقلة وانقطاع، وانبتار... فأصحاب الإيمان، وأهل التقى.. وحملة الفكر... وذوو العقول والألباب، هؤلاء هم المنتصرون حقاً، فقد جعل الله سبحانه، النصر، والفتح،

(١) الكوثر / ١-٣.



والظفر، والعزة والحرية والاستقلال، لهؤلاء دون غيرهم.. أما الفئة الكافرة الظالمة، فهي الفئة المهزومة المندحرة، على طول التاريخ... حتى وإن بدت الصورة بشكل آخر، وظن الغافلون أن الأمر مقلوب ومعكوس، وأن الغلبة للغدرة الفجرة.. وإن الانتصار للظلمة وأعوان الظلمة.

إن سورة الكوثر، لتتفي هذا الظن نفيًا قاطعاً وتمسح هذا اللون من التفكير المقلوب بالكامل.. وتؤكد حقيقة ثابتة لن تتزعزع أبداً، وهي أن الغلبة للإيمان وأهله.. وأن النصر للقلة المؤمنة مهما بلغ جبروت الطغاة والجلادين من الاعتساف.. وهي حقيقة تلقي بثقلها وتصدم بقوتها كل أولئك الغافلين الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم عن سنن التاريخ ومناهج الحق غافلون.. غافلون.. غافلون...

والسبب في ذلك، أن الحق يستمد قوته من الله سبحانه والإيمان يتألق بنور الله عز وجل.. ونفس الشيء يقال في الهدى والتقى والخير والانتصار إذ أنها في النهاية تلتقي مع الحق.. والحق له من القوة ما يشقق الأرض ويدك الجبال دكا... في حين أن الباطل لاقوة له، والظلم لانور له بل هو ظلمات بعضها فوق بعض.. ومن هنا كان الحق أقوى من الباطل لأن الباطل ضعيف مضمحل وزائل، وحين يجيئه الحق يجده مرتعشاً خاوياً زهوقاً: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾^(١).

(١) الإسراء/٨١.

وفي آية ثانية يقول القرآن الكريم:

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ (١).

ومن هنا أيضا كانت الحسنه أقوى من السيئه فإذا نزلت الحسنه على السيئه، أحرقتها وأذهبتها، وذرتها رماداً في الهواء: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (٢).

وكان نور الله أقوى، وأقوى من أن ينال منه الظلام شيئاً... ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٣).
يقول أيضا: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٤).

وكل ذلك يرجع إلى أن الباطل يستمد طاقته من الشيطان، وطاقه الشيطان ضعيفة بالية: يقول القرآن في هذا المجال: ﴿...إِنْ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (٥).

ثم يضرب الله سبحانه وتعالى مثل الحق والباطل، فيجعل مثل الحق مأكثاً في الأرض لأنه ينفع الناس، بينما يجعل مثل الباطل كفقاعات

(١) الأنبياء / ١٨.

(٢) هود / ١١٤.

(٣) التوبة / ٣٢.

(٤) الصف / ٨.

(٥) النساء / ٧٦.



فارغة تتفخ فوق الموج لتشكل زبدًا رابياً ولكنها سرعان ما تنطفئ، وتذهب جفاء، وما أروعها من مثل: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ (١).

وبالتالي أقرأوا معي إذا شئتم هذه الآية : ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٢).

ويبدو من سياق الآية أن (إذن الله) عز وجل هو الصبر، فإذا صبرت على مواصلة الكفاح، والنضال والجهاد، فإن الله سيأذن لك بالنصر والفلاح والظفر.. إذن: فإن الله هو الصبر... في هذه الآية ... واقرأوا معي الآية الثانية التي تشير إلى أن الإيمان هو أعظم مولد للطاقة، وأكثر مصدر للقوة في هذا الكون، حيث يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٣).

وهذا هو الفارق الحضاري الذي يفصل بين حضارة المادة، وحضارة الإيمان المنتصرة، فانتصار الإيمان في النهاية.. حقيقة لا يرقى إليها الشك وإن ظن الطغاة غير ذلك... يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْهُمْ نُمَلِّئُهُمْ خَيْرًا لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّهُمْ لُمَلِّئُهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (٤).

(١) الرعد/١٧.

(٢) البقرة/ ٢٤٩.

(٣) آل عمران/ ١٣٩.

(٤) آل عمران/ ١٧٨.

ومن أجل إعلان هذه الحقيقة، وقفت بطلة كربلاء زينب بنت علي بن أبي طالب -عليهما السلام-، وقفت وهي عقيلة بني هاشم، وهوراء آل محمد، وقفت في مجلس يزيد بن معاوية، وكان يومها يجلس وبين يديه طبق فيه رأس الحسين ريحانة رسول الله وقرة عين الزهراء البتول فاطمة.

ولقد لعبت الأحداث الدامية في نفس يزيد لعبتها، وفعلت فعلتها، فصار ينظر في عطفه جذلان مسرورا، وقد ظن أن الدنيا مستوثقة له والأمور متسقة، وقد صفا له الجو.. وخلا له الطريق.. لقد تصور يزيد أن الدنيا بين يديه يلعب فيها حسب ذوقه، ووفق مزاجه يقتل ويعذب، ويسجن، وينتهك الحرمات، ويفعل ما يريد أن يفعله دون رادع، ولا زاجر إذ لا أحد يستطيع أن يقف بوجهه.

وهنا وقفت الحوراء زينب لتلقنه درساً لن ينساه هو والطفلة من بعده.

وقفت وصوت الحق يتفجر كالبركان فوق شفاء ابنة فاطمة الزهراء.. زينب العقلية التي ترعرت في حجر أمها فاطمة.

لقد خطبت فحدثت الناس عن الإسلام، وعظمتته.. وعن الأغلال التي حطمتها، وعن القيود التي كسرتها، ثم أعلنت الحرب على يزيد وعلى الطفلة الظالمين بعدما كشفت للناس عن الأسباب والعوامل الاجتماعية التي أدت إلى ظهور يزيد الفاسق الفاجر في المجتمع الإسلامي وجعلت منه حاكماً مصلتاً سيفه على رقاب الناس.

ولإتمام الفائدة، أدعوكم معي للاستماع إلى بعض مقاطع خطبة



الهوراء زينب - سلام الله عليها-، طبعاً بقدر ما يخص المناسبة، لأن العقيلة زينب كشفت عن حقائق مذهلة في خطبتها، ومن بين الحقائق التي كشفتها، هي الحقيقة التي نحن بصددتها وهي انتصار الحق والإيمان على الباطل والكفر.

وها نحن نصفي في خشوع ووعي وإجلال لابنة فاطمة الزهراء - سلام الله عليها- وهي تعلن أمام الملأ عن القيود والأغلال التي حطمتها، وكيف انتصر الإمام الحسين وأهل البيت على رغم كونهم قتلى وأسرى، إذ الانتصار ليس هو انتصار جيش على جيش، ولا انتصار جبهة ضد جبهة، بل هو قبل كل شيء انتصار المبادئ والقيم، والأهداف.

قالت: صدق الله سبحانه حيث يقول: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَصَاؤُوا السُّوْأَىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾^(١).

على أن الخطبة التي ألقتها بطلة كربلاء زينب في مجلس يزيد ليس مجرد كلمات عادية نفث صدرها بها لأنها امرأة تعاني من السبي والأغلال، أبداً... لم تكن خطبتها من هذا القبيل، ولا من هذا المنطلق.

إن زينب العقلية اللبية في خطبتها الراقية هذه، تتكلم لغة حضارية جديدة لم يحدث أن وقفت امرأة في مثل موقفها وتكلمت في مثل كلامها إنها تتكلم لغة حضارية معبأة بالنور والنار: نور للرازيين ونار على الظالمين. إنها لغة ترجع بالقضية إلى ينبوعها الأول: القرآن والعترة وتعالوا معي نسمع لغة العلم هذه ونتفياً ظلالها.

(١) الروم/١٠.

مقاطع من خطبة الحوراء زينب عليها السلام

وقفت زينب في مجلس يزيد فقالت: الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على رسوله وآله أجمعين، صدق الله سبحانه حيث يقول: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَصَاؤُوا السُّوْأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾^(١).

أظننت يا يزيد، حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء، فأصبحنا نساق كما تساق الأسرى - الإماماء - أن بنا على الله هواناً وبك عليه كرامة، وأن ذلك لعظم خطرك عنده، فشمت بآنفك، ونظرت في عطفك، جذلان مسروراً، حيث رأيت الدنيا لك مستوثقة، والأمور متسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا.

فمهلاً مهلاً، لاتطش جهلاً، أنسيت قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾^(٢).

أمن العدل يا ابن الطلقاء؟ تخديرك حرائرك وإماءك، وسوقك بنات رسول الله سبايا قد هتكت ستورهن وأبديت وجوههن تحدو بهن الأعداء من بلد إلى بلد، ويستشرفهن أهل المناهل والمناقل، ويتصفح وجوههن القريب والبعيد، والدني والشريف، ليس معهن من حماتهن حمي ولا من رجالهن ولي.

(١) الروم/١٠.

(٢) آل عمران/١٧٨.

وكيف يرتجي مراقبه أبي من لفظ فوه الأكباد الأزكياء، ونبت لحمه
بدماء الشهداء؟

وكيف يستبطأ في بغضنا أهل البيت من نظر إلينا بالشنف والشنآن
والأحن والأضغان، ثم تقول غيرمتأثم ولا مستعظم.

لأهلوا واستهلوا فرحاً ثم قالوا: يا يزيد لا تشل
منحنياً على ثاياه أبي عبدالله سيد شباب أهل الجنة، تتكتها
بمخصرتك....

وكيف لاتقول ذلك؟... وقد نكأت القرحة واستأصلت الشأفة
بإراقتك دماء ذرية محمد ﷺ ونجوم الأرض من آل عبدالمطلب، وتهتف
بأشياخك زعمت أنك تتاديهم، فتردن وشيكاً موردهم، ولتودن أنك
شالت وبكمت ولم تكن قلت ماقلت، وفعلت ما فعلت.

اللهم خذ لنا بحقنا، وانتقم من ظالمينا، واحلل غضبك بمن سفك
دماءنا، وقتل حماتنا، فوالله ما فريت إلا جلدك، ولا حرزت إلا لحمك،
ولتردن على رسول الله ﷺ بما تحملت من سفك دماء ذريته، وانتهكت
من حرمة في عترته ولحمته، حيث يجمع الله شملهم، ويلم شعثهم
ويأخذ بحقهم. ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ
رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١).

وحسبك بالله حاكماً، وبمحمد ﷺ خصيماً، وبجبرائيل ظهيراً،

(١) آل عمران/١٦٩.



وسيعلم من سؤل لك ومكنك من رقاب المسلمين.. بئس للظالمين بدلاً،
وأىكم شرُّ مكاناً وأضعف جنداً.

ولئن جرّت على الدواهي مخاطبتك، إني لأستصفر قدرك واستعظم
تقريعك، واستكثر (وأستكبر) توبيخك، لكن العيون عبرى والصدور
حرى.

ألا: فالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجباء بحزب الشيطان
الطلاق، فهذي الأيدي تتظف من دمائنا والأفواه تتحلب من لحومنا،
وتلك الجثث الطواهر الزواكي تتتابها العواسل، وتعفوها أمهات الفراعل
ولئن اتخذنا مغنماً، لتجدنا وشيكاً مغرماً، حين لاتجد إلا ما قدمت
يداك، وماريك بظلام للعبيد، فإلى الله المشتكى وعليه المعول.

فكدّ كيدك، واسعّ سعيك، وناصب جهدك، فوالله لاتمحو ذكرنا،
ولاتميت وحيننا، ولاتدرك أمدنا، ولاتدحض عنك عارها، وهل رأيك إلا
قند؟ وأيامك إلا عدد؟ وجمعك إلا بدد؟ يوم ينادي المنادي ألا لعنة الله
على الظالمين.

فالحمد لله رب العالمين، الذي ختم لأولنا بالسعادة والمغفرة، ولآخرنا
بالشهادة والرحمة، ونسأل الله أن يكمل لهم الثواب ويوجب لهم المزيد،
ويحسن علينا الخلافة، إنه رحيم ودود وحسبنا الله ونعم الوكيل..."





سورة الكوثر

سورة الكوثر تنحصر في

الصدّيقة فاطمة الزهراء عليها السلام

ولكي لا يشط بنا القلم، وحتى لا تسرح بنا عربة الأفكار بعيداً عن حقول الكوثر، سورة الخير والعطاء، أقول حتى لا نبتعد كثيراً، فإنه ينبغي علينا أن نعود الى رحاب سورة الكوثر لنتفياً ظلالها ونقطف من أثمارها... بحيث نستطيع أن نأخذ صورة واضحة عما يخص الزهراء فاطمة -صلوات الله وسلامه عليها-...

كانت العرب تطلق كلمة الأبتَر، على من ليس له ابن ولا ذرية، وحدث أن مات ولدا رسول الله القاسم وعبدالله، فقال المشركون، ومنهم العاص بن وائل السهمي، سوف يموت محمد فتستريح منه، فإنه أبتَر ليس له ابن ولا ذرية... وحين سمع النبي ﷺ كلامهم تأثر وتألّم فنزلت هذه السورة لتمسح عنه ألمه، وتسري عنه... حيث كان النبي ذات يوم جالساً في مسجده الشريف، إذ أخذته غفوة رقيقة، أفاق بعدها والبسمة تعلو شفّتيه الطاهرتين، فسأله أصحابه: ما أضحك يا رسول الله؟ قال: أنزلت عليّ آنفاً سورة، فقرأ سورة الكوثر» - (مجمع البيان).

فجاءت سورة الكوثر خالصة لرسول الله، وسيأتي الكلام حول الكوثر ومعناه بشيء من التفصيل بعد مقدمة لا بدّ من ذكرها لتوضيح الصورة، والمقدمة هي:



عند تفسير هذه السورة، نلتقي بحزمة مضيئة من الأفكار تصل إلى قرابة ثلاثين رأي وفكرة.. وكلها تصب في نهر واحد، وتتجس من نبع واحد، فتشير إلى أن المراد من الكوثر هو العطاء الكثير، والخير والبركة والرحمة، ولكن مهما تعددت الآراء، وكثرت الأفكار حول معنى الكوثر، فإن آخر السورة وهو قوله: ﴿إِنَّ شَأْنَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

يوضح الصورة ويعطي - بشكل كامل - معنى الكوثر.. وهو كثرة النسل والذرية دون غيرها من الآراء...

وهذا ينحصر بالصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء - صلوات الله وسلامه عليها-، إذ أن ذرية النبي ﷺ من فاطمة وهي أم الأئمة المعصومين من ذرية الرسول محمد ﷺ.

وإذا عرفنا أن القرآن الكريم، تجري آياته ضمن خط فكري متناسق يربط النتائج بالمقدمات على طول الطريق، بحيث تجيء النتيجة موافقة للمقدمة في غاية الإبداع والإتقان.. أقول إذا عرفنا ذلك أدركنا أن الكوثر معناه كثرة النسل والذرية. وهذا لا يتحقق إلا بفاطمة الزهراء - سلام الله عليها - .. كما هو معروف وواضح لدى كل قارئ فطن ذكي يفهم مايقول، ويستوعب مايقرا.

فإذا انقلبت الموازين وجاءت النتائج بخلاف المقدمات، انهارت أعمدة الفكر من الأساس، وعندها تعم الفوضى، وتسيطر الغوغائية على كل زاوية من زاويا الفكر الإنساني.. وهذا لا يمكن أن يحدث أبداً، لأن القرآن كتاب الله قد أحكمت آياته وفصلت من لدن حكيم عليم..

«فلو كان المراد بالكوثر غير الذرية والأبناء. لكان تحقيق الكلام



بقوله: إن شانتك هو الأبتـر خالياً من الفائدة» إذ ليس هناك ترابط بين النتيجة والمقدمة، ... إذن فالسورة المباركة إنما اطلقت اسم الكوثر على البتول فاطمة، لأنها أم أبيها، ومنها تتناسل ذرية النبي الأعظم محمد ﷺ.

واعتقد أن بعض الأطراف المعروفة بعنائها لفاطمة هي التي أثارت الغبار حول هذه السورة وكثرت الآراء حول الكوثر لصرفه عن الزهراء البتول، والذي يقرأ التاريخ يامعان يدرك مدى صحة هذا الكلام! وإلا فالسورة في غاية الوضوح، والقرآن الكريم سهل ميسر لاتعقيد فيه ولا غموض، ولكن بعض الآيات رغم وضوحها الشديد ولمعانها في أشعة الشمس، فإن هناك من يحاول أن يسوق السحاب ليحجبها عن العين والنظر!.

الكوثر مأخوذ من فوعل، ومعناه العطاء الكثير الذي لا حدود له، ولا يحصى نعماء العادون ولا يؤدي حقه المجتهدون. إنه عطاء خالص من الله عز وجل للحبيب المصطفى روعي فداء له. إنه عطاء في كل شيء، وبغير حساب أيضاً. وإذا عسانا أن نحصي من هذا العطاء؟... ولكن أظن أن في إمكاننا أن نعد على أصابع اليدين طرفاً من هذا العطاء الذي لا يعرف الحدود.. فالله سبحانه قد أفاض على نبيه الكريم محمد الخير كله في الدنيا والآخرة.. بل هو لنبي الرحمة برمتها، ورحمة الله وسعت كل شيء فذلك يعني أن الله أعطاه خير كل شيء، وجعل كل شيء في خدمته.

وبالمثل: أعطاه العلم والحلم.. والكتاب والنبوة والسماحة والشجاعة، والفصاحة، والمحبة في قلوب المؤمنين.



هذا من جانب ومن جانب آخر، فإننا حين نعدد عطايا الله سبحانه لرسوله الكريم - وهي تفوق الحصر كما قلنا آنفاً - نجد أن أعظم عطية ومنحة قدمها الله لرسوله المصطفى، هي فاطمة.. ريحانته... وبضعته، وسيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين...

إن فاطمة هي التي حفظت نور النبوة، وهي التي أصبحت امتداداً لرسالة الإسلام، وذلك من خلال أبنائها الأئمة الهداة المعصومين الذين حفظوا الإسلام من الضياع والعبث وقدموا أنفسهم ضحايا في طريق الحق والعدل والحرية.

إن فاطمة تركت خطأ ثورياً ساخناً يجري في الأرض من خلال أبنائها البررة.. وبالفعل فقد كان الخط الفاطمي هو أنصع خط في الإسلام إنه أقصر خط يوصلك الى الله سبحانه، ويربطك بالحق بشكل وثيق.

وقد ارتفع هذا الخط باسم فاطمة فاسق دولا، وأقام دولا.. أسقط الدول الطاغية الظالمة، وأقام الدول المؤمنة العادلة...

وهل تدرون متى قدمها الله لرسوله؟ متى أعطاه فاطمة وجعلها في صلبه؟ حدث هذا العطاء الرباني في أعلى نقطة في هذا الكون.. ﴿عند سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١)﴾.

أجل هناك في أعلى عليين تكونت نطفة فاطمة، ولكي نفهم المسألة

(١) النجم/١٤-١٧.



من أولها، تعالوا معي إلى الحبيب المصطفى نصفي اليه في خشوع وهو يحدثنا كيف أعطاه الله فاطمة ليلة الإسراء والمعراج.

يقول الرسول الأعظم محمد ﷺ «لما عرج بي إلى السماء، أخذ بيدي جبرائيل، فأدخلني الجنة فناولني من رطبها، فأكلته، فتحول ذلك نطفة في صلبي، فلما هبطت إلى الأرض واقعت خديجة، وحملت بفاطمة ففاطمة حوراء إنسية، فكلما اشتقت إلى رائحة الجنة شممت ابنتي فاطمة»^(١).

ثم يضيف الرسول قائلًا «فاطمة سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين، وإنها لتقوم في محرابها فيسلم عليها سبعون ألف ملك من المقربين، وينادونها بما نادى به الملائكة مريم، فيقولون: يا فاطمة إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين»^(٢).

والنتيجة التي نطلع بها من هاتين الروايتين السالفتين: هي أن الله سبحانه، قد اختار لفاطمة أن تكون نطفتها بالملأ الأعلى عند سرده المنتهى، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على علو الزهراء، وارتفاع مقامها، وسمو منزلتها.

ومن هنا ندرك معنى اهتمام النبي بالزهراء وكيف كان يقوم إجلالاً لها إذا دخلت عليه، ثم يأخذ يدها فيقبلها، ويجلسها إلى جانبه، ويقول: مرحباً بأُم أبيها.. ثم يشمها فيقول: إني لأشم رائحة الجنة من ابنتي فاطمة....

(١) كلمة الرسول الأعظم: ٨١/

(٢) المصدر نفسه.



وكان الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «إذا نظرت إلى فاطمة انجلت عني الهموم والأحزان» فقد كانت تشع بالنور وتبث الطمأنينة على كل من يراها ، ويسمع كلامها .

إننا نلمح في الكوثر صورتين: واحدة عامة لكل الناس... وواحدة خاصة لفاطمة دون غيرها من البشر.. أما العامة، فهي تشير إلى انتصار الإيمان مع القلة المؤمنة، وانقطاع دابر القوم الظالمين مع كثرتهم، وكثرة عدتهم وعددهم.. وفيها وعد.. ووعد.. وعد بالنصر والفتح لدين الله... ووعد بالهلاك والدمار لأعداء هذا الدين الإسلامي الحنيف.. فقد جاءت السورة تحمل البشارة والندارة... البشارة لحملة القرآن، والندارة لحملة الشهوات الذين هم في عداد الأموات، وإنما سمي الكافر ميتاً لأنه لا ينتفع من نفسه، ولا ينفع غيره... والمنفعة هي التي تجري مع الحق لأن الحق وحده هو الذي ينفع الناس فيمكث في الأرض، أما غيره فهو جفاء كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف.. هذا من الناحية العامة للسورة أما من الناحية الخاصة فسورة الكوثر تعني فاطمة وليس غير فاطمة لأنها هي الكوثر، وهي العطاء الكبير، وهي النسلة الطيبة، وهي النعمة الكبرى، وبعد هذا وذاك، ففاطمة أم أبيها.. وأم الأئمة النجباء المعصومين....

إذن: فمعنى قوله: إنا أعطيناك الكوثر، أي فاطمة في مقابل الذين زعموا أنه أبتري لا ذرية له ولانسل... وفيها .. - كما أسلفنا - بشرى للنبي، ووعد لشأنه - عدوه - بالقطع والبتري...

ومن الملاحظات حول هذه السورة أنها جاءت محملة بالوعد



والوعيد، والبشارة والندارة.. وعد للمؤمنين بالفتح والنصر، ووعد للظالمين بالهلاك والقطع، جاءت تحمل بشارة للقلّة المؤمنة. وتلوح للطفاة بالقطع والبتّر...

ثم إن الكوثر هو العطاء الكثير، وهو وإن شمل كل خير حتى ذرية النبي، ولكنه يخص الزهراء بالذات، وذلك لأن سياق السورة يدل على هذا الشيء ولا يدل على غيره أبداً.

لكل شيء زينة . . .

وزينة الصلاة رفع اليدين

أما قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنحِرْ﴾

فإن ذلك يعني أن تشكر الذي أنعم عليك، فبالشكر تدوم النعم، وكلما شكر العبد مولاه، كلما زاده المولى نعمة فوق النعمة، وعطاءً بعد عطاء.

عن الإمام علي عليه السلام صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: «لما نزلت هذه السورة، قال النبي لجبرائيل: ماهذه النحيرة التي أمرني بها ربي؟ قال: ليست بنحيرة... ولكنه يأمرك، إذا تحرمت للصلاة - أي دخلت - في تكبيرة الإحرام أن ترفع يديك إذا كبرت، وإذا ركعت، وإذا رفعت رأسك من الركوع، وإذا سجدت، فإنها صلاتا وصلاة الملائكة في السموات السبع.. فإن لكل شيء زينة، وإن زينة الصلاة رفع الأيدي عند كل تكبيرة».

وقال النبي محمد ﷺ: رفع اليدين من الإستكانة..

وقال الله سبحانه: ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾^(١).

- مجمع البيان- وأن معنى النحر: رفع اليدين إلى النحر في الصلاة.

(١) المؤمنون/٧٦.



إذن: فأمام هذه العطية - وهي الكوثر - كان لابد من الشكر، وأعظم الشكر نجده في الصلاة والإطعام، وآية ذلك أن ترفع يديك إلى النحر أثناء الصلاة أي بعد الركوع والسجود.

وعن حماد بن عثمان قال: سألت أبا عبدالله الصادق عليه السلام عن معنى قوله تعالى وانحر فقال: «بيده هكذا، يعني استقبل بيديه حذو وجهه القبلة في افتتاح الصلاة- هذه الرواية من مجمع البيان في تفسير السورة. فقوله ﴿وانحر﴾، أي ارفع يديكم إزاء وجهك...

وقال الإمام الباقر عليه السلام: «وانحر: قال: يرفع يديه أول ما يكبر في الافتتاح» أي عند بدء الصلاة وافتتاحها.

● تأملات في سورة الكوثر:

١ - السورة أخبرت عن شيء غيبي مكنون في ثنايا أعداء الإسلام، فلقد كشفت سورة الكوثر عن نواياهم العدائية ضد الإسلام، وهذا من أظهر مصاديق الإخبار بالغيب.

٢ - إنه الكوثر، وإذا كان الكوثر أحد معانيه كثرة البر، فإن أعظم مصداق لهذا الخير، هو مانراه اليوم من انتشار الإسلام في كل مكان... فانظر كيف انتشر الدين واتسع في الأرض ليعم أرجاء المعمورة، فما من بقعة أرض إلا وفيها مسلم يرفع صوته بأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله- وهذا هو النصر، وما سيأتي أعظم مما قد أتى... إذ لابد من يوم ينتشر فيه الإسلام، فيطبق حكم الله في الأرض، بحيث لاتخلو أرض من إقامة شعائر الإسلام قولاً،



وفِعْلاً، وتطبيقاتاً وعملاً، حتى يتذوق الناس طعم الإيمان، وحلاوة الإسلام، فينعموا بالخير والحرية، والعطاء.. وذلك عندما تتحطم القيود، وتتكسر السلاسل، وترفع الأغلال من أعناق العباد، وهو يوم خروج منقذ البشرية وقائدها الإمام المهدي -صلوات الله وسلامه عليه.

٣ - إن سورة الكوثر، على رغم إيجازها، إلا أنها أعجزت الفصحاء، والبلغاء أن يأتوا بسورة من مثل هذه السورة.. فقد كانت ومازالت، وستبقى تتحدى الإنس والجن أن يأتي أحدهم أو كلهم بسورة قصيرة كسورة الكوثر.

٤ - إن الله سبحانه وتعالى، قد أعطى بشري لنبيه الكريم، ووعدته بالنصر على أعدائه، وأخبره بسقوطهم، وانقطاع أمرهم وانبتار أعقابهم، فكان كما أخبر سبحانه.

كان سعيد بن جبیر يقول: «الكوثر - هو- الخير، أعطاه إياه، فقالوا له: فإن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة، قال: النهر الذي في الجنة- هو- من الخير الذي أعطاه إياه».

ومن مصاديق الكوثر أن يسقي عطش الإنسان.. وفاطمة سميت بالكوثر لأنها تسقي عطش محبيها: تسقي عطش الإنسان... تسقي عطش الفطرة وتسقي عطش العقول... وتسقي عطش القلوب، والنفوس، كل ذلك بعملها وحبها، وأخلاقها، وسيرتها الطيبة التي ما وقعت على شيء إلا زانته، وما فارقت شيئاً إلا شانتة.



ثم لِمَ لا؟ ... أليست هي التي تلتقط شيعتها - يوم المحشر- كما يلتقط الطير الحب الجيد من الحب الرديء؟.

وفي تفسير الميزان أن هذه السورة نزلت في العاص بن وائل السهمي - والد عمرو بن العاص- ويدل على ذلك، الخطاب الذي وجهه الإمام الحسن - عليه السلام- إلى عمرو بن العاص الذي يقول فيه: وإنك ولدت على فراش مشترك، فتحاكمت فيك رجال قريش منهم أبو سفيان بن حرب، واليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، كلهم يزعم أنك ابنه، فغلبهم عليك من بين قريش الأممهم حسباً، وأخبثهم منصباً، وأعظمهم بغية، ثم قمت خطيباً وقلت: أنا شائئ محمد، وقال العاص بن وائل: إن محمداً رجل أبتري لا ولد له فلو قد مات انقطع ذكره، فأنزل الله تبارك وتعالى: «إن شائئك هو الأبتري».

«وإن شائئك هو الأبتري، المنقطع النسل والذكر، لا أنت لبقاء عقبك وحسن ذكرك إلى يوم القيامة».

ولمزيد من التوضيح لمعنى الكوثر نقول: النحر.. معناه استقبال القبلة، أي استقبال القبلة بنحرك... والعرب تقول: منازلنا تتأحر أي هذا ينحر هذا بمعنى يستقبله.. أو ارفع يديك إلى النحر في الصلاة وقت التكبيرة- وبعد القيام من الركوع والسجود، كما تقدم.. وتوجد روايات وأحاديث في هذا المجال يمكن الاستفادة منها في أخذ صور جلية واضحة عن هذا الموضوع الذي عالجتة السورة المباركة الأنفة الذكر.



● فكرة وتعليق:

الكوثر فاطمة.. وهي التي يتفجر النعيم والعطاء من جوابنها فكل واحد من أبنائها نعيم لا يعادله نعيم، وكل كلمة من كلامها نعيم ليس له نظير ولا مثيل إلا عند آل محمد ﷺ.

وبهذه المناسبة، وجّه الإمام أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق - صلوات الله وسلامه عليه - سؤالاً إلى أبي حنيفة - النعمان بن ثابت، وكان أبو حنيفة جالساً بين يدي الإمام الصادق كأحد تلامذته لأنه درس حولين كاملين عنده حتى قال كلمته المشهورة: لولا السنتان لهلك النعمان.. أقول: فوجه الإمام الصادق سؤالاً إلى أبي حنيفة حول النعيم الذي ورد ذكره في الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾^(١). فقال له: «ما النعيم عندك يا نعمان؟...».

قال: القوت من الطعام، والماء البارد! فقال الإمام: «لئن أوقفك الله يوم القيامة بين يديه، حتى يسألك عن كل أكلة أكلتها، وشربة شربتها، ليطولن وقوفك بين يديه».

قال أبو حنيفة: «فما النعيم جعلت فداك؟».

قال: نحن أهل البيت، النعيم الذي أنعم به الله بنا في العباد، وبنا ائتلفوا بعد أن كانوا مختلفين، وبنا ألفت الله بين قلوبهم وجعلهم أخواناً بعد أن كانوا أعداءً، وبنا هداهم الله للإسلام وهي النعمة التي لا

(١) التكاثر/٨.



تتقطع، والله سائلهم عن حق النعيم الذي أنعم به عليهم وهو النبي وعترته»^(١).

وقد أشارت الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء، -سلام الله عليها- في خطبتها إلى ذلك حيث قالت: «وجعل الله طاعتنا نظاماً للملة... وإمامتنا أماناً من الفرقة...».

وفي نهج البلاغة نقراً قول الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: «بنا اهتديتم في الظلماء وتسمنتم العلياء». أي بنا وباسمنا ترتفعون إلى القمم العالية...

وهذا كله إنما يشير إلى نقطة بالغة الأهمية في الفكر الإسلامي وهي أن الكوثر هم أهل بيت النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة.. هم فاطمة وأبوها، ويعلمها وبنوها.. ولأن فاطمة لها الثقل الأكبر في الإسلام، ولها دور المركزية بعد أبيها الكريم، فلذلك جاءت سورة الكوثر خالصة لفاطمة دون غيرها.

على أننا لانستغرب ذلك ولانستبعده لأن بطلة السورة هي فاطمة حتى إن الله تعالى لم يذكر الحور العين في سورة الدهر احتراماً، وتكريماً لمكانة البتول الزهراء، وفي يوم المباهلة كلنا يعرف أن النبي لم يخرج معه من النساء سوى فاطمة وكفى بها فخراً فهي سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين، وحضورها في المباهلة يغني عن حضور كل النساء.

(١) الرواية من مجمع البيان في تفسير سورة التكاثر.

فاطمة سيدة نساء أهل الجنة

عن حذيفة قال: قال لي رسول الله ﷺ أما رأيت الشخص الذي
اعترض لي؟

قلت: بلى يا رسول الله.

قال: ذلك ملك لم يهبط قط إلى الأرض قبل الساعة، استأذن الله
عز وجل في السلام عليّ فأذن له، فسلم عليّ وبشرني أن الحسن
والحسين سيذا شباب أهل الجنة، وأن فاطمة سيدة نساء أهل
الجنة^(١).

(١) بحار الأنوار ٤٨/٣٧.



أفضل نساء أهل الجنة

«عن ابن عباس قال: خطَّ رسول الله ﷺ أربع خطط في الأرض وقال: أتدرون ما هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم فقال رسول الله ﷺ: أفضل نساء الجنة أربع: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون»^(١).

أقول: لقد تواترت الأحاديث الشريفة عن رسول الله ﷺ وبطرق مختلفة وأسانيد متباينة أن أفضل نساء الجنة وبالتالي أفضل نساء العالمين: الزهراء - سلام الله عليها - والسيدة خديجة زوجة النبي ﷺ وأم الزهراء، ومريم بنت عمران ﷺ وآسية بنت مزاحم زوجة فرعون.

ولكن مما لا شك فيه أن الزهراء - سلام الله عليها - هي أفضلهن جميعاً، ويستدل على ذلك بكثير من آيات القرآن الكريم حيث اشتركت -عليها السلام- مع محمد ﷺ وعليّ والحسن والحسين في هذه الآيات فيما ورد فيها أي الآيات من فضائل ومزايا اختص بها هؤلاء، وبكثير من الأحاديث الشريفة التي خصصت بها الزهراء من قبل أبيها ﷺ.

قال العلامة المجاهد السيد شرف الدين قدس سره: «تفضيلها على مريم ﷺ أمر مفروغ عنه عند أئمة العترة الطاهرة وأوليائهم من

(١) راجع بحار الأنوار ١٧٨/٨.

الإمامية وغيرهم، وصرّح بأفضليتها على سائر النساء حتى السيدة مريم كثير من محققي أهل السنة والجماعة»^(١).

وروى المجلسي قد سره في بحاره قال: قال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : «فاطمة سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين، وإنها لتقوم في محرابها فيسلم عليها سبعون ألف ملك من المقربين وينادونها بما نادت به الملائكة مريم، فيقولون: يا فاطمة إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين»^(٢).

وقال عليه السلام: «حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون». وفي رواية مقاتل والضحكاك وعكرمة عن ابن عباس: «وأفضلهن فاطمة».

وعن المفضل قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أخبرني عن قول رسول الله ﷺ في فاطمة: «إنها سيدة نساء العالمين» أهى سيدة نساء عالمها؟ فقال: ذلك لمريم، كانت سيدة نساء عالمها، وفاطمة سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين.

وعن العطار قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: قول رسول الله ﷺ: فاطمة سيدة نساء أهل الجنة، أسيدة نساء عالمها؟ قال: «ذاك لمريم، وفاطمة سيدة نساء أهل الجنة من الأولين والآخرين».

وقال النبي ﷺ: «الحسن والحسين خير أهل الأرض بعدي وبعد أبيهما، وأمهما أفضل نساء أهل الأرض».

(١) هامش «النص والاجتهاد» المورد ١١٤/٨.

(٢) البحار ٤٩/٤٣ والآية في آل عمران ٤٢.

وقال عليه السلام: «إن آسية بنت مزاحم ومريم بنت عمران، وخديجة يمشين أمام فاطمة كالحجّاب لها إلى الجنة».

أقول: لا غرو إذا كانت الزهراء -سلام الله عليها- تحتل هذه المنزلة الفضلى، فهي بنت النبوة وأم الإمامة. إنها بضعة النبي وأم أبيها ومن يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها، وشريكة أبيها وبعلاها وبنيتها في الفضل والنورانية والكرم والبذل والسخاء والعبادة والإخلاص والورع، وأشبه الناس سمةً بأبيها ما تخرم مشيتها مشيته ولهجتها لهجته، من أجل ذلك كله ومن أجل غيره من المزايا التي لم نأت على ذكرها، تبوأَت -سلام الله عليها- هذه المنزلة في دنيا الإسلام والمسلمين وفي الزمن السرمدى الذي لا يزول.



في الظلمة - والنور

• نور العين والقلب:

حاجة الإنسان إلى النور، أشد من حاجته إلى الماء والهواء. وذلك أنه من دون نور يجد الواحد منا نفسه غارقة في ظلام دامس، والنور .. نوران: نور العين، ونور القلب. فالقلب رؤية أكثر عظمة من رؤية العين. ونحن نعرف أن الرؤية، لا تتم بغير نور، لأن وجود النور شرط أساسي في صحة كل رؤية، ومن هنا نعرف أن النور الذي نتحدث عنه بهذه الأوراق معناه: نور البصر، ونور البصيرة.

والشيء الملفت، أن العين لا تتمكن من النظر الصحيح إلا بعد أن تتوفر لها شروط ثلاثة وهي:

أولاً: سلامة العين... ثانياً: وجود الهواء... ثالثاً: وجود النور...

ففي الظلام، العين سالمة، والهواء موجود، ولكن مع ذلك لا يستطيع الإنسان أن يبصر طريقه، وليس في إمكانه أن يرى أي شيء على الإطلاق، والشيء نفسه يقال بالنسبة للأعمى، فالهواء موجود، والنور موجود، ولكنه لا يرى شيئاً من ضياء الدنيا ولا من أشياءها، لأن بصره معطوب، وكما أن العين لا تستطيع أن تؤدي دورها في النظر إلا بشروط ثلاثة، كذلك القلب لا يستطيع أن يرى الحقيقة ويعرف الطريق، إلا بشروط ثلاثة أيضاً، وهي كالتالي:



الأول: سلامة القلب.. لأن القلب السليم وحده هو الذي يتمكن من الإبحار إلى رضوان الله سبحانه وتعالى.. حيث يقول القرآن الكريم: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^(١).

أما القلب المريض، فلا يزداد صاحبه إلا مرضاً وتخبطاً في الظلام والضياء...

الثاني: عمارة القلب وتقويته بالإيمان بالله سبحانه حيث يقول الحق: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٢).

الثالث: نور العلم واليقين.

ومن خلال التفاصيل التي تلي هذه المقدمة، ستكون الصورة أكثر وضوحاً وعمقاً.

وفي القرآن الكريم، نقرأ سورة النور، وفيها أن الله سبحانه، هو نور السموات والأرض، وأيضاً نقرأ في مكان آخر من القرآن، آيات تتحدث عن الرسول الأعظم محمد ﷺ وتصفه بأنه نور الله في الأرض... ثم نجد آيات تتحدث عن القرآن وتطلق عليه صفة النور تماماً كما أطلقت صفة النور على النبي المصطفى.. وبعد هذا وذاك، يطلع القرآن الكريم عليها بحزمة من الآيات المباركة التي تؤكد على أن الإنسان، لكي يعيش في الحياة بسعادة وانطلاقة، لابد له من نور يسير على هديه. ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾^(٣).

(١) الشعراء / ٨٨ - ٨٩.

(٢) الرعد / ٢٨.

(٣) النور / ٤٠.



فما هي قصة هذا النور الذي تحدث عنه القرآن الكريم؟ وما علاقته
بالإنسان؟ للإجابة تعالوا معي نقرأ الصفحات التالية:

● مساحة الظلام:

في الكون نور، وفي الكون ظلام، والظلام هو المسيطر على أغلب
أجزاء هذا الكون.. فمثلاً الأرقام العلمية - في القرآن الحكيم،
وأحاديث الرسول الأعظم، وأهل بيته الطاهرين، ومحافل العلم الحديث
في الغرب والشرق- كلها تؤكد حقيقة واحدة، وهي أن الله سبحانه
وتعالى - خلق خلقه في ظلمة، وأن الله وحده، هو نور السموات
والأرض، وكل شيء متطور به...

فالسمااء كلها ظلام.. ويكفي لمن يريد معرفة ذلك، أن يركب سفينة
فضائية، ويخرج بها من غلاف الأرض الجوي، فإنه سرعان ما يجد
نفسه غارقاً في ظلمات بعضها فوق بعض، بحيث إذا أخرج يده من
السفينة لم يكدرها ويراها والقرآن الكريم يقول بهذا الصدد: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى
السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾^(١).

وفي آية ثانية يقول: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾^(٢).

وأغطش ليلها.. أي جعل ليلها شديد الظلام. ويقول القرآن في آية
ثالثة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾^(٣).

(١) فصلت/ ١١.

(٢) النازعات/ ٢٩.

(٣) الأنعام/ ١.



فالظلمات ترجع إلى السموات، والنور إلى الأرض، حسب الترتيب البلاغي.
ونحن نعرف أن السفن الفضائية حين تخرج من مدار الأرض، تغوص
في آفاق مظلمة، ليس فيها إلا النجوم تتلألأ كأنها حبات لؤلؤ منثور.
أما وجود النهار فيحدث بسبب الغلاف الغازي المحيط بالأرض،
وبفعل القوانين المذكورة في الفيزياء النظرية، والعلمية كما هو معروف
لدى الطلاب في هذا المجال. ومنها قانون انعكاسات النور والقمر له
وجهان: وجه مضيء دائماً، ووجه مظلم دائماً، فالوجه المقابل للشمس
مضيء.. والآخر مظلم.. والقمر متوجه إلينا بوجهه المضيء، إذن:
فالسما ظلام.

وحين تأتي إلى الأرض، نجد البحار كلها ظلام.. حيث يقول القرآن
الكریم: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ
ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾^(١).

ونحن نعرف أن البحار تشكل ثلاثة أرباع اليابسة، وهذا يعني أن
الظلام يغطي أكبر مساحة من الأرض.

وفي مكان آخر من القرآن الكريم نقرأ آيات تقص علينا حكايات
يونس النبي العظيم، وهو بطن الحوت تجوب به ظلمات البحار
وعواصفها حيث يقول الحق ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذُهِبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَّنْ نُّقَدِرَ
عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)
فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

(١) النور/٤٠.

(٢) الأنبياء/٨٧-٨٨.



والشاهد في قوله تعالى: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾.

وهي ظلمة الليل. وظلمة البحر.. وظلمة بطن الحوت وفي خلق الإنسان يقول الحق سبحانه: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ﴾^(١).

وإنما قال في ظلمات ثلاث لأن الجنين يقبع داخل الرحم في ثلاث ظلمات:

١ - ظلمة البطن.

٢ - ظلمة الرحم.

٣ - ظلمة جدار الجنين.. فالطفل قابع في الرحم، ولكنه في حالة سجود لله سبحانه وتعالى.. أي أن وضع الجنين في بطن أمه يشبه إلى حد بعيد، وضع الساجد وحالة السجود، بل هو ساجد لله بكل تأكيد، إذ أنه ما من شيء في هذا الكون إلا وهو ساجد لله سبحانه وتعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ﴾^(٢).

(١) الزمر/٦.

(٢) الإسراء/٤٤.



النوم . . . وإفلاس الحضارة الغربية

يقول القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾^(١).

حكمة الله في النوم تبدو واضحة لا يشوبها كدر.. فالنوم يعدُّ من أبرز علامات الحكمة الربانية، والقدرة الإلهية، ذلك أنه ذو أهمية بالغة للإنسان، فمن غير نوم لا يستطيع المرء أن يقوم بأي نشاط في أي مجال من مجالات الحياة.

إن النوم - أولاً وقبل كل شيء- يعطي الإنسان، النشاط العقلي، والجسدي، فهو في الوقت الذي يحافظ فيه على نشاط العقل، نراه يحفظ الجسد من الانهدام الانفراط... هذا أولاً.. وثانياً، فإن النوم يسكب الهدوء في النفس، ويصب الطمأنينة في داخل الإنسان.. ونحن حين نقرأ الآية نجد أن اللفتة العلمية لا تغيب عنها أبداً: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾^(٢).

على أن الآية الكريمة عندما تقول : «لقوم يسمعون» فإنها تشير إلى حقيقة علمية وهي ربط حاسة السمع بالنوم، وذلك يعني أن حاسة السمع لا تتعطل في أثناء النوم وإنما تظل تعمل على الدوام، وهي - أي

(١) الروم/٢٣.

(٢) الروم/٢٣.



حاسة السمع- بخلاف البصر إذ أن العين تغفو في النوم ولكن الأذن تبقى تلتقط أمواج الأصوات وتبعث بها إلى الذهن.. ولذلك حين تقف أمام رجل نائم فإنه لا يستيقظ من نومه لأن الحاسة التي يراك بها معطلة ونائمة وهي العين.. وفي حين أن الأذن لا تنام أبداً بدليل أنك إذا رفعت صوتك وناديت النائم باسمه فإنه سيستيقظ لامحالة من النوم.

والذين هم محرومون من لذة النوم وطعمه.. هم وحدهم الذين يعرفون عظمة هذه النعمة. ويدركون كيف صار النوم آية تدل على وجود الله سبحانه وتعالى.

إن القلق الذي يعصف في النفوس، ويقتل النوم في العين. يعد سمة بارزة من سمات حضارة الغرب المادية.. حتى لقد عادت الأقراص المنومة تحتل الرفوف الأولى في صيدليات العالم! وهل ذلك إلا دليل صارخ على إفلاس الحضارة المعاصرة؟

أجل .. إن الحضارة أفلست لأنها عجرت عن إرواء عطش الإنسان، وإشباع جوعه الفطري القاتل.. إن الكنيسة أظهرت إفلاسها وعجزها، وأعلنت - صراحة- أنها لم يعد في إمكانها أن تسدّ هذا الجوع الفطري الذي ينهش القلوب، ويقتل النوم في العيون.. على أنه لا علاج للبشرية إلا بالبحث عن حضارة الإسلام.

إن الحضارة الإسلامية هي وحدها الحضارة القادرة على سقي عطش الإنسان، فهي التي تسقي عطش الفطرة.. وعطش الروح وتسقي عطش العقل بالعلم، وتسقي عطش الجسد بأن توجه طاقاته نحو البناء وليس نحو الهدم... ولذلك فإن من أسماء فاطمة الزهراء، -



سلام الله عليها- الكوثر كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١﴾
فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ۝٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾ (١).

ومن معاني الكوثر، الحوض والنهر.. وإنما سميت فاطمة بالكوثر لأنها تسقي عطش الفطرة، وتسقي عطش الروح وتسقي عطش العقل. وبالتالي تسقي عطش النفس.. فالفطرة لا ترتوي إلا بحب فاطمة.. وإن الروح لا تتطلق إلا بعقيدة فاطمة وأن العقل لا يتغذى إلا بعلم فاطمة.. لأن العقل يتغذى بالعلم كما قال علي أمير المؤمنين عليه السلام وحينما نقول: فاطمة، فإن معنى ذلك، أن فاطمة هي القطب العظيم الذي تدور حوله رحي الإسلام.

والآن ارجع بك أيها القارئ الحبيب إلى أصل الموضوع، وهو إفلاس الحضارة الغربية من الخير والعطاء. وقد ضربنا مثالا على ذلك الإنسان الممزق الذي يعيش في ظل هذه الحضارة، في ضياع وقلق وحرمان روحي قاتل.. ثم ذكرنا أن النوم العميق أصبح أعز من الكبريت الأحمر في البرازيل على إنسان حضارة الغرب، وإذا عرفنا أن نسبة الناس الذين يتعاطون أقراص النوم تتصاعد في ازدياد مدهش ومثير أدركنا كم هو حجم الفاجعة التي حلت بهذا الإنسان المسكين الخاسر.. الذي خسر كل شيء في حضارة المادة والطمع.

على أن زهاب النوم من العين، يؤدي إلى فقدان الحياة، وانعدام السعادة، كما أنه في الوقت ذاته يوجب الأمراض العديدة، ويحطم الأعصاب، إن فقدان النوم يضرم النار في قوى البدن فيحرقها ويحولها إلى رماد وبالتالي يؤدي إلى شلل كامل لقدرة الإنسان.. وخصوصا

(١) الكوثر/ ١-٣.



قدرته على التفكير والتركيز، وذلك أن خلايا الدماغ إنما تستعيد نشاطها من خلال النوم فقط، فقد أثبت العلم في هذا المسعى أن خلايا الدماغ، والجهاز العصبي، تكون في قمة نشاطها خلال النوم، ويكون الإنسان في أحسن حالاته عندما يرتوي بدنه في هجعة من النوم العميق.

وقد أكدت التجارب التي أجريت في هذا المضمار على أن الإنسان يحتاج إلى النوم أكثر من حاجته إلى الطعام.. وذلك لأن الإنسان يستطيع أن يصوم عن الطعام لستة أسابيع، ولكن ليس في إمكانه أن يمتنع عن النوم أكثر من عشرة أيام فإنه لا محالة سيموت في اليوم العاشر بالقطع... هذا طبعاً إذا كانت صحته تساعد على الاستمرار في اليقظة وعدم النوم.... وإلا ففي أغلب الأحيان نجد بعض الناس لا يتمكنون أن يقاوموا السهر لأكثر من يومين أو ثلاثة أيام على الأكثر كما هو معروف، لدى الباحثين في هذا المجال.

ولقد جاءت الأرقام العلمية مؤخراً لتثبت أن جميع الكائنات تزاول النوم وتتعاطى الهجوع كالإنسان والحيوانات، والزواحف والطيور، والأسماك، وحتى في عالم النبات، فقد أكدت الأرقام العلمية أن الشجر والنبات وكل شيء في الوجود يتعاطى النوم في اليوم مرة أو مرتين. فقد قال العلماء - في مجال النبات : إن الأشجار، والنباتات كلها هي الأخرى تنام وتستيقظ، فلها نوم ولها يقظة....

وفي الفكر الإسلامي، نجد الإمام جعفر بن محمد الصادق - عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام - يقول: «ما من حيٍّ إلا وهو ينام، خلا الله وحده، عز وجل» أي أن كل شيء ينام ماعدا الله فإنه حي قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم.



من وحي ليلة القدر

• سر ليلة القدر لا يعرفه إلا المقربون:

قال الله العظيم في كتابه الكريم:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥)﴾ (١).

في ليلة القدر، سر عظيم رفعها وجعلها خيراً من ألف شهر، وفيها تشويق لذيد لمعرفة ذلك السر المكنون في أعماقها.

وبقليل من التأمل في قرارة هذه السورة الكريمة، نحس بقوة جبارة، تحرك الأمواج في داخلنا: أمواج الفكر، والمعرفة في أعماق نفوسنا، بغية استيعاب، وإدراك ليلة القدر، ففيها سر عظيم مكنون لا يعرفه إلا المقربون الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى.

إذاً: فسورة القدر فيها تشويق، وترغيب لإدراك ليلة القدر، واستيعاب مفزاها، وحينما يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾.

فإنه إنما يريد أن يثير أمواج الشوق في داخلنا ويحرك سنابل المعرفة في نفوسنا، برياح العلم والوعي، وكل ذلك من أجل استيعاب

(١) القدر/١-٣.



السر العظيم الذي تحمله هذه الليلة المباركة التي جاءت لتسكب السعادة في قلوب البشر.

ولتوضيح الفكرة: إنه مادام أن معرفة ليلة القدر، تفوق الإدراك البشري العادي، أي أنها تفوق إدراك سائر الناس من السواد الأعظم، فإنه لا بد أن يكون فيها سر عظيم، والسر تقتضي معرفته استيعاباً كاملاً لمعنى ليلة القدر، والغاية التي نزلت ليلة القدر من أجلها، وأجل تحقيقها في الأرض.

من هذا المنطلق، فإنه لا بد لنا من البحث والتأمل في هذا المجال، حتى نلمس السر العظيم الكامن في ليلة القدر، فنذكر - حينئذ - الغاية التي كانت ليلة القدر وراءها. وفي النهاية: بمعرفة ذلكم السر ندرك ليلة القدر.

● معرفة الإسلام تمر عبر أهل البيت:

عندما نريد أن نعرف ماهو الإسلام، فإنه ينبغي لنا أن نتوجه إلى البيت الذي نزل فيه القرآن، وانبثق نور الإسلام من أبوابه، أن نتوجه إلى البيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه... ينبغي أن نقيم وجوهنا شطر تلكم البيوت التي انتعش الإسلام في ربوعها، وانطلق نور الإسلام من منائرهما وقممهما، تلكم المنازل التي وصفها شاعر العقيدة والولاء، دعبل بن علي الخزاعي، الذي كان يحمل خشبة إعدامه على ظهره ويطوف بها في البلدان لا خائفاً ولا وجلاً، دالاً على أهل البيت بعقيدته، وعلى منازلهم بأشعاره حيث وصفها وصفاً دقيقاً. يقول في بعضها:



منازل، وحيُّ الله ينزل بينها
منازلٌ قومٌ يَهْتَدِي بهُداهمُ
منازل كانت للصلاة وللتقى
منازل، جبريلُ الأمينُ يحلُّها
منازل وحي الله معدنُ علمِهِ
على أحمد المذكور في السورات
فَتُؤْمِنُ مِنْهُمْ زُلَّةُ الْعَثَرَاتِ
وَالصَّوْمِ وَالتَّطَهِيرِ وَالْحَسَنَاتِ
مِنْ اللَّهِ بِالتَّسْلِيمِ وَالرَّحِمَاتِ
سَبِيلِ رِشَادٍ وَاضِحِ الطَّرِيقَاتِ

أقول: عندما نريد أن نعرف ماهو الإسلام، فإنه لابد لنا من أن نيمم
وجوهنا شطر هاتيك البيوت.

● فاطمة سر الإسلام:

كيف نعرف حقيقة الإسلام ماهي؟

سؤال يتبادر إلى أذهان الكثير منا، وكل واحد تراه يحمل جواباً
مختلفاً لهذا السؤال، فواحد مثلاً تراه يظن أن معرفة الإسلام في
العبادات، وآخر تراه يعتقد أن المعرفة تكمن في المعاملات والمكاسب،
وفي حين أن ثالثاً يقول: إن الإسلام نعرفه من خلال القرآن، ورابع
يؤمن بأن الطريق الأفضل لمعرفة الإسلام هو دراسة الفقه الإسلامي،
وهكذا دواليك، والنتيجة أن ليس في هؤلاء واحد استطاع أن يضع يده
على الحقيقة. ١.

صحيح أن العبادات، والمعاملات وبقية الناهج الفكرية في الإسلام
في إمكانها أن تكون صورة واضحة عن الإسلام، بل أكثر من ذلك إن



في إمكان كل شعيرة من شعائر الإسلام، أن تعكس الإسلام، وهذا صحيح جداً لمن يتأمل ويتدبر كل شعائر الدين الإسلامي بشكل واضح ودقيق، ولكن الصحيح أيضاً أن الإسلام الحقيقي، والصورة الواقعية للإسلام لا يمكن أن نلمسها إلا من خلال أهل البيت، وأخص من بينهم فاطمة الزهراء - سلام الله عليها - بالذات لأنها تستطيع أن تعطي انصع صورة للإسلام من خلال شخصها الكريم، وسيرتها الذاتية.

وهذا لا يعني أن غيرها من أهل البيت ليس في إمكانهم أن يعكسوا صورة الإسلام بسيرتهم، فكلهم نور واحد، وإثبات الشيء لا ينبغي ماعداه، ولكن على رغم ذلك فإن الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء - سلام الله عليها - تبقى هي الأكثر تألقاً، والأنصع صورة في هذا المجال، مجال انعكاس الإسلام.

إن فاطمة الزهراء، هي انعكاس صادق لآيات الله الكبرى، وللقرآن الكريم، ولسيرة أبيها العظيم، محمد ﷺ بل هي الإسلام يمشي في الحياة، وهي القرآن يتلى آناء الليل وأطراف النهار، وهي بعد ذلك السر العظيم الذي جعل ليلة القدر خيراً من ألف شهر.

● فاطمة بوابة الإسلام:

وإذا أردت شيئاً، فلا بد أن تأخذ الطريق الموصل إليه، ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾^(١).

لاحظوا دقة التعبير: إن هناك طريقاً يفضي إلى الآخرة ولها سعي

(١) الإسراء/١٩.



خاص بها، فالذي يريد لها يجب أن يسعى سعيها أي سعي الآخرة لا سعي الدنيا، وهذا مثال ضربناه هنا، لمعرفة أن الأشياء إنما تؤخذ من طرفها، والبيوت إنما تؤتى من أبوابها.. وهكذا...

ونظرة واحدة نلقيها على أعمدة الفكر الإسلامي، وجوانب الإسلام العظيم، ترينا بوضوح أن أعظم بوابة لمعرفة الإسلام هي فاطمة الزهراء، وعلاقتها بالرسول ﷺ على أن فاطمة ليس في الإمكان فصلها عن الإسلام بأي حال من الأحوال، وسيأتي البحث في ذلك..

● ليلة القدر سر مكنون:

لكي يأتي البحث واضحاً وثيقاً ولذيذاً، لابد من المقدمة التالية: من أين ينطلق الإسلام؟

الإسلام ينطلق من الرحمة، لأنه دين الرحمة، فإله سبحانه كتب على نفسه الرحمة، وأرسل رسوله بالهدى ودين الحق، وجعله رحمة للعالمين، وأنزل القرآن، وكل آياته تتضح بالرحمة حتى تلك التي فيها غلظة على الكفار والمنافقين فإنها لا تترك الرحمة بأي شكل من الأشكال.

ونقرأ في الدعاء: «يا من سبقت رحمته غضبه»، ونقرأ أيضاً: «اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء». إذاً: فكل شيء يدور في هذا الكون إنما يدور تحت رحمة الله، ولذلك يقول القرآن الكريم ﴿وَمَنْ يَتَّغِ الْإِسْلَامَ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١).

(١) آل عمران/٨٥.



ومن هنا نجد القرآن قد نزل على قلب النبي: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك﴾.

وكلكم تقرأون: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾^(١).

لاحظوا : أنه يقول: إذا نزل القرآن على جبل صدعه خشوعاً، فكيف إذا نزل على قلب إنسان؟ وكيف إذا نزل على أعظم قلب في الوجود نزل على قلب أبي القاسم محمد بن عبد الله ﷺ إذا كان نزوله- أي نزول القرآن- على جبل يؤدي إلى تصدعه من خشية الله، فما بالكم بالقرآن ينزل على أعظم قلب وأرق قلب يمكن لإنسان أن يحمله، وهو قلب المصطفى، قلب أبي الزهراء، محمد؟ أقول: إذا نزل على الجبال يصدعها، ويفجرها خشوعاً، فما بالكم إذا نزل على قلب رسول الله...؟ ماذا يفجر به؟ ماذا سيفجر بقلب النبي؟ ... يفجر فيه العاطفة، والرحمة.

وبقليل من التأمل على نزول القرآن على قلب المصطفى، نهتدي إلى أن القرآن صنع من قلب النبي أرق قلب وأطيب قلب في الوجود. يصفه الحق بقوله: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ...﴾^(٢).

ويقول: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾^(٣).

(١) الحشر/٢١.

(٢) آل عمران/١٥٩.

(٣) التوبة/١٢٨.



انظروا هذا المكان الذي اختاره الله عز وجل لنزول القرآن.. إنه قلب النبي. قلب رسول الله، ﷺ.

لا شك أن الصور الآن تمر من أمامنا متلاحقة وسريعة، لكن انظروا ثانية بدقة أكثر، أقول: لقد اختار الله قلب حبيبه المصطفى مكاناً لنزول القرآن الكريم، فما هو الزمان الذي اختاره الله عز وجل لنزول القرآن الكريم؟ هنا يقع الاختيار على الليل، وليس على النهار، فالليل غير النهار، النهار فيه خشونة ومجادة وجهاد وكفاح، في حين أن الليل فيه سكون ودفع وطمأنينة وهدوء بال.

إذا فالقرآن، له زمان هو الليل، ولكن ليس كل الليل، وإنما اختار ليلة واحدة هي أعظم الليالي كلها، بل هي أعظم وأفضل من ألف شهر: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥)﴾.

إنها ليلة، ولكنها خير من ألف شهر. ففيها نزول الملائكة، تنزل الملائكة في هذه الليلة المباركة بكل أمر، وبكل شيء،... ثم يصف الليلة بقوله: إنها مباركة ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾^(١).

إلى آخر الآيات التي عنيت بإعطاء صور واضحة وجميلة وشاملة ومعبرة عن هذه الليلة التي هي خير من ألف شهر وهي ليلة القدر. ولأن القرآن يفسر بعضه بعضاً، فإننا في إمكاننا أن نستوعب كل

(١) الدخان/٤.



ما يحدث فيها - أي في ليلة القدر-، من عطاء وخير وبركة، فيقول: ﴿مَنْ كُلُّ أَمْرٍ﴾.

ثم يقول: ﴿فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾.

والحكمة إنما تصدر من الحكيم الذي لا يصنع العبث، وتأتي آيات أخرى تتحدث عن ليلة القدر فتصفها بأنها ليلة خير وعبادة، وعطاء ودعاء ورزق وبركة... ثم تقول: ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾.

أي أن كل شيء يقع في هذه الليلة إنما هو سلام ولا يخرج عن دائرة السلام، وكل شيء وأمر يكتبه الله للعباد في هذه الليلة، ليلة القدر، إنما يكتبه وفقاً لموازين الحكمة والخير، والرحمة والسلامة، وليس للشر والحرمان مكان فيها أبداً.

إذاً فقوله: ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾.

مفاده ومعناه: أن رحمة الله وسعت كل شيء وكل أمر في الكون، وأن أبعاد الإسلام كلها تدور في فلك الرحمة، ومروج السلامة.

وبعد هذه المقدمة، فهل هناك مجال لغير الرحمة في الإسلام؟

لا... طبعاً. وإذا جئنا إلى سيرة الرسول وأهل بيته، وجدناها ملئت رحمة وأمناً وسلاماً من أولها إلى آخرها، ولمن يريد المزيد من المعلومات فمأخذه إلا أن يحرك حقول التاريخ بحثاً عن الحق.

٣	- المقدمة
١١	- اللوح الأخضر في يدي فاطمة عليها السلام
١٣	- جابر يحدثنا
١٦	- اللوح الأخضر
١٧	- مزيد من الضوء
٢٢	- حقيقة الكلمة
٢٧	- فاطمة عليها السلام والطريق الواضح
٣٥	- حقيقة أخرى
٤٣	- فاطمة عليها السلام كلمة الله التامة
٤٨	- عوده إلى أصل البحث
٦٣	- مزيد من التوضيح
٦٩	- تمام الكلمة عند فاطمة الزهراء عليها السلام
٧٥	- توضيح آخر
٧٨	- يا ميزان الأعمال
٨٢	- طاقات متعادلة
٨٥	- الانتفاع بالإمام الغائب
٨٧	- مصادر الطاقة والكلمة
٩٠	- فاطمة عليها السلام هي الكلمة الطيبة
٩٣	- فاطمة عليها السلام هي الليلة المباركة
٩٤	- فاطمة عليها السلام كلمة الغضب
١٠٠	- فاطمة عليها السلام كلمة المعرفة
١٠٩	- فاطمة عليها السلام شجنة مني
١١٨	- فاطمة عليها السلام أصدق الناس لهجة
١١٩	- أنا ولد فاطمة أنا أبوهم وعصبتهم
١٢١	- فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني
١٢٧	- قلادة في عنق فاطمة
١٤٧	- حوار في المنبر
١٩٣	- حديث الكساء رؤية حضارية

- باقة من الأزهار الكسائية ٢٠٩
- آية التطهير وحديث الكساء في أعيان الشيعة ٢٢٩
- اللفتة الحضارية عند أهل الكساء ٢٣٧
- الإنسان مسؤول خلاف غيره من الكائنات ٢٣٩
- ملاحظات حول حديث الكساء
- ملاحظة أولى ٢٤٩
- ملاحظة ثانية ٢٦٢
- ملاحظة ثالثة ٢٦٩
- ملاحظة رابعة ٢٧٥
- حب فاطمة عليها السلام رمز الطاعة ٣٠٥
- أهل البيت عليهم السلام ونجوم السماء ٣٠٩
- حب أهل البيت عليهم السلام رمز للطاعة ٣١٠
- اذكروا محاسن أخلاق النبي (ص) وأهل بيته عليهم السلام ٣١٤
- المعصومون مثلنا وليسوا مثلاً ٣١٦
- الرسول (ص) وعلي عليه السلام من شجرة واحدة ٣١٩
- فاطمة عليها السلام مشكاة لا تتطفئ ٣٢٣
- فاطمة عليها السلام في القرآن ٣٨٣
- تأملات في سورة الكوثر ٣٨٩
- بحث في سورة الكوثر وخطبة زينب عليها السلام ٤١٢
- مقاطع من خطبة الحوراء زينب عليها السلام ٤١٨
- سورة الكوثر تنحصر في الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام ٤٢٣
- لكل شيء زينة وزينة الصلاة رفع اليدين ٤٣٠
- فاطمة عليها السلام سيدة نساء أهل الجنة ٤٣٦
- أفضل نساء أهل الجنة ٤٣٧
- في الظلمة والنور ٤٤٠
- النوم وإفلاس الحضارة الغربية ٤٤٥
- من وحي ليلة القدر ٤٤٩